ومضات إيمانية

(تأملات وآراء ونصائح في العقيدة والإيمان والسلوك المرتبط بهما)

وفي آخره

دراسة مختصرة
في تعدد الزوجات

تأليف

زهير آميدي

الكتـاب : ومضات إيمانية
وفي آخره : دراسة مختصرة في تعدّد الزوجات

المـؤلف : زهير آميدي

النـاشر: دار الكتب العلميــة ــ بـيروت

عدد الصفحات: 192

سنة الطباعة : 2006 م

بلد الطبـاعة : لبنــان

الطبعـة : الأولى

Title : WAMADĀT ĪMĀNIYAH
(Sparkles of Faith)
Followed by
Dirāsah muhtasarah
fī ta'addud al-zawjāt
(A brief study about polygamy)

Author : Zuhayr Āmīdi

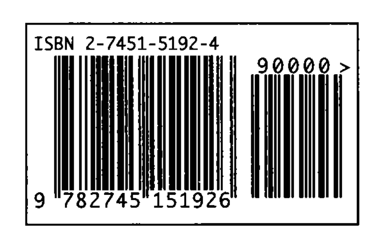
Publisher : Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages : 192

Year : 2006

Printed in : Lebanon

Edition : 1st


ISBN 2-7451-5192-4
9 782745 151926 90000 >

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على الحبيبِ مُحمَّد المبعوثِ رحمةً للعالمين وعلى آلهِ الطيبين الطاهرين وصحبهِ الكرام الميامين.

المقتحم لميدانِ الأدب ونظم القصيدة أو المتبحر فيهما قد لا يفكر كثيراً وهو يهم بالكتابة كيف يكون وقع ما يكتب على من يقرأ له. ويمكنه أن يبرر ما قد يبرز من نقد على العمل الذي أصدره والرد عليها جميعاً.

ومن يكتب في السياسة لا يجد أصلاً أيَّ حرج في الموضوع الذي يطرحه مهما حدثَ اختلاف بشأنه لأنَّ بإمكانه القول أنها وجهة نظره الخاصة ويكون كذلك بمنأى عما يتعرض لهُ أهل الأدب من نقد لجوهر العمل الذي أصدره أو قوة بيانه أو حبكة موضوعه أو سلاسة حواره أو غير ذلك من مستلزمات كتابة الرواية أو نظم الشعر.

أمَّا من يكتب في موضوع يخص العقيدة أو الإيمان أو السلوك المرتبط بهما فإنَّه يكون في وضع مختلف تماماً فيشعر بالخوف قبلَ أن يبدأ بالكتابة ويشعر بالخوف أثناءَ الكتابة وبعدها. أو هكذا شعرت وأنا أقتحم هذا الميدان للمرة الأولى وقد تجاذبتني مخاوف جمَّة لا أجد حرجاً أن أكشفها وهيَ على النحو التالي:

- لماذا أكتب؟؟ هل خلتِ الساحة من العلماء الأعلام والفقهاء العظام ممن أفنوا جلَّ عمرهم في فهم القرآن ودراسة الحديث وأصول العقيدة والعبادات وما يتعلق بها من أوامر ونواهي، ليأتي رجلٌ من عامة الناس مثلي فيرشد الناس إلى امور دينهم وعقيدتهم وأنا في حقيقة الأمر أحوجهم لتلقي العلم والإرشاد والنصح.
- ماذا أكتب؟؟ لستُ بفقيهٍ ولا بعالم. وإذا كتبت فهل أكون دقيقاً فلا أقترف

شطحات خلال تناول الموضوع تخرجه من إطار المنهج الرباني وما اتفق عليه السلف الصالح فأكتسب ذنباً في الوقت الذي انشد الثواب.

- هل أبتغي مما أكتب شهرة دنيوية ؟؟ وكيفَ أتقي الرياء أو الزهو والكبر إذا طربَ سمعي لمديحٍ صادق أو مهادن وكلها أمور مهلكات محرقات للعمل الصالح.

- هل إنَّ سلوكي بمستوى ما أدعو إليه من البر والعملِ الصالح فلا أكون من الذينَ ينزل عليهم غضبُ الله (والعياذُ بالله) بأنَّهم قومٌ يقولونَ ما لا يفعلون. أو أسمعُ همساً أو لمزاً ممن يقرأ ما أكتب فيقول من هذا الذي جاءَ ينصحنا ؟؟ أليسَ الأولى أن يصحِّحَ خطأه ويُقوِّمَ اعوجاجه قبلَ أن يكونَ لنا من الناصحين؟؟

ولكن بعدَ طولِ تردد نظرت إلى الموضوع من زاويةٍ ثانية، نعم أنا رجلٌ من عامة الناس، ولستُ بعالمٍ ولا فقيه ولا متبحر في أمور الدين ولكنَّ الله سبحانهُ وتعالى أكرمني بملكة الكِتابة فماذا يضير لو طرقتُ موضوعاً معيَّناً أو تعرضت لسلوكٍ محدد فتعمَّقتُ فيه من باب الاستزادة من العلم أولاً ثمَّ أنقل هذهِ التجربة باسلوبٍ مشوق على الورق وأنشرها بينَ أهلي وأحبتي وإخواني من بابِ التناصح والتذاكر، ومن باب شد أزر بعضنا البعض. فكلنا بحاجة إلى التذكير والنصح ويكون الأمر كمن يتدارس معَ إخوانه وأبناءِ أمراً يخص العقيدة أوالسلوك وليسَ مهماً من يهيئ موضوعَ الدرس طالما أنَّ الهدف والمبتغى هوَ تصحيح العقيدة وتقويم السلوك وأن نتواصى بالحقِّ ونتواصى بالصبر.

ومن يقرأ القرآن بتدبّر يجد فيه مغانمَ كثيرة فالقرآن هذا الكتابُ العظيم يحمل سر خلوده في إعجازه وقوة بيانه، وفي دقة معانيه ورقي الحكمة والعلم الذي يحويه، وفي القصص والعبر في آياتهِ وسوره.

والقرآن بحرٌ يتسع لكلِّ غواصٍ يروم استخراج لآلئه ومرجانه ومنهم من يكونُ الغوص مهنته ويعلم فنونه ويمتلك أدواته فيذهب بعيداً في الأعماق ليستخرج من كنوزه ما لا يقدر عليه أو ينافسه في ذلك أحد، والقرآن الكريم بحرٌ لا تنضب كنوزه إلى يوم الدين، بل كل آية من آياته بحرٌ قائمٌ بذاته.

ولأنني رجلٌ لا أعرف الغوص ولا أمتلك أدواته فكنت كمن ينصب شباكه قرب الشاطئ أولا يغوص في البحر إلا قليلاً ولا يمكن والحالة هذهِ أن يكون صيدي ثميناً يشار إليهِ بالبنان بل يكون متواضعاً قد لا يتنبه إليهِ أحد ولكن شفيعي هوَ أنني حاولت ونرجو من الله ﷻ أن يثيبنا على هذهِ المحاولة.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنَّ هذا الكتيب رغمَ تواضعهِ لم يكن ليخرج إلى النور بجهدي الفردي بل كانَ هناك من ساهمت في طباعته موضوعاً بموضوع وبذلت في ذلكَ الجهد الكثير وساهمت في إخراجه بصورتهِ النهائية وكانَ هناك من قرأ هذهِ المواضيع - بعيدَ طباعتها- من أهلي المقربين فاستحسنوها وآزروني وحظوني على المزيد. وكانَ وراءهُ أستاذٌ جليل قرأ ما أكتب فنصحَ وأوصى وتعهد فأوفى وأعطى من جهدهِ ما أعطى.

فكانَ نتاجَ الجهود المبذولة كلها هذا الكتيب الذي نضعهُ جميعاً بينَ يدي أخواتنا واخواننا وأبناءنا وبناتنا ممن يجد سبيلاً إلى قراءتهِ. فمن وجدَ في موضوعاتهِ مادة تستحق النشر أو أنها أضافت لمعلوماتهِ شيئاً جديداً أو أيقظت في قلبهِ خصلة كريمة كانت راقدة، أو أرسلت لفكرهِ ومضة إيمانية تحثّهُ على التفكر والتدبر، نسألهم جميعاً أن يدعوا لنا بالثبات على الإيمان وأن يرينا الله الحق حقاً ويعيننا على اتباعه ويرينا الباطلَ باطلاً ويعيننا على اجتنابه ونسأل الله أن يكتب لنا هذا الجهد صدقة جارية من بعدنا.

ورجاءنا ممن يجد فيها ثغرة أو نقيصة أو خللاً أن يهديها إلينا فكرامُ الناس هم الذينَ يهدونَ الناسَ عيوبهم بنية النصح والتقويم.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ على مُحَمَّدٍ خيرِ المرسلين وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم.

زهير آميدي

بغداد - مايس ٢٠٠٥
emadi_1000@yahooÛcom



١ - الاسلوب الرسالي في الدعوة الى الله

إنما عليك البلاغ المبين

عجباً لمن يؤمنُ باللهِ ورسوله ويؤمنُ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله وكتابه الذي يهدي إلى الرشد ويهدي للتي هي أقوم، ويقرأ القرآن آناءَ الليل وأطرافَ النهار ثمَّ لا يتدبر معانيه ولا يهتدي إلى لغةِ الحوار الهادئ السمح اللين. الاسلوب والمنهج الذي اتبعه أنبياءُ الله ورسلهِ عليهم السلام في الدعوة إلى الله سبحانهُ وتعالى وفي أفضل وأشرف مهمة يكرم بها مخلوق على وجه البسيطة.

كلُّ الأنبياء والرسل ممَّن اصطفاهم الله ليكونوا رسلاً مبشرينَ ومنذرين كانوا بشراً يأكلونَ كما تأكل الناس ويمشونَ في الأسواق وقد شرَّفهم الله بحملِ الرسالة إلى أقوامهم ليدعوهم إلى عبادةِ الله وحدُه وترك ما هم عليهِ من شركٍ وضلالة وفساد ويبشرونهم بالجنة ونعيمها لوِ استقاموا واتبعوا الرسل وما أوتوا به، وينذرونهم من عذابِ يومٍ أليم فيكون جزائهم النار خالدينَ فيها إذا بقوا على شركهم وضلالهم.

والذينَ اصطفاهم الله لهذا الأمر العظيم كانوا معروفين عندَ أقوامهم قبلَ تكليفهم بحملِ الرسالة بالاستقامة والصلاح والخلق الحسن.

لم يكونوا ملوكاً وسلاطين فتتبعهم أقوامهم تقرُّباً وتزلفاً.

ولم يكونوا جبَّارين في الأرض فيكون الإتِّباع خشيةً من سطوتهم.

ولم يكونوا ذوي مالٍ وفير وجاهٍ عريض فيكون الطمع غايةُ من يقبل دعوتهم.

الميزة التي كانت لهم، أنَّهم شرفاء في أقوامهم، أصلاء وأنقياء في نسبهم، كرماء في خلقهم وسلوكهم وسيرهم فكانوا أهلاً لحمل تلك الأمانة واللهُ يعلم حيثُ يجعل رسالته. فكانَ قبول الناس لدعوتهم تأتي عن إيمانٍ صادق بالله عزَّ وجل وطمعاً في رضوانهِ وجنتهِ وخوفا من شديد عقابه.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: ٤٨]

ولذلكَ كانَ تبليغهم لرسالةِ ربهم تأتي بالمحاورة والحجة والمنطق وليسَ بالاستمالة المادية أو العنف أو الإكراه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ... ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢].

وكانَ البلاغُ يأتيهم من رسلهم في ثوبِ النصيحة أبداً، وهم لم يخبروا منهم إلا النصحَ والإرشاد من قبلِ أن يأتوهم رسلاً من ربِّ العالمين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

ذلكَ لأنَّ العقيدة لا تبنى إلا عن قناعة تامة ويقين راسخ فمَن جاءهُ التبليغ الإلهي جلياً وواضحاً لا لبسَ فيهِ ولا ريبة فأبى واستكبر واستمسكَ بما وجدَ عليهِ آباءهُ من شركٍ وضلالة فعليهِ وزره وما على الرسول إلا البلاغ والنصح.

وكانَ التوجيه الرباني لأنبياءه ورسله أن يتمَّ تبليغ رسالاته باللين حتى لطواغيت الأرض، وها هوالتوجيه الرباني لنبيهِ موسى (عليه السلام) وهوَ يأمره بدعوةِ فرعون إلى الإسلام -فرعون الذي علا في الأرض وقالَ للناس أنا ربُّكم فاعبدون، فرعون الذي طغى واستخفَّ قومهُ فأطاعوه، فرعون هذا الطاغوت الذي لا يعرف إلا القوة والجبروت- أن يقول لهُ قولاً ليناً لعلهُ يتذكر ما يفعله بقومهِ من ظلم ويتذكر ما هوَ عليهِ من ضلالة ويخشى عقاب اللهِ فيؤمن.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٢_ ٤٤].

وما استكبرَ رسولٌ على قومهِ ولا أصابَ الغرور منهم من أحدٍ لهذا التكليف الإلهي الكريم بحمل الرسالة (حاشاهم أن يفعلوا ذلك).

ما زادهم هذا التشريف إلا تواضعاً للناس وتذللاً وطاعةً لله تعالى، فإنما هم حملةُ رسالةٍ عظيمة وهم مؤتمنون على تبليغها لأقوامهم بكلِّ صدقٍ ووفاء وأن يبذلوا في سبيلِ ذلك كلَّ جهدهم وجل حياتهم. ولأنهم أحرص الناس على مصلحةِ أقوامهم كانوا يتمنونَ أن تلينَ قلوبهم ويقبلوا دعوتهم ويختاروا منهجَ الله وينبذوا ما كانَ عليهِ آبائهم من قبل.

فما أعظمَ صبرَ أنبياءِ الله ورسله، ها هم يرونَ أقوامهم ضالين ومضلِّين. لقد اصطفاهم الحق سبحانه ليكونوا مبلغين لرسالاتِهِ ومبشرينَ ومنذرين لأقوامهم بدعوتهم إلى نبذِ الضلالة التي هم عليها واتباع طريقَ الهدي الإلهي وترك سبيلَ الغي الذي هم فيه سامدون، فيأبى اتِّباعُ الحق إلا نفرٌ قليل وتصلُ بهمُ الجرأة إلى إيذاءِ أنبيائهم ورسلهم وقذفهم بالجهل والجنون والسحر بل وقتلهم حتى.

قصة نوح عليهِ السلام معَ قومهِ هيَ قمة الصبر والتحمُّل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

وما آمنَ معهُ إلا قليل.

ولأنَّ الملأ الذينَ كفروا من قومهِ لا يفقهونَ إلا المقاييسَ الدنيوية من الربحِ والخسارة والجاه والسلطة فكانَ جوابهم لنوح عليهِ السلام: ولماذا نتبعك وأنتَ بشرٌ مثلنا ؟؟ والذينَ اتبعوكَ إن هم إلا أراذلنا وفقراءنا؟؟ هل نتبعكَ فتجلسنا إلى هؤلاء القوم في مجلسٍ واحد منكباً بمنكب ونحنُ نطردهم من مجالسنا؟؟ أينَ إذن مقامنا وسلطاننا؟؟ وما هوَ فضلكَ أنتَ علينا لتأتينا رسولاً من دونِ الناسِ أجمعين؟؟ هل أنتَ مَلَك؟؟ أم عندكَ خزائن وكنوز لا نعلمها؟؟

رغمَ هذا الجحود والإنكار والإنصراف عنِ اتِّباع دعوة الحق ورغمَ هذا التكبُّر والتعالي فإنَّ نوحاً عليهِ السلام استمرَّ في دعوتهم مئات السنين لا يكل ولا يمل فهوَ يعرف التشريف الرباني لهذا التكليف ويعرف آداب الدعوة والتبليغ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥، ٩].

أي صبر وقوة تحمل هوَ الذي صبَّهُ الله في قلبِ نبيهِ نوح (عليه السلام) فلا تهن عزيمته في الدعوة مئات السنين ولا يؤمن معهُ إلا نفر قليل ويستمر في دعوة نفس الوجوه الكالحة التي كَفَرت بأنعمِ الله والنفوس المريضة التي عتت عن أمرِ الله والقلوب الصدئة المشربة بالفسقِ والفجور والغواية.

كانَ الله في عونكَ يا نبيَّ الله وأنتَ تصر على دعوةِ قومك مئات السنين وهم يستكبرونَ عليك ويسخرونَ منك.

ادع الى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

ها هوَ التوجيه الرباني لكلٍّ من يقوم بأعباءِ الدعوة إلى الله رسولاً كانَ أو فقيهاً أو عالماً أو مسلماً عادياًوكل حسب المهمة والتكليف المناط بِهِ أو ينوءُ هو بحمله تطوعا- أن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة والنصيحة وأن يجادلهم بالبينة والقرينة والدليل فقط، فالجدلُ العقيم الذي لا يرجى منهُ خيراً لا يليق بمن يدعوالناس إلى منهجِ الله.

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

أسوةٌ حسنة في التخلقِ بخلقٍ كريم وأسوة حسنة في السير على منهجهِ القويم والاقتداءِ بهِ في اسلوب دعوتهِ ولين طباعه ونوع خطابهِ للمشركينَ من قومه.

ها هوَ الله سبحانهُ وتعالى يمتدح هذا الاسلوب المحمدي في الدعوة.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ...﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إنها الرحمة الإلهية التي غمرت قلبَ الرسول الكريم مُحمَّد (ﷺ) فاستمدَّ لينهُ وعطفهُ وتواضعهُ من فيضِ صفاتِ الباري عزَّ وجل.

هذا اللين وهذا العطف وهذهِ الشفقة التي اتصفَ بها رسول الله تتجلى في أبهى صورها في حادثةِ الطائف عندما التجأ إليها الرسول الكريم.

مشهد في غايةِ العنف والشدة وسوء الأخلاق ضدَّ رجلٍ كريم عزيز الصفات نقي الشمائل ورسول من ربِّ العالمين، جاءَ يدعوهم إلى الهدى فسلَّطوا عليهِ صبيانهم وسفهائهم وجمعوهم في صفين ومعَ صيحاتِ السباب واللعان والسخرية جاءته الضربات من هذا الصف وذاك وأتتهُ الحجارة من هنا والقذارة من هناك، رسول الله وأشرف خلقِ الله يكون حالهُ هكذا؟؟ حتى أنهكهُ التعب وأخذ منهُ الألم كلَّ مأخذ وأُدميَ وجههُ الشريف وقدماهُ الكريمتان وقامَ إلى جدارٍ يشكو حاله ويبث حزنهُ لله خالقه بحديث مفعم بالإيمان الصادق بالله والتذلل والخضوع لهُ والإنقياد الكامل لمشيئته.

والله جل جلاله وهوَ ينظر إلى حالِ حبيبهِ المصطفى من فوقِ سبعِ سماوات ويرى ما ألمَّ به على يدِ قومٍ مشركين يرسلُ اليه الروحَ الأمين فيقول له لوشئتَ لأطبقتَ عليهم الجبلين بأمرِ الله فلا تقوم لهم قائمة.

ولكنه (ﷺ) وهوَ النبي المبعوث رحمةً للعالمين لا يريدُ انتقاماً فيتمنى على الله إن كانَ هؤلاء القوم لن يؤمنوا فقد يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله ويوحده.

قلبهُ الشريف خالٍ من الحقد والضغينة وإنما هوَ هادٍ يريدُ صلاحَ قومهِ والله كفيلٌ بهم بعدَ ذلك.

استدلالات من المنهج الرسالي في الدعوة:

- لاتزرع العقيدة في القلب بالإكراه والترهيب إنما بالحجة والبينة والخطابِ اللين ويهدي اللهُ بعدَ ذلكَ من يشاء.
- الصبر والتحمُّل وتقبُّل الأذى والإعراض من الآخرين هيَ أدوات النهوض بأعباءِ الدعوة.
- الدعوة إلى الله لا تورثُ التكبُّر والتعالي بل تورث التواضع وخفض الجناح فيأتي الخطاب هادئاً في ثوبِ النصيحة ليمسَّ شغاف القلوب.
- اسلوب الزجر والتعنيف اسلوب عقيم لا يتلائمُ معَ روحِ المنهج الرسالي كما يقولُ الرسول الكريم في حديثٍ صحيح: «إنَّ الله رفيقٌ يحبُ الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» رواه أبو داود.

- لا تشهير بمن أعرضَ ولا تكفير لمن أبى أن يسمع فلا ينصبنَّ أحد نفسهُ وكيلاً عن الله يكفِّر هذا ويدخل النارَ ذاك وإنما عليه البلاغ ليسَ إلا .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ...﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

الكلمة الطيبة كغرسٍ طيب ونسمة باردة تهيئ النفس والقلب لتقبُّل النصيحة، والكلمة النابية والخطاب القاسي كلفحة دخان أسود تُنفِّر الناس وتوتر النفس وتقسي القلب فلا يكون المرء مؤهلاً لتلقي الكلام مهما كانَ نوع الخطاب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤_ ٢٦].

٢ - الله ربُّ البرِّ والبَحْر

المركبُ يَشقُّ عُبابَ البحرِ في هدوءٍ وسكينةٍ وسطَ خِلجانٍ ومناظرَ خلّابة. لا يَشقُّ سُكونه إلا أصواتُ طيورِ النورس وهي تحومُ محلقةً حولَ المركبِ بين الفينةِ والأخرَى أوصوتَ القبطان عبرَ مكبراتِ الصوتِ وهو يُزوِّد الركابَ ببعضِ المعلومات حول سرعة المركب أو موقعهُ أو حالة الطقس المتوقعة أو أقرب مَرفأ يروم الرُّسو فيه.

على متنِ هذا المركب فئاتٌ ثلاث.

الفئة الأولى:

فئةٌ مؤمنة قد أَدخلَ اللهُ السكينةَ والطمأنينةَ في نفوسِها فَعرفَتِ اللهَ حقَّ قدْرِه واستَسْلَمت لقُدرته وقَضاءه وعدله وأَيقَنَتْ أنَّ ما شاء الله كان وما لم يَشأ لم يكن. فهي تتفكرُ في خَلق السماوات والأرض وكيف أنَّ الله سخَّر لهم هذا الفلك تجري بهم في عرضِ البحر، والطيور المُحَلِّقةُ من فوقهم صافّاتٍ ما يُمْسِكْهُنَّ من شيء الا الله. وهذه السحب التي تُغادر باتجاه البَر يَسوقها الله الى أرضٍ مَيتةٍ فَتربو وتَنتفض لتَنْبُتَ بإذنِ الله وتُحيي تلك الأرضَ بعد المَوات.

ومع تمتُّعها واندِماجها بالأجواء المُحيطة بها تَسْترسل في التفكير:

هذا البَحر الذي نَشقُّ عُبابه منذ أيام يُخَيَّلُ إلينا من فَرْطِ عُمقه واتساعه أَنهُ بلا قَرارٍ وبلا شُطآن تَحدُه، هذا البحر ربما يحوي ملايين ملايين الأطنان من الماء، تُرى كم عدد القَطراتِ التي يَحْويها الطَنُ الواحد؟؟؟

لقد صور لنا الخالق كيف أن هذا البحرَ لوكان مِداداً لكلماتِ اللهِ وكان من بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر تمدّه لنفذَ البحرُ قبلَ أن تنفذَ كلماتُ الله.

تُرى كم كلمة يمكن أن تُكْتَبَ بقطرةِ مدادٍ واحدة؟؟ وكم تحتوي هذه البحار من مليارات مليارات القطرات؟؟ وكم يكون عدد الكلمات التي ستكتب بهذا الكم الهائل من المداد؟؟

إنَّ الأمر اذن يَخْرُجُ من لغةِ الأرقام التي نَتداولها وَتَدْخل في عِلْم الله اللّامتناهي ورغم ذلك فانها لا تُغطّي كلمات الله سبحانه وتعالى، وإذْ يَضْرِبُ الله لنا هذا المثل لِنتلَمّس بالدليل المَحْسوس استحالة الإحاطة بعلمِ الله.

الفئة الثانية:

فئة تُؤمن باللهِ ولكِنَّها فِئة لاهية تعمل لدنياها أكثرُ مما تعمل لآخرتها، ترجع الى الله عندما يضيق بها الحال وتُحاصرها المشاكل ولكن بعد انْفِراج الأمر سُرعان ما تعود لِغيِّها وتَنسى فضل الله عليها.

وهي على متن هذا المركب الآن تنظر الى الوضع الذي هي فيه، في عَرْض البحر اللُّجي المُمْتَد، ان هي الا مِتعة عليها اقتناص كل لحظاتها.

الفئة الثالثة:

لا تُؤمن بالله ولا ترى في حياتها هدفا أُخرويا تسعى الى تحقيقه.

وترى أن الانسان وُجِدَ كي يُنظِّم نفسه ويعمل ويسعى بجد ونشاط ليحسن أحواله وأحوال من حوله، وليس من العقل والمنطق أن يشغل تفكيره بعالم آخر لا يعرف كُنْهَهُ أولا يُقرُ بوجوده حتّى. فهو يُؤمِن ويعمل ضمن المَحسوس فقط وَيتركُ كل الأمور الغيبية خارج نِطاق تفكيره.

الليل قد أرخى سُدوله والبحر أظْلم دامِس لا يُرى منه شيء الا وَهَجَ أنوار المركب وهي تتلألأ على صفحة الماء. ولا يزال المركب في عرض البحر لا شيء يعكر صفوه ولا شيء ينم عن وجود خلل في الطقس قد يُنذِرُ بمشكلة.

وعلى حين غرة يَضْطرب البحر ويهيج ويعلو موجُه. في البدء جاءَ صوت القُبطان مُطَمْئِناً: (لا داعي للقلق فأجهزتنا لا تشير الى اضطراب كبير في حركة الرياح... قد تكون دوامة وقتية ليس إلا ولكن البسوا لباس الطَوْف احتياطاً).

ولكن، مع اشتداد صَخَبِ البَحر وتلاطُم الأمواج يدُبُّ القلق والخَوف في قلوب الجميع ويضْطَرِبُ طاقم المركب ويتشنَّج صوت القبطان ويعلو وهو يصدَر أوامره الى مساعديه.

الفئة الأولى بعد أن وَضَعت نفسها تَحتَ أُمرة طاقم المركب وأبدت

استعدادها لِعَمل ما يمكن عمله للمساهمة في انقاذ الموقف، سَلَّمت أمرها الى الله سبحانه وتعالى ورفعت أكفها الى السماء تَدعوه أن يُنجي المركب ومن فيه من هذه المِحنة.

الفئة الثانية اسْتَسْلَمَتْ للخَوف والقلق وصارت تركض على غير هدى تستفسر من طاقم المركب عن حقيقة ما يجري تارة، وتلْجأ الى الفئة الأولى طالبة منها الإكثار من الدعاء تارة أخرى.

الفئة الثالثة صارت تَلْعَنُ حظَّها وتلعن طاقم المَرْكب وتطلب منهم عمل شيء لإنقاذهم.

يخرج الموقف عن السيطرة.

وتأخذ الفئة الثانية هي الأخرى بالدعاء من الله أن يُنْجيهم من هذا الكَرْب العظيم.

تتعطل كل أجهزة الرادار والاتصال والانارة ويغدو المركب كريشة في مهب الريح. ويأتي صوت القبطان كالنحيب: (لم نتمكن من الاتصال بفرق الانقاذ ولكن أرسلنا اشارة استِغاثة.. ولا نَعلم متى تَكْتِشف تلك الفرق ما يحدث لنا ومتى تصل الينا.. تماسكوا.. أدعوا الله أن ينقذنا.. لم يبق لنا الا الله نلجأ اليه).

وتتعالى أصوات الجميع بالدعاء.

حتى الفِئةُ الثّالثة وهي تنتظر المَوت مع الجميع في أيةِ لحظة صارت تَتضرَّع الى الله، نعم رَجَعَتْ الى فِطرتها التي فطَرها الله عليها فَعلِمَتْ أنْ لا مُنجي اليوم من الله الا هو، تعطّلت كل القوانين الأرضية المادية ولا منجي الا الله خالق هذا الكون وموجد القوانين التي تُحرِّكُ كل شيء في الوجود، في الأرض والسماء.

وبينما الجَميع منهمك في النحيب والدعاء اندفع المركب بقوة باتجاه خليج ضيق لا تتصارع فيه أمواج البحر وكأنّما ثمة تيار هوائي قوي قَذَفَ به الى داخل الخليج ليصل به الى الشاطئ.

نزل الجميع الى الشاطئ يتلَمَّسون طريقهم في العُتْمَة الحالِكة، غير مصدقين

أنهم قد نجوا من هذا الاعصار المدمر. نزلوا وقد خارَت قِواهم وتحَطَّمتْ نفوسُهم بعد أن أخَذَ منها اليأس والقنوط والتعب كل مَأخَذْ.

الفئة الأولى، خَرَّتْ ساجدة تَشْكر الله على هذه النِّعمة العظيمة، نِعمة النَّجاة من الموت والهَلاك المُحقَّقْ في عَرْض البحر ورَفَعَتْ أكُفَاً ضارعة بالدُّعاء والثَّناء. هذه الفئة التي اطْمأنَّت نفوسها بالايمان ثَبَّتها الله في ساعة المحنة فَسَلَّمَتْ أمْرها لله وَصَبَرَت، وَشَكَرَتِ الله سبحانه وتعالى بعد هذا الامتحان.

الفئة الثانية، صارت تَتَلَفَّت يُمنة ويُسرة فَرِحة مُستبشرة بالنَّجاة وحَمدَت اللهَ على ذلك، ولكن ولَمّا يَستَقِر الايمان في قلبها ويطفو على كُلِّ جوارِحِها فإنَّها سُرعان ما تَنسى ما حَدَث ويلفّها ضَجيج اللَّهوِ وصَخَبُ الحياة من جديد.

الفئة الثالثة، والتي ما رَجَعَتْ الى فِطْرتِها إلّا بعد أن تَحطَّمَ أمام عينيها كل الإمكاناتِ الماديّة المتوفرة للنّجاة في لَحظات المِحنة الصَّعبة ووجَدتْ نفسها قاب قوسين من الموت أو أدنى. فإنّها وبمجرّد وصولها سالمة الى البر كَفَرَتْ بفضل الله وأرْجَعَتْ الأمرَ الى الصُدفة والحظ (نحن محظوظون وانها لصدفة رائعة أن يكون المركب في بابِ هذا الخليج ليندفعَ الى داخل المضيق بفعلِ تيارات موج البحر والرياح).

تَنكّرت هذه الفئة حتى الى لَحظاتِ الصدق التي عاشتها مع الله في خِضَم المحنة.

نسي هؤلاء أن الله رَبّ البَرِّ والبَحْر.. فَمَنْ يُنجِيهم اذا أراد ربُّهم بهم سوءاً مُقابل جُحودهم وانكارِهم وكُفرهم؟؟ أليسَ الله بقادِرٍ أنْ يخسف بهم جانِبَ البرِّ بمجرَّد أن تَلمْسَهُ أقدامهم؟؟ أليسَ بمقدوره أن يُزلزِلَ الأرضَ من تحتِ أقدامهم ويدكَّهُم دكاً؟؟ أو يُرسلَ عليهم ريحاً عاتيةً تصرَعُهُمْ وتَتْرُكُهُمْ كَأعجازِ نَخلٍ خاويَة.

أليسَ الله بقادرٍ أنْ يقذفَ في قلوبِهِمُ الرُّعبَ فيعودُوا بمركَبِهم إلى عَرضِ البَحْرِ مذعورينَ فَيُرْسِلَ عليهم هناكَ ريحاً قاصفاً لا تُبقِي وَلا تَذَر واعصاراً شديداً مُهلِكاً فَتغرِقَهم.

بَلى، فاللّه رب البَرّ وَالبَحْر.

والرِّيحُ والبرقُ والرعدُ إنْ هيَ إلا جُندٌ مِن جنوده.

لقدْ صَوَّرَ اللهُ في كتابهِ العَزيز وَبخطابٍ قُرْآني بَليغ هذهِ المشَاهدَ ولكنَّنا نَقرَأ القرآنَ لِمُجَرَّدِ القِرَاءة ولا نقرَأهُ لِكي نعتبرَ مِن آياتِهِ وَأمثالهِ وقِصَصِهِ ونَزدَادُ يقيناً وإيماناً ويزيد توكلنا على الله وَحْدَه.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦_ ٦٩].

اللهُمَّ نَسألكَ إيماناً بقضَاءِكَ وَقَدَرِكَ وَصَبْرَاً على بَلاءِكَ وَنقمكَ وَشكرَاً على نِعَمكَ وَفَضْلِكَ. وَصَلى اللهُ عَلى سَيدِنا وَحَبيبنَا مُحَمَّدٍ وَعلى آلهِ وَصَحْبهِ وَسَلَّم.

٣ - إنَّ الدينَ المعاملة......

النبي والرسولُ الخاتم (ﷺ) الذي لا ينطقُ إلا بالحق عندما قالَ هذهِ الكلمات الشديدة الإيجاز والعظيمة المعاني والبيان فإنما أرادَ لأمتهِ أن تتخذهُ شعاراً يطبعهُ كلُّ فردٍ من أمتهِ على صفحةِ فؤادهِ ويضعه نصبَ عينيهِ ليكون دليلهُ ومرشده في كلِّ معاملاتهِ فلا يكونُ قولهُ أو فعله إلا فيما يرضي اللهَ سبحانه وتعالى.

والفهمُ الشائع لهذا الحديث النبوي الشريف بحصرهِ في العلاقاتِ العامة فقط هو فهمٌ قاصر لا يغطي المقصد الذي أراده الرسولُ بهذا الحديث المبارك. فما دامَ الرسول (ﷺ) قد عبَّر عن كمالِ الدين بصلاحِ المعاملة فإنَّ المعنى يمتد ويتوسع ليغطي كلَّ مناحي الحياة الشخصية منها والاجتماعية والعبادية، يبدأ من جدارِ النفس التي بين جنبيك ليسمو ويرتفع فيتصل بعرشِ الرحمن سبحانه وتعالى.

الإنسان وهوَ الكائن المخاطب في القرآن الكريم والذي كرمهُ الله بأن سخرَ له ما في السماوات والأرض وأعطاه نعمة العقلِ والتدبّر والتفكير فإنه ليس بالكائن المنغلق على نفسه الذي لا يتصرف إلا بوحي الغريزة التي ليس لهُ سلطان عليها، بل هو كائن اجتماعي خُلِقَ ليعمر الأرض ويرتقي بنفسه وبالمجتمع سلوكاً ومعاملة وعبادة بالتعاونِ والتآزرِ والتعاضدِ والتعارفِ مع أخيه الإنسان.

وعلاقة الإنسان الفرد بنفسهِ وبوالديهِ وأسرته ومجتمعه وبالمجتمعات الأخرى من حوله وعلاقته بخالقهِ تفرض عليه جملة من السلوكيات والصفات التي يجب أن يتخلق بها الفرد المسلم لتكون تعاملاته كلها في صميم الدين الحنيف الذي ارتضاه الله للبشريةِ جمعاء.

والإنسان وقد أعطاهُ الله قيادةَ نفسه، عليه أن يكون قادراً على قيادةِ هذه النفس لا أن يكون منقاداً لهواها فالنفسُ أمّارةٌ بالسوءِ وتستسهلُ وتمشي إلى المعصيةِ بخطىً حثيثة. فالجاهلُ يقودها أو ينقاد معها إلى شفا جرفٍ فتنهارُ بهِ في نارِ جهنم، والفطنُ الكيسُ يقودها إلى رحمةِ اللهِ ورضوانه.

كيف تتعامل مع نفسك؟

هل تزدري ذاتك وتتبعُ هوى نفسك لتقودكَ إلى مزالقِ الشيطانِ فتعيش في مستنقعِ الرذيلة والابتذال والهوان؟؟

أو تلبسها لباسَ الغرورِ والكبرياءِ فتمشي في الأرض مرحاً وتتكبرُ على خلقِ الله فتكون منبوذاً ممن حولك؟؟

أم تكون صادقاً مع نفسك ومعَ الله فتتبعُ ما ألهمها الله من التقوى وتتجنب ما ألهمها من فجورٍ ويكونُ التواضعُ رداءك والقناعة سلوكك والتسامحُ شيمتك؟؟

كيف تعامل والديك؟

هل أنت بارٌ بهما وتخفضُ لهما جناحَ الذلِّ من الرحمة؟؟

أم أنك ولدٌ عاق يهجرُ والديه ويسيئُ إليهما إذا بلغَ الكبرَ أحدهما أو كلاهما؟؟

هل تزنُ كل تعاملاتك معهما بميزانِ المنهج الإلهي فتسعى لتطبيقِ ما أمركَ اللهُ ورسولهُ بحقِّهما وتمتنعُ عمّا نهاكَ عنهُ الله ورسوله؟؟

أم أنك مفتونٌ بالدنيا تركضُ فيها ركضَ الوحوش ولا وقتَ لديكَ لتلتفتَ إلى ألصقِ الناسِ بك أمك وأبيك، وتنظرُ إليهما بمنظارِ الربح والخسارة وما دامت ليسَ ثمة فائدة ترجى من ملازمتهما فتقول لهما بعداً بعداً؟؟

كيف تعامل زوجتك واولادك؟

هل أنت صبورٌ حليم معهم وعطوفٌ رحيمٌ بهم؟؟ تأويهم تحتَ جناحِ محبتكَ وتدثرهم بدثارِ عطفك.

أمْ أنكَ غضوبٌ لا تكظم غيظَك، ظالمٌ لا يسلمُ من سطوةِ يدكَ وتجريحِ لسانكَ أحدٌ منهم؟؟ فتراهم يفرون ويتفرقون إذا أقبلت ويجتمعون متى أدبرت.

هل أنتَ ممن يعطي كلَّ أولادهِ وبلا استثناءِ حقَّهم في التربيةِ والرعايةِ والمحبة؟؟

أم أنت مِمَّن يفضلُ بعضاً على بعضٍ أويكون للذكورِ من أولادكَ حظوة عندكَ أكبر من البنات؟؟

هل أنتَ ممن يؤثرُ أهلَ بيتهِ على نفسهِ في المأكلِ والمشربِ والملبس؟؟

أم أنك مجبولٌ على الأنانيةِ والأثرةِ ما يكون لك لايكونُ لهم وكلهم يأتونَ من بعدك؟؟

هل أنتَ الصديق والقدوة لهم وجسورُ المودةِ والتراحم ممدودة بينكَ وبينهم تتدارسونَ أمورَ حياتِكم بهدوءٍ وروية وتعقل وتكونَ أنت بعد ذلك الموجه والمعلم؟؟

أم لكَ خلقٌ منفرة لا يجتمعُ حولكَ أولادك وزوجتك وإن اجتمعوا فإنما يجتمعونَ على الصخبِ والضجيج؟؟

أوتقضي جلَّ وقتكَ خارجَ البيت فلا يجدُ أولادكَ متسعاً من الوقتِ للجلوسِ معك فيصبحَ مركزكَ ودوركَ في البيتِ هامشياً لا تأثيرَ له؟؟

كيف تعامل جيرانك؟

هل يمتدُ خيركَ وعطاءكَ لجيرانك وهل تعُود مريضَهم وتمشي في جنازاتِهم وتحضرَ أفراحهم؟؟

أم أنتَ ممن يغلقُ بابهُ دونَهم ولا يصلهُم إلا شرُّكَ وطغيانك؟؟

هل أنتَ ممن يتعاونُ مع جيرانهِ من أجلِ مصلحةِ الحي الذي يجمعُكم ثم تكونُ على رأسِ الثلة التي تسعى وتحقق هذه المصلحة؟؟

أم أنكَ انعزالي لا تأبهُ أو تكترث بالعملِ الجماعي حتى إذا كنتَ ممن يشملهم خير ومردود هذا العمل؟؟

كيف تتعامل مع ذوي القربى من عشيرتك؟؟

هل أنتَ ممن يصلُ الرحم ويسامحُ المخطئ ويتجاوزُ عن المسيئ بحقكَ منهم؟؟ ولا يشغلكَ عن وصلِهم إلا طارئ لا يمكنكَ دفعه.

أم أنتَ قاطعُ رحمٍ تلعنُ من أغاظكَ يوماً ولا تظهرُ وداً طوالَ حياتك لمن

أساءَ إليكَ منهم؟؟

هل يمتدُ معروفكَ وإحسانكَ إليهم حسبَ درجةِ القربى وتدرُّجِ الحاجة؟؟

أم تـنـتـقي البعضَ منهم انتقاءاً فتتركَ القريب لتصلَ البعيد وتتركَ المعوز ذوالحاجة وتذهبُ إلى المقتدر؟؟

هل بابك وقلبك مفتوحٌ لهم فتستقبلهم بصدرٍ رحب ووجهٍ صبوح وحديثٍ دافئ؟؟

أم أنتَ ممن لايفتحُ بابهُ إلا لصاحبِ جاهٍ ترجى منه منفعة وإذا فتحتَ بابكَ لذوي الحاجةِ من الأقربينَ إليك فلا يسمعُ منكَ الا غلظةً في الحديثِ واكفهراراً في الوجهِ وتكلفاً عندَ اللقاء؟؟

كيف تتعامل مع إخوانك؟

هل أن اختياركَ لأصدقاءكَ ابتداءاً يتمُ بموجبِ المعيارِ الأخلاقي الإسلامي ويكونَ تحاببكما في اللهِ وتحرص أن تكون مجالسكما مجالسَ ذكرٍ ومحبة وخلقٍ حَسَن؟؟

أم أنتْ ممن لايضعُ المعاييرَ البتة لصفاتِ وأخلاقِ خلانهِ فتجالسَ الفاسدَ والفاجرَ طالما أنك تقضي وقتَك في اللهوِ واللعب؟؟

هل تنصحُ أخاكَ وصديقكَ إذا وجدتَ مِنهُ إدباراً عن الطاعة أو إقبالا على المعصية؟؟

أم أنتَ ممن يقولُ لكلٍ منا شأنٌ يغنيه وسلوكهُ أمرٌ يخصهُ ولا يعنيني في شيء؟؟

هل تؤازرهُ عندَ الشدة وتواسيهِ عندَ المصيبة وتعودُه عندَ المرض؟؟

أم أنتَ ممّن لا يقفُ كثيراً عندَ هذهِ الأمور فيكون اجتماعكما في مجالسِ اللهوِ والضحكِ فقط وينقطعَ أحدكما عن الآخر خارجَ هذهِ المجالس؟؟

كيف تتعامل مع رب عملك؟

هل أنتَ ممن يخلصِ في عملهِ ويتقنهُ امتثالاً لقولِ رسولِ الله (ﷺ): (رَحِمَ اللهُ امرؤاً عَملَ عَملاً فأتقنَه) ولا يضيركَ أن يكونَ رب عملكَ مسلماً أويهودياً أو مجوسياً طالما أن العملَ الذي تعملهُ هوعملٌ حلال وليسَ فيهِ ضررٌ أو مفسدةٌ لأحدٍ من خلقِ الله؟؟

أم أنتَ ممن لا يشكلُ الإخلاصُ والإتقانُ هاجساً عندَهُ فتسرقُ وقتَ العملِ كلمَا وجدتَ إلى ذلكَ سبيلاً أو أنتَ تستسهلُ ذلكَ إذا لم يكنْ رب العملِ مسلماً وكأنَّ الإخلاصَ والإتقانَ يكونُ لربِ العملِ وليسَ للعملِ بحدٍّ ذاتهِ والذي لا يحِلُّ أجرُهُ إلا بالإخلاصِ والإتقان؟؟

كيف تتعامل مع من يعمل لك؟

هل علاقتكَ بمن يعملُ لك علاقة مرنة يغلبُ عليها الخلقُ الإسلاميُ الرفيع فلا تحقرهُ ولا توبِّخهُ وتعطيهِ أجرَهُ كاملاً غيرَ منقوص.

أم أنتَ ممَّن ينظرُ نظرةَ السيدِ للعبيد لمَن يعملُ معك وتلجأ إلى إهانتهم والانتقاصَ منهم لكلِّ واردةٍ وشاردة وتعتبرُ دفعكَ الأجورَ لهم مِنةً منكَ ومكرَمة وليسَ حقاً مشروعاً استحقوهُ مقابلَ انتفاعِكَ بجهدِهم.

كيف تعامل الناس في تجارتك؟

هل أنتَ ممن يشملهم طلب الرسول الكريم الرحمة لهم في الحديث الشريف (رَحِمَ اللهُ امرؤاً سَمحاً إذا بَاعَ سَمحاً إذا اشترى...)؟؟

أم أنتَ صعبُ المراس لا تريدُ الخيرَ إلا لنفسكَ وتغبنَ الناس في بيعكَ وشراءك ثم تعتبرُ قبولَهم لهذا الأمر مكرَهين إخراجاً لكَ من دائرةِ إلحاقِ الأذى بهم؟؟

هل تحسنُ الكيلَ والميزان وتؤمنُ بأنَّ المساسَ بذلك مخالفة لأمرٍ إلهي مبين كان السببَ في إنزالِ غضبِ اللهِ على من سبقَ منَ الأقوام؟؟

أم تتهاونُ في ذلكَ ولا تضعهُ في سلمِ أولوياتك؟؟

هل أنتَ ممن يحرصُ على تحريرِ العقودِ عند البيعِ والشراءِ والإرتهان ثمَّ تحترمُ ما تعاقدت عليهِ باعتبارِ العقدِ شريعةَ المتعاقدين؟؟

أم أنتَ لا تأبهُ لذلكَ البتة وحتى إذا ارتبطتَ بعقدٍ ما فإنكَ تحاولُ الإخلالَ بهِ، أوتنـتقي من بنودهِ ما يدعمُ حقكَ وتتهربُ من البنودِ التي تلزمُكَ ببعضِ الحقوقِ للطرفِ الآخرِ؟؟

عندما تدخلُ في شراكةِ بيعٍ أوتجارةٍ أوصفقةٍ فهلْ تحرصُ على حقوقِ شريككَ تماماً كما تفعلُ مع حقوقِكَ أنتَ في حضورهِ وغيابهِ وبنفسِ القوةِ والحرص؟؟

أم أنكَ في اللحظةِ التي تنزعُ يدكَ من يدِ شريككَ عندَ إبرامِ الشراكةِ تفكرُ وتخططُ للاستفرادِ بالمنفعةِ المتحققة عن تلكَ الشراكة وتجدَ ألَفَ مبررٍ ومبررٍ لعملِ ذلك؟؟

وهل تنتهي كلُّ شراكاتكَ مع الآخرين على خيرٍ وبركةِ الله وصفاءِ القلبِ والنية فيتهافتُ الناسُ عليكَ طمعاً في قبولكِ أن تشاركهم في عملٍ أوتجارة.

أم أنَّ كلَّ شراكاتكَ تنتهي بالمشاكلِ والتباغضِ والتلاعنِ بينكَ وبينَ شركائكَ وتغمط الحقوق وتعكر النفوس فيتجنبكَ الناسُ بسببِ ذلك؟؟

كيف تتعامل مع طلبتك؟

هل تنظر إلى جميعِ طلبتكَ كما تنظرُ إلى أولادِك أو إخوانك وهم سواءٌ عندكَ في فرصِ التعليم والتربية ومستوى الاهتمام؟؟

أم أنكَ ممن ينظرُ إلى الموضوع من زاويةٍ مهنيةٍ مجردة، فلكَ منهجٌ تريدُ إكمالهُ خلالَ الفصلِ أو السنة ولكَ ساعاتٌ من نهارٍ تقضيها في التدريسِ ولا يضيرُك بعدَ ذلكَ تعلم مَن تعلم أو فشل مَن فشل؟؟

هل تحاولُ أن تكونَ القدوة الصالحة لهُم في الخلقِ والتعاملِ والالتزام؟؟

أم أنكَ المثلُ السيئ لكلِّ ذلك؟؟

هل أنَّ المعيارَ الوحيد عندك في تقييمهم هو المستوى العلمي والأخلاقي لهم؟؟

أم أنكَ ممن يخونُ ضميرَهُ المِهَني وتقعُ عرضَة للتأثيراتِ الاجتماعيةِ والعائلية أوغيرَ ذلكَ من الضغوطات؟؟

كيف تعاملُ أساتذتك؟

هل أنتَ ممن يجلُّ اساتذتهُ ويبسط دونَهم طقوسَ التبجيلِ والاحترام فتقترب من قول "من علمني حرفاً صرتُ لهُ عبدا" ؟؟

أم أنكَ غيرُ آبهٍ بعمليةِ التعلمِ أساساً وتسخرُ من التعليمِ والمعلمين على حدٍ سواء؟؟

هل أنتَ ممن يتصفُ بالخلقِ الراقي في تعاملهِ مع الأساتذة والطلبةِ وتنظرُ إلى المؤسسة التعليمية التي أنتَ فيها نظرة مقدسة باعتبارها الصرحَ الذي تتهيأ فيهِ لكسبِ مهاراتٍ علميةٍ أو أدبيةٍ أو مهنية تهيؤكَ لدورٍ جديدٍ في الحياة؟؟

أم أنتَ مثالٌ سيئ في الخلقِ والتعاملِ مع الأساتذةِ والطلابِ وتثيرُ الهرجَ والمرجَ في قاعاتِ الدرسِ وأروقة المؤسسة فيمتدُ تأثيركَ السيئ إلى كلِّ من حولك، ولا تدخلُ الإمتحان إلا والغشُ سبيلكَ لتجاوزه؟؟

كيف تعامل المتخاصمين في مجلس قضاءك؟

هل تتجردُ وأنتَ تقضي بينَ الناس من كلِّ عواطِفك وانتماءاتكَ العرقية والفكرية فيكونُ إحقاقُ الحقِ والعدل هو الأمرُ الوحيد الذي تسعى إليه، وتأخذ حِذرَكَ مما روي عنِ الرسول (ﷺ):

(قاضيانِ في النارِ وقاضٍ في الجنة)، وسواءٌ صحَّ هذا الحديث أو ضعُف فإنَّ في هذا القول التفاتة مباركة لبيانِ عظَم المسؤولية الملقاة على عاتقِ القضاة؟؟

أم أنكَ ترى القضاءَ وظيفة مهنية ككلِّ الوظائف يخطئُ المرءُ فيها ويصيب وما لأحدٍ حق في لومِك، وحدودُ نجاحِكَ وإخفاقك ينحصرانِ في الجانبِ المهني المجرد؟؟

عندما يكونُ أمامَكَ خصمان وقبلَ أن تقضيَ بينهما يأتيكَ مَنْ يطلبُ أن تنصرَ أحدَهُما على الآخرِ بغضِّ النظر عن الدلائل والقرائن التي يملِكها خصمُه ضدَه ويكونُ مَن يطلبُ منكَ هذا إما صاحب سلطان تخشى ظلمَه وسطوَته أو قريباً تخاطبُ ودهُ وتطلبَ قربَه أوصاحبَ جاهٍ ومالٍ قدْ تحتاجهُ عندَ الشدائدِ والملمات.

فهلْ تأتمرُ بأمرهِ ثم تتذرعُ بألفِ سببٍ وسببٍ لتبررَ فعلتكَ القبيحة هذه؟؟

أم أنكَ تضعُ مخافة اللهِ فوقَ كلِّ اعتبار فترفضَ أن تنصاعَ لأمرٍ أوتلينَ لصاحبِ قربى أو يخفقَ قلبُك لمالٍ وجاهٍ ولا ترضى إلا أن يأخذَ العدلُ مجراه ويأخذ كلَّ ذي حقٍ حقه، وإذا تعذرَ عليكَ ذلك تتركُ الأمر كلَّه ولا ترضى أن تبتاعَ مقعدكَ من النارِ بنفسك لأمرٍ دنيوي يمكنكَ دفعه؟؟

كيف تتعامل مع الطريق؟

هل أنتَ ممن يعطي الطريقَ حقَهُ فتفشي السلام وتسيرُ بخطواتٍ مرنة ووجهٍ بشوش تميطُ الأذى عن الطريق ولا تزاحم احداً لحدِّ المضايقة وتعرفُ أن الطريق ملكٌ عام وعليكَ المحافظة عليهِ من أجلِ نفسكَ وأولادك وجيرانك وكل شركائك فيه وهم أهلُ قريتك أو بلدتكَ او مدينتك فعليكَ أن تبقيه نظيفاً خالياً من التجاوزات والاستخدام الخاطئ؟؟

أم إنكَ عكسُ ذلك تمشي معَ من برفقتكَ في صخبٍ، تلاسنِ هذا وتزاحم ذاك. تقفُ في الموقف الخطأ وتمشي من المكان الخطأ. تنشرُ الأذى والقاذورات في الطريق وتتصرفُ فيه كأنكَ تسيرُ في ضيعتكَ التي لا ينازعك أو يشاركك ملكيتها أحد؟؟

هل أنتَ ممن يحترمُ الملكية العامة باعتبارها مُلكاً للأمة وليسَ للسلطانِ أو الدولة حتى إذا كانت لديكَ مظلمة عندَ الدولة انتهكتَ حرماتِ هذه الملكية وعبثتَ فيها سرقة أو تجاوزاً أو تخريباً؟؟

أم أنتَ تنظرُ إليها كما تنظرُ إلى الأمانة التي أوصانا الله سبحانه تعالى بالمحافظةِ عليها فتعملُ على حفظِها وصونها كما تفعلُ مع خالصِ ما تملك، بل يكونُ حرصُكَ على الملكيةِ العامة أقوى وأشد وأنتَ حتى حينَ تفرط في مالك فانك لا تقبل التفريط أو التجاوز على الملكية العامة لا من قبلكَ أنت ولا من قبلِ غيرك وتعتبرُ التفريط فيها منكراً عليك تغييره بيدكَ أو لسانك أو قلبك.

الغاية هي فهم المقصد

ويمكن أن نسوق العديد من الأمثلة الأخرى ولكن نعتقد أنّ ما ذكرناه آنفاً قد وضَّح ما أردناهُ ابتداءاً من الحديث النبوي الشريف بأنّ التعامل في الحياة هو

خلقٌ وسلوك وإذا أردتَ أن تكونَ مواطناً صالحاً ومسلماً تقياً عليكَ أن تطوِّعَ هذا السلوك لكي يندرج ويسير ضمنَ المنهج الرباني الذي جاءَ بهِ كلُّ الأنبياءِ والرسل.

وإذا تركتَ سلوككَ منفلتاً بدونِ ضوابطٍ ومكابح فلن تكون مواطناً صالحاً أو مسلماً تقياً.

ونحن هنا لا نريدُ الربط بينَ التقوى والمواطنة بحيث يُفهَم من كلامنا أنّ المواطن لا يكون صالحاً إلا إذا كانَ مسلماً تقياً بل نريد العكس من ذلك تماماً وهوأن يفهم من كلامنا أنّ المسلم لايكون مسلماً تقياً إلا إذا كان مواطناً صالحاً.

لذلك ربط الرسولُ الكريم بينَ كمالِ الدين وصلاحِ المعاملة.

والآن كيف تتعامل مع الله سبحانه وتعالى؟

هل تشكر الله سبحانهُ وتعالى في مواطنِ الشكر وتستغفرهُ عندَ مواضعِ الاستغفار، وهل تدركُ أنّ مواطنَ الشكر والاستغفار تحيط بكلِّ وقتك وحياتكَ فلا تمرُّ عليكَ لحظة لا تنعم فيها بنعمِ الله تستوجبُ منكَ الحمدَ والشكر وقد تغفلُ عن الشكر فيستحق عليك الاستغفار؟؟

أم أنكَ لاهٍ عن ذلك فلا ترى نعمة اللهِ إلا في مالٍ وجاهٍ وحتى إذا آتاك الله ذلك لم تنسبهُ إلى الله سبحانهُ وتعالى فتحمدهُ وتشكره وتثني عليه بل تنسبه إلى نفسكَ أنت فتطغى وتستكبر؟؟

هل أنتَ خاشعٌ في صلاتكَ ودعاءكَ وتستشعرُ عظمة خالقك وبارءك وأنتَ منقطعٌ إليهِ بالعبادة، وحيث ليس ثمة موقف يستوجب الخشوع والتذلل مثل الوقوف بينَ يدي الله؟؟

أم أنكَ منشغلٌ بأمور الدنيا وحتى وأنتَ في صلاتك ودعاءك لا يمكنك ضبط كلماتك وحركاتك وسكناتك، تركعُ وتسجد وتقومُ وأنتَ غيرُ مدركٍ لكلِّ ذلك. ولكن حينَ تقف أمام سلطانٍ أو صاحبَ جاهٍ تخفِضُ لهُ جناحَ الذلِّ منَ

الخضوع وتقفُ مشدوداً وكأنَّ على رأسِك الطير؟؟

هل أنتَ صادقُ النية في كلِّ توجهاتك إلى الله سبحانه وتعالى لا تبغي إلا أن يؤتيكَ الله الحسنى في الدنيا والآخرة؟؟

أم يغلبُ على حياتكَ هوى الدنيا والانجرافُ إليها وحتى إذا أوتيتَ سؤلكَ استخدمتهُ في غيرِ مرضاةِ الله؟؟

هل يكونُ توجهكَ إلى الله في مواطنِ الشدةِ والرخاء على حدٍ سواء وهذا هوالرقي في التعامل معَ مَن يدفعُ الضرّ ويكشفُ السوءَ عنك ويريدُ بكَ الرحمة والخير؟؟

أم أنتَ ممن لايعرفُ الله إلا عندَ المصيبة وحتى وقتها تعاتبُ الله لماذا اختارك أنتَ بالذات لهذهِ المصيبة فتكون كمن يملي على الله ما يفعلُ ولا يفعل وهذا منتهى الخذلان والضياع؟؟

وقفة أخيرة

إذن لدينا منهجين للتعامل في الحياة منهجٌ أخلاقي دعا إليه كلّ الأنبياء والرسل وثبتهُ الله في الرسالة الخاتمة بشكل لا يمكن أن يلتبس فيهِ الحق معَ الباطل، وجعلَ الرسول هذا المنهج الأخلاقي أساسَ الدين.

والمنهجُ الآخر هو منهجٌ لا منهجي يغلبُ عليهِ هوى النفس والفوضى في السلوكِ والتعامل.

وبينما يقودُ المنهج الأول إلى الرقي الإنساني في الدنيا وثواب الله في الآخرة يقودُ المنهج الثاني إلى ضعضعةِ شخصية الفرد وتفاقم الفوضى والارتباك في المجتمع ثم لا يكون في الآخرة إلا الخسران المبين.

ولكلٍ منَ المنهجين المذكورين مسارهُ فالأول يهدي إلى الفلاح ويفضي الى النجاة في الدنيا والآخرة أمّا الثاني فلا يهدي إلا إلى الشقاءِ في الدنيا والآخرة.

والمسلمُ الفطن وقد اختارَ المسارَ الأول طريقاً في الحياة يحاولُ أن يُبقِي قيادة نفسهِ ضمنَ هذا المسار لا يحيدُ عنه قيدَ أنملة.

ولكن ولأننا بشر ولسنا ملائكة فقد يأخذنا التيار وهوى النفس صوبَ المسار

الثاني حيناً بعد حين ولكنْ علينا أن نثبِّت أمامنا عشرات وسائل التنبيه والتحذير لكي نعرف أننا تجاوزنا مسارَ اليمين إلى مسارِ الشمال فنعدِّل مسارنا في التو واللحظة وندعو الله في كلِّ صلاة وفي كلِّ حين أن يثبتنا على المسار الصحيح.

فكثرة السير في المسار الخطأ يجلب الوهن والضعف إلى القلب حتى يكون تصحيح المسار أمراً شاقاً وصعب بعد ذلك ويستلزم الكثير من مجاهدة النفس وترويضها.

اللهم اهدِنا سبيل الرشاد واهدِنا إلى منهج حبيبكَ المصطفى (ﷺ) في معاملاتنا وسلوكنا وعباداتنا اللهم وخلقنا بخلقه الكَريم وشرفنا باتباع نهجهِ وسنته إنكَ كريمٌ حميد مجيبُ الدعوات، والصلاة والسلام على أشرفِ الخلقِ مُحَمّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم.

٤ - بين بر الأم وحقوق الزوجة....

في رحاب الأم

كانت تترقب أن تأتيها دلالة على أن البذرة التي في أحشائها قد أثمرتْ، ولما حصلَ ذلك وجاءت نتائجُ التحليل موجَبة شعرت أنها تطيرُ بلا جناح . . . إذنْ سيكون لها طفلٌ وستضمه إلى صدرها عندما يولد.

وهي لم تزلْ في طريقها إلى البيت هيأت نفسها فكرياً وجسدياً لتقوم بدور الأم.

ستترك هذا الكون الفسيح لتعيش مع العلقة التي ثبتها الله في رحمها.

سيكون من هذهِ اللحظة ملبسها ومأكلها ومشربها وجلوسها وتحركها مرتبطاً بهذا الشي الذي خلقهُ الله في أحشائها، لن تأكل ولن تشرب إلا ما ترى فيه فائدة لنموه على أحسنِ حال.

ستدعو من الله سبحانه وتعالى آناء الليل وأطرافَ النهار أن يتم خلقه خلقاً سوياً كاملاً وستدعو منذ الآن أن يجعلهُ اللهُ مولوداً صالحاً تقياً موفقاً للخيرات وأن يجنبه مواطنَ الشرِّ والفساد والضلال ذكراً كانَ أم أنثى.

هي ذا تتهيأ لتقوم بأعظمِ دورٍ للإنسان على وجه البسيطة "دور الأم".

لقد كرم الله ابن آدم وكرم المرأة بأن بثَّ في قلبها ووجدانها من العطفِ والحنانِ والصبرِ والرأفةِ والإيثار والمحبة ما يجعلها أهلاً لأخطرِ مهمةٍ في الحياة وهي تربيةُ الأجيال.

إنها الآن تثبت لاقطات من بناتِ خيالها في جدارِ الرحم لتراقب نموه لحظة بلحظة ويوماً بيوم. . . ستعرف مراحل نموه كما ذكرها الخالق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً

فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤].

وستراقب بشغفٍ ولهفةٍ أولَ حركةٍ للجنينِ في بطنها عندها ستشعرُ بسعادةٍ بالغة لا توصف... إذن قد بث اللهُ الحياة في جنينها وتشكر الله وتحمده على ذلك.

إن الوقتَ يمر والجنينُ يكبر في أحشائها وبإمكانها أن تتلمسَ مكانَ رأسِه أو قدمه بنشوةٍ غامرة. وكلما مرَّتِ الأيام ازدادت به شغفاً وحباً وهياماً وتتطلعُ إلى يومِ ولادتهِ وسماعِ صرختهِ الأولى.

إنها تهيّء أجواءَ بيتها وأسرتها كلها لاستقبال هذا الأمر الجلل وتلجأ في ذلك إلى كلٍّ من حولها لمساعدتها في تهيئة أمور المولود.

وجاءَها المخاضُ بآلامهِ وشدتهِ وقسوته ومرَّت عليها لحظات صعبة تمنت لو كانت وقتها نسياً منسياً. ولكنها الآن وهي تضم مولودها الذكر إلى صدرها وتتطلع بحبٍ في تقاسيم وجههِ وتلمسُ أصابعه الغضة الطرية وكفه الصغيرة لم تعد تتذكر أنها مرَّت بكلٍّ تلكَ الآلامِ المبرحة.

إنه الآن يحرِّك شفتيهِ بحثاً عن صدرِها وعندما تلقمه ثديها ويتلقفه بشغفٍ ونَهَم تشعرُ أنها لا ترضعه الحليب من صدرها فقط، بل ترضعه الحليب ممزوجاً بنسماتٍ من روحِها ونبضاتٍ من قلبها وبكلِّ الحبِ والحنان الذي بثهُ اللهُ في أعماقها.

تشعر الآن أنها كيانٌ آخر... لم تعد مجرد أنثى... انها " أم " بكل ما في هذه الكلمة من قدسية ومعاني سامية.

من هذه اللحظة ستكون مسؤولة عن هذا المخلوق الغض وإلى أن يصيرَ شاباً ويشتد ويصلب عوده... ستتابعه في كل شؤونه الحياتية من ملبس ومأكل ومشرب وطبابة، سيكون زوجها إلى جوارها بطبيعة الحال ولكن دوره يكون مسانداً وداعماً وكلما دعت الحاجة إليه، أمّا الثقلُ الأكبر فستتحمله هي، فهي التي ستنتفض من النوم في جوف الليالي كلما سمعت صرخته أو حتى همهمته... وهي التي ستجلس إلى جوارِ فراشهِ الليل بطولهِ إذا ما داهمته حمى

أو ألمَّ بهِ مرض، قلبها ونظراتها معلقة بالسماءِ تطلبُ لهُ الشفاءَ العاجل ويدها تتلمس جبينه أو تربت على رأسه وتود صادقة من كلِّ قلبها أنْ لوكانت هي مكانه وتتحمل عنه آلامَ الحمَّى وأنّات المرض.

ويكبرُ ولدها وفلذة كبدها ونور عينيها وتكبر معه مسؤولياتها ومهامها، ستكون معهُ عندما يخطو خطواته الأولى، وستكون معه عندما ينطق كلماته الأولى، وستكون بقربه عندما يتعلم درسه الأول.

وهي تقوم بواجباتها المنزلية أو الوظيفية يكون قلبها معلقا به وقد غادرها إلى الروضة أوالمدرسة وتنتظر قدومه بفارغ الصبر لتأخذه في أحضانها على عتبة الدار، تراقبه على الدوام في كل حركاته وتوفر له أفضل ما يمكن حسب إمكانيات وقدرات الأسرة.

في مدرستها سيتعلم معاني الصدق والوفاء والمحبة والاحترام، ويتعلم المبادئ الأولى لعلاقة الفرد بالخالق، كما يتعلم طريقة التخاطب والتعامل مع محيطه.

تراقبه وهو يخطو نحو فترة المراهقة الصعبة وتكون إلى جواره كما يكون والده الذي تنقل إليه أية ملاحظات قد تراها أنَّ الأصلح أن يكون للأبِ الدورُ الأكبر فيها.

هي إذن تشكّلُ دوراً محورياً في حياةِ ابنها لأنها تُسخِّر جُلَّ وقتها ومعظم حياتها له هو، فهي تلبي احتياجاته الحياتية اليومية وهي التي تهتم بشؤونه وتساهم وتحرص على تربيته وتنشئته.

هوذا الآن قد أصبح شاباً ناضجاً وقد شقَّ لهُ طريقاً في الحياة لبناءِ شخصيتهِ ومستقبلهِ وها هو الآن على عتبة أبوابِ المستقبل ليختارَ شريكةَ حياتهِ. وهنا أيضاً تريد الأم أن يكون ابنها ناجحاً في حياته العملية وناجحاً في زواجهِ واختيارِ عروسه.

إنها تتمنى أن تهطل السماءُ عليهِ مالاً وجاهاً وعافية. وهي إذ تريد له كل ذلك تطلبُ من الله أن يبقيه قريباً من خيمتها لتطمئن على أحوالهِ وتكحل عيونها برؤيته ورؤية أولاده بعد ذلك.

الكثير من المحطات آنفة الذكر في عمر الابن تبقى مضيئة في ذاكرةِ ووجدان الأم مهما تقدم العمر بها هي أو بابنها.

والخالقُ سبحانهُ وتعالى وقد شرَّف الأم بهذه المهمة الخطيرة الجليلة قد جعل من البرِّ بها من الأبناء باباً للفوز بالجنة ونعيمها وسبباً لقبولِ طاعاتهم وأعمالهم، وفرضَ عليهم حسنَ التعاملِ والمصاحبة وعدم إيذائها بالفعل أوالقول جنباً إلى جنب مع الأب ولكن لبرِّ الأمِ منزلةً أعلى وأعظم.

وهذه ليست منةً يمنُّ بها الآبناء على الوالدين بل أمرٌ فرضَهُ الله سبحانهُ وتعالى واجب التطبيق والناكر له أو المفرط فيه يكون قد باءَ بسخطِ وغضبٍ من الله.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العَنكبوت: ٨].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ . . .﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

هذا التكريم الالهي لمقامِ الوالدين على الأبناء مراعاته حتى عند اختلاف الرُّؤى والأفكار بين الطرفين، بل وحتى عندما يصلُ الخلاف إلى جوهرِ العقيدة وحتى إذا بذلَ الوالدان كلَّ مجهوداتهما لتحريفِ عقيدةِ الأبناء من الوحدانية إلى الشركِ والضلال فإنَّ وصية اللهِ سبحانهُ وتعالى للأبناء عدمَ إطاعتهما في هذه الجزئية المهمة مع الحرص على المصاحبة بالمعروف والمعاملة بالحسنى في كلِّ شؤونِ الحياة.

ويأخذ هذا التكريم شأواً أبعدَ ومنزلةً أرفع عندما يقرن الحق عبادةَ الخلقِ لهُ وحدهُ سبحانه وتعالى بالإحسانِ للوالدين.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٣_ ٢٥].

وقضى ربُّك. . . والقضاءُ الرباني هوَ القضاءُ الذي لا رجعةَ فيهِ وحكمُهُ هوَ الحكمُ الذي لا استئنافَ ضدَه. لأنه قضاءٌ وحكمٌ صادرٌ من مَعين العدلِ الإلهي المطلق، والإحسانُ يمتد ليشملَ السلوك والجوارح فلا يقال لهما إلا الكلام اللين الكريم الذي ينم عن احترامٍ كبير وتكون مظاهر الرحمة والرأفة لهما باديةً على قسماتِ وجوههم وأعطافهم، وحتى عند احتدامِ الصراع وتهيج الأنفس لأيِ أمرٍ كانَ بينَ الأبناءِ والاباءِ فإنَّ الخالقَ سبحانه وتعالى قد رسَمَ خطوطاً حمراء لا يجوز للأبناءِ اجتيازُها أوِ التطاولُ عليها. . . . .فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً .

والله سبحانهُ وتعالى وهو الخالق للنفسِ البشريةِ وهوالعالمُ بمكنوناتها، عندما يصدرُ قضاءه وحكمه بين الأبناء ووالديهم بهذه الصفة القطعية فإنه لا يتركُ فسحةً للاجتهادِ لأيِ ولدٍ عاق يريدُ أن يتجاوزَ على حكمِ الله في اسلوبِ تعاملهِ مع والديه.

فحكم الله لا لبسَ فيه ولا مجالَ للاجتهادِ والتبرير إذن، والعاق لوالديه إنما يرتكبُ كبيرةً من أعظمِ الكبائر.

والحبيبُ المصطفى (ﷺ) قد جعلَ لبرِّ الأم ثلاث درجات بينما جعل للأبِ درجةً واحدة دون أن ينقص ذلك من حقِ الأب على الأبناء من شيء وكما وردَ في الأوامر الالهية آنفةِ الذكر.

ولكنَّ الأم وهي تتحمل عظم المسؤولية الجسدية أيامَ الحملِ والولادة والرضاعة وفي المراحل اللاحقة وإلى أن يصلب عود الولد ويعتمد على نفسه.

وكذلك خطورة المسؤولية التربوية باعتبارها المدرسة التي يتخرج فيها النشئ والأجيال كان لا بد أن يكون البر للأم أضعافاً مضاعفة.

من أجل ذلك حض الرسول الكريم المسلمين أن يكون المعيار الأهم في اختيارِ الشريك لكلٍ من الرجل والمرأة هو الدينُ والأخلاق الحميدة من أجلِ أن تبنى الأسرة على أسسٍ سليمة ودعائمِ قوية ويكون تربية النشئ في المدرسة الأولى على هدي منهج مدرسة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

مع أحلام الزوجة

مذ وصلت البلوغ وعرفت أسرار النساء وهي تحلم أن تكونَ في بيتٍ هيَ السيدةُ الأولى فيه، بيتٌ يجمعها مع زوجِ المستقبل الذي تتوسم فيه كل صفات الرجولة والشهامة.

في بيتِ الأسرة بين أبويها وإخوتها وأخواتها قد لا ينقصها شيءٌ يذكر من الأمور الحياتية الاعتيادية، ولكن شأنها شأن كل فتاة ترى أنها لم تخلق لتعيشَ وتموت في بيتِ الأسرة. لا بدَّ أن يكونَ لها زوجٌ تشكل معه نواة أسرةٍ جديدة مستقلة وأن يكونَ لها أطفال لتحسَ بكاملِ انوثتها بأن تكون الزوجة والأم معاً وهي تتمنى على الله أن يحقق لها ذلك.

تكبرُ وتكبرُ معها أحلامُها... تبني في خيالها شكلَ بيتِ المستقبل، هكذا ستكون غرفة النوم... وغرفة الطفل تكون قريبة منها... هنا الجلوس وهناك المطبخ حيث تثبت مهارتها في فنِّ الطبخ... وهذه وتلك....الخ.

ويأتيها العريس وتحصل موافقةُ الأسرةِ عليه وموافقتها هي أيضاً. وفي فترةِ الإعدادِ للزواج وبعد عقد القِران تحاولُ أنْ تجَسِد أحلامها في شكلِ البيت والأثاث وكل مستلزماته برفقة عريسها وبالقدر الذي تسمح به إمكانياتهما.

وتتطلع إلى الانتقالِ إلى عشها حيث ستنعم فيه بالسعادة مع زوجٍ محبٍ وعطوف تكونُ سيدةَ بيتهِ كما هي سيدة قلبهِ وعواطفه وسيشقان طريقهما في الحياة معاً ويضعانِ أسس ودعائمَ أسرتهما الصغيرة دون أن يشاركهما في ذلكَ أحد.

وتنتقل إلى بيتها الجديد تسبقها أحلامها وتاركة وراءها دلالَ الأم والأب وعطفَ الإخوةِ والأخوات لتضطَلع بمهامها كزوجةٍ وسيدةَ منزل. وهذا الأمر لا يخوفها في شيء البتة طالما أنَّ البيتَ الذي ذهبت إليه سيضمّها مع الرجل الذي أحبته وارتضته زوجاً وحبيباً ووالداً لأطفالها إذا أكرمَها الله بذلك.

الأم والزوجة تحت خيمة واحدة

بديهي أن يكون للرجل المتزوج حديثاً عائلتهُ الأصلية التي تضمُّ والديهِ وإخوته وأخواته وأقرباءه وأن يكون للزوجة مثلُ ذلك. ويفترض أن يندمج الزوج

في عائلة زوجته وتندمج الزوجة في عائلة زوجها اندماجاً ينجم عنه بث روابطِ الإلفةِ والمحبة بين العائلتين الكبيرتين وتكون الأسرة الصغيرة المُشكَّلة حديثاً حلقةَ الوصلِ في ذلك. ولا يشترط أن تفقد الأسرة الصغيرة خصوصياتها كأسرةٍ جديدة في كنفِ العائلتين أو أنْ يفقدَ أحد الزوجين أوكلاهما خصوصياته وتذوب شخصيته ثمناً لهذا الاندماج.

الأطرافُ الرئيسية المؤثرة بعد عمليةِ الاندماج أوالمصاهرة همْ أمُّ الزوج وأمُّ الزوجة والزوجة، أمّا الآباء فهم عادةً لا يتدخلونَ في جزئياتِ حياةِ أولادهم بعدَ الزواج مثلما تفعلُ الأمهاتُ أو بعضُهن على الأقل. الآباء يتدخلون في حالاتٍ نادرة عندما يطفحُ الكيل ويكون تدخلهم ضرورياً لتقويمِ اعوجاجٍ أو دَرأ خطرٍ أوضررٍ واقع أويوشكُ أن يقعَ على أولادهم أو لمنعِ انشقاقٍ قد يفضي إلى الهجرِ والطلاق إذا تُرِكَ ليستفحل. ولكلِ قاعدةٍ شواذ بطبيعةِ الحال.

والعلاقة بينَ الرجلِ وحماتهِ تكون حسنةً في الغالب لأنَّ الأم وهي ترى ابنتها قد غادرتها والتحقَتْ بزوجهَا لتكوِّن أسرتها الجديدة تبذلُ قصارى جهدها من أجلِ أن تكونَ الأجواءُ في بيتِ ابنتها على أفضلِ ما يرام وتساهمُ في كلِّ جهدٍ أو فعلٍ أو قولٍ يقود إلى ذلك.

والأم الصالحة التي تريد الخيرَ لابنتها في حياتها الجديدة ليس من المنطق أن تحرضها على زوجها أو أهلهِ أو تدعوها لِتحَمّلَ زوجَها فوقَ طاقته، والأم التي تفعل عكسَ ذلك إنما تخلقُ مشاكل ومصاعب لابنتها وتحدِث انشقاقاً بينها وبين زوجها قد يتسعُ ويتعاظمُ شأنه ويؤدي إلى الطلاقِ إذا كان تدخلها سافراً وتحريضياً يتصلُ بخصوصياتِ زوجِ ابنتها أو مسؤولياته في بيتهِ أو إذا لم تستدرك الزوجة فتكفّ يدَ أمها في حياتها بشكلٍ هادئ وعقلاني لا يخرجها من مسؤولياتها الأخلاقية والشرعية في البرِّ بإمِّها.

في خضمِّ هذه العلاقات تبرز علاقة الزوجةِ بحماتِها كعنصرِ قلق يحتاجُ للكثير من الصبرِ والحكمة والتأني بين الطرفين.

فالأم تستحضر أمامها على الدوام تأريخ ارتباطها العضوي والوجداني بابنها منَ اللحظة التي خلقه الله نطفة وجعلهُ في قرارٍ مكين في رحمها مروراً بكلِّ المراحل التي أشرنا إليها آنفاً. لذلك لا يمكنها التخلي عن كل هذا الإرث من

العواطف التي تشكل جزءاً مهماً من حياتها وتريد لهذا الإرث أن ينمو ويمتد ليشملَ أحفادها أيضاً، ولا يمكنها أن تتصور أن يتنكر ابنها لكلٍّ هذا السجل الزاخر بالعطاء والتضحيات فيفضلَ زوجتهُ عليها فمهما تفعل الزوجة لن يكون بمقدورها أن تمنحه ما منحته هي من الحب والحنان والرعاية طوال أكثر من عقدين من عمره.

وترى الأم أن الله قد ثبت حقوقها على ابنها في قرآنٍ يتلى إلى يوم القيامة وهي تريده أن يكون ابناً باراً ليكسبَ رضاها ورضا الله فيفوز بالجنة ولا تريده أن يكون ولداً عاقاً فيقعَ عليهِ سخطُ اللهِ وغضبه.

الزوجة بالمقابل ترى أنها اختارت زوجها ليكون شريكاً لحياتها وهي تفهم الشراكة أن تكون بينها وبين زوجها فقط دون شريكٍ ثالث.

وهي تريد أن تخطط لحياتها وتتصرف بشؤونِ أسرتها وزوجها من دون رقيبٍ أو وصاية وتريد لزوجها أن يتخلص هو أيضاً من التبعية القديمة لأمهِ وعائلته لتكون حِمى أسرتهِ الصغيرة هي حِماه التي يذودُ عنها ويعملُ لأجلها في المقام الأول.

لذلك لا بد من الإقرار بوجودِ خيطٍ خفي من التنافس على الرجل من أمهِ وزوجتهِ وهذا الخيط مهما بدا ضعيفاً وواهياً فإنهُ يقودُ إلى نوعٍ منَ التنافر الحسي بينهما قد يبقى راقداً في أعماقهما يمنع ظهوره الإلفة والمحبة التي تشعُ في الأجواء كلها.

ولكن هذا الرقود ليسَ أبدياً لأنه يظهرُ من جديدٍ عند كلِّ نقطةِ خلافٍ أو تصادمٍ في الآراء.

وهذهِ العلاقة تأخذُ مستوياتٍ وأبعاداً مختلفة وحسب طبيعةِ الطرفين والموروث الشخصي والفكري والاجتماعي والأخلاقي لكلِّ طرفٍ وكذلكَ حسبَ فهمهما وتقبلهما للمنهج الإسلامي في العلاقات وإدراكهما للحس الإنساني الراقي في التعامل.

فتكون علاقة متذبذبة بين الحميمية المطلقة أحياناً والحميمية المقرونة بنوع من التوجس أحياناً أخرى أو الحذر الدائم الذي يقود إلى التصادم لأتفه الأسباب.

رصد بعض الحالاتِ

لا يمكن حصر العلاقة بين الزوجة وحماتها في حالاتٍ ثابتة معدودة فهناك آلافُ الحالات التي قد لا تشبه بعضها البعض باعتبارها تتعلق بالسلوكِ الفردي والشخصي ولكن قد يمكن الإشارة إلى بعضِ جوانبِ التفكير المشترك الذي يجمع بينَ معظمِ العلاقات هذه لنفهمَ كيف يفكرُ كل طرف بالآخر.

الأم (الحماه): كيف تفكر ؟؟

- ترى بذخَ زوج ابنتها في بيتهِ دليلاً على جودهِ وكرمهِ. في حين ترى بذخَ ابنها في بيتهِ دليلَ إسرافٍ لا مبررَ له.
- ترى أنَّ موافقة زوجِ ابنتها على مطالبِ ابنتها تنم عن مدى حبهِ وإخلاصِه لها، في حين ترى تنفيذ تلكَ المطالبِ من قبل ابنها دلالة على ضعفهِ وخضوعهِ لزوجته.
- ترى أنَّ عدم موافقةِ زوجِ ابنتها على تدخل أمه في حياتهِ الشخصية دليل على حرصهِ على زوجتهِ وأسرته، بينما ترى عدم موافقةِ ابنها على ملاحظاتها دليلَ جحودٍ وإنكار في حقها كأم.
- ترى ارتباط ابنتها بها وبعائلتها دليلَ أصالة، وترى ارتباط زوجةِ ابنها بعائلتها دليلاً على عدمِ رغبتها في الاندماج بعائلةِ زوجها.
- ترى في إسرافِ ابنتها في التزين لزوجها دليلاً على حبهما وتمسكِهما ببعض في حين ترى تزين زوجةِ ابنها خروجاً عن المألوف ومبالغ فيه.

الزوجة: كيف تفكر ؟؟

- ترى تدخل أمها في كل شؤونها نابع عن الحرصِ على مصلحتها وتأتي من بابِ النصيحة والإرشاد، وترى أن تدخل حماتها في بعضِ شؤونها نابع عن الرغبة في الهيمنة والتسلط عليها.
- ترى أنَّ معاملة أمِها لأولادها تأتي في إطارِ التربية الشاملة لهم، وترى في معاملة حماتها لأولادها إفساداً لطباعهم وإضعافاً لشخصيتهم.

- ترى أن حبَّ أمها لزوجها وعلاقتها به امتداد لحبها لها هي، وترى أن حبَّ حماتها لابنها (زوجها) مصطنع تروم به إثارةَ غيرتها.
- ترى أنَّ أمَها تحرص على العلاقة الحسنة بينها وبين زوجها (صهرها) وتريد لزواجهما النجاح والاستمرار، وترى أنَّ حماتها غير مكترثة بهذهِ العلاقة بل قد تحرض ابنها عليها.
- ترى أن علاقتها بأمها تدخل في إطارٍ مشروع من التعقل والحكمة، وترى علاقة زوجها بأمه دليلاً على ضعفه واستمرارِ نفوذِها عليه.
- تعاملُ أمَّها في بيتها كأنها صاحبة البيت وتعاملُ حماتها كأنها ضيفة ليسَ إلا.
- تشعر بالغبطةِ والفرحِ عندما ترى ارتباط أولادِها بأمها وحبهم لها، وتشعرُ بالانقباض إذا رأت أواصرَ المحبة ممتدة بين أولادها وحماتها.

نظرة الأم إلى زوجةِ ابنها أو نظرة الزوجة إلى حماتها قد لا تكون بهذه القسوة والجفوة التي عبرنا عنها في الحالات السابقة، ولكن بحكم التنافر الخفي أحياناً والشديد أحياناً أخرى فإن التعامل وفق الأمثلة السابقة قد يأخذ مديات أوسع وأقسى وتخرج عن الطابع الإنساني حتى. أو قد تضعف وتخمد حتى تصل إلى حدِ الضمور والانزواء.

وخفوت التنافر أو شدته يعتمدان على الإيمان بالميزانِ الأخلاقي الإسلامي ومدى تطبيقه من كِلا الطرفين وكذلك على الموروث الشخصي والعائلي والاجتماعي لهما.

الرجل بين بر الأم وحقوق الزوجة

الرجل الذي ينظرُ بحياديةٍ تامة ويوزن الأمور بميزانِ العدل الإسلامي لا يجدُ أيَّ تقاطعٍ بينَ كاملِ البرِّ بأمِهِ وبينَ إعطاء الزوجة كل حقوقها المشروعة، والرجلُ الفطن بإمكانهِ أنْ يكون عنصر موازنةٍ حتى في حالِ بروزِ نوعٍ منَ التنافر بين أمه وزوجته بلْ يفترض بهِ أن يكون كذلك.

ولكن على الرجل أن ينتبهَ إلى نقطةٍ في غايةِ الأهمية والخطورة وهي أنَّهُ

مهمَا اشتدَّ الصراع وعلا الضجيج وساءَتِ الأمورُ بينَ أمهِ وزوجته فعليهِ أنْ لا يتجاوزَ الخطوط الحمراء والنواهي الإلهية الصادرة للأبناء بحقِّ والديهم.

فمنَ الغباءِ والغفلة أن ينساقَ الابن وراءَ ضغوطاتِ زوجتهِ أويتبرَّمَ منْ مجملِ الإشكالات التي تحيطُ بالموضوع فيصدر عنهُ كلام قاسٍ أوجارحٌ في حقِّ أمه، عندَ هذهِ النقطةِ بالذات عليهِ أن يتيقن أن منزلة الأمِ محمية بأوامرِ إلهية فليسَ من المنطقِ والعقل والدين إذن أن يرتكبَ معصية تعدُّ منَ الكبائر ويتعدى حدودَ الله من أجلِ إرضاء زوجته.

وعليه أن يعلمَ أنَّ رضا الله من رضى الوالدين وليس من رضى الزوجة، ولا يعني ذلكَ التفريط في حقوق الزوجة بأيِّ حالٍ منَ الأحوال ولكن عليهِ أنْ لا يدعَ الأمور تصلُ أصلاً إلى نقطةِ اللاعودة والاختيار بينَ الأمِ أوالزوجة.

على الرجل أن يثبت لزوجتهِ بالقولِ والتطبيق أنَّه في الوقتِ الذي يكونُ باراً بأمِّهِ وأبيه عليها هي أيضاً أن تكونَ بارةً بوالديها فلا يجوزُ لكليهما التفريطُ في ذلك مطلقاً ومنْ أجلِ ذلك عليهما أن يتعاونا فيشد الرجل من عضدِ زوجته إذا وجد منها فتوراً في حقِّ والديها ويعاونها على تصحيحِ وضعِها، وعليها أنْ تعينه إذا رأتْ مِنهُ صدوداً أو إدباراً معَ والديهِ فتذكِّره بحقِّهما عليه.

والأسرة المسلمة الجديدة وهي تتلمس لها مكاناً في المجتمع يجب أن يكونَ بناؤها على رضا اللهِ ومحبته وليسَ سخطهِ وغضبه، ومباركة الوالدين لأبناءهم عندَ الزواج وبرُّ الأبناءِ لوالديهم يقعُ في دائرةِ رضوانِ الله سبحانه وتعالى.

والرجل الذي يتقي الله في حقِّ أمهِ تطبيقاً لأمرِ الله وإقراراً منهُ بحقِّها يكونُ أقربَ الناسِ مراعاةً لحقوقِ زوجتهِ وأسرتهِ عليه والعكسُ صحيح.

وليسَ صحيحاً أنْ يقالَ في هذا الشأن على الرجل أن يُمسِكَ العصى من الوسط لأن الموضوع ليسَ توازنات بينَ القوى وليستْ جبهة صراع بلِ الأطرافُ كلها تدور في فلكٍ واحد حولَ مركزٍ ونواةٍ واحدة.

وإذا اعتبرنا أنَّ النواة هيَ الميزانُ الأخلاقي الإسلامي وإذا كانتِ الأواصرُ التي تشد وتجذب كلَّ الأطراف إلى النواة قويةً وراسخة لا يمكنُ أن يحدثَ خللٌ

في العلاقةِ بينَ هذهِ الأطراف وطالما أنَّ الهدفَ والمبتغى هو تحقيق أقوى ارتباطِ بالمركزِ أو النواة، أمَّا إذا كانَ ارتباط تلكَ الأواصر ضعيفةً أوقلقة فإنَّ هذا النظام المحكم سيتعثر ويفسد الترابط الأخلاقي بينَ هذهِ الأطراف.

والعناصرُ الثلاثة التي يمكِنُ منْ خلالِها إحكامُ الضبط ومنعُ الانفلات لارتباطِ تلكَ الأواصر معَ النواة هي:

أولاً: المعرفة الكاملة بحقوقِ الآباءِ على الأبناء وكمَا رسمهُ القرآن الكريم وثبته النبي (ﷺ) من خلالِ سيرتهِ الشريفة وسنتهِ العطرة

وثانياً: معرفة كل منَ الزوجين لحقوقِ الطرفِ الآخر في النظام الاجتماعي الإسلامي معرفةً تامة تقودُ إلى التطبيق الدقيق لها في كلِّ مناحي الحياة.

وثالثاً: تخلق كل الأطراف بالخلق والسلوك القويم الذي دعا إليهِ الله سبحانه وتعالى وحثَّ عليهِ الرسول الكريم والابتعاد عما نهى عنه الله ورسوله في التخاطبِ والتعامل.

٥ - تذكّر لحظـــةَ موتك

تخيَّل وأنك تسيرُ في الطريق ذاهبا الى عملكَ أو قادمًا الى دارك، يأتيكَ صوتٌ يزلزلُ له كيانك وترتعدُ له فرائصك:

" قف مكانكَ... لا تتحرك.. لقد جاءَ موعدُ قبضك "

تتعطلُ عندها في التو واللحظة كلُّ قدراتك التي حباكَ الله بها. تتعطلُ حركتك فأنتَ مُسَمَّر في مكانك، يُشَلُّ لسانك، تزيغ عيناك، تتوقفُ رئتاك ويتوقفُ دورانُ الدم في عروقك.

هكذا وبدونِ إنذارٍ مُسبَق يأتيكَ الهاتف ويعطلُ كلَّ قدراتك.

ستشعرُ أنكَ انتهيت، أنتَ على خطِ النهاية الآن.

على هذا الطرف من خطِّ النهاية جسدُكَ الذي توشكُ روحكَ أن تخرجَ منه. وعلى الطرفِ الآخر حياةُ البرزخ المهيئة لك وما يكتنفها من غموضٍ لا تدرِكُ كنهَهُ ولا تعلمُ عنها إلا ما ترشح من معلوماتٍ من الكتابِ والسنة المطهرة، وبعدها يوم القيامة ويوم الحساب.

لحظاتٌ لا شكَّ أنها رهيبة ومخيفة !! أن ترى نفسك على خطِّ النهاية حيثُ العبور الحتمي إلى الطرف الآخر، وحيث لا مردَّ أبداً للأهلِ والأحبة والخلان.

تماماً على هذا الخط الذي يفصل بينَ الحياة والموت، وبعدَ لحظات سيصبحُ جسدكَ مجرد كومة لحم ليس إلا. لا قيمة لها لكَ أنت وأنتَ مالكُ هذا الجسد، ولا قيمة لها لخلانك وأقربِ المقربينَ إليك مهما كنتَ عزيزاً وغالياً لديهم، كل ما يسعهم فعلهُ أن يواروا كومةَ اللحم هذهِ تحتَ التراب قبلَ أن تجيفَ وتنتن.

نعم سيسقط جسدك على هذا الجانب من الخط الفاصل ولن يعبرَ إلى الجانبِ الآخر إلا عملك "صالحه وطالحه".

وتصوَّر أنكَ سترى على الجانب الآخر من الخط قارورَتين عملاقتين منَ الزجاج الشفاف، إحداهُمَا ستكون مستودعاً لحسناتك والثانية مستودعاً لسيئاتك.

إنَّك ترى أعمالك تتجسَّدُ وتخترق الخط الفاصل لكي تستقر في مستودعِ حسناتك أو مستودعِ سيئاتك.

وأنت ترى ذنوبكَ تستقرُ في قارورةِ السيئات، تراها كلها ذنباً بذنب، كلٌّ ذنبٍ لهُ تأريخٌ يحدِّدُ لحظةَ وقوعِه بدقةٍ متناهيةٍ لحدِّ الثانية والهنيهة. وكلُّ ذنبٍ لهُ وصفٌ دقيق بحيثياته وتفاصيله، إنّها تتخطاك، تتخطى جسدك وليسَ لكَ عليها من سلطان:

هذا يوم عققتَ والدتك.

هذا يوم تعديتَ على جاركَ فلان.

وهذا يوم أكلتَ مالَ فلان.

يزدحِمُ خطُ العبور بالسيئات كلها تتسابقُ إلى مستقرها على الجانبِ الآخر.

هذا يوم كذبت وهذا يوم أهملتَ صلاتك وهذا يوم اغتبتَ فلان...وهذا .. وهذا.

يا لهولِ المشهد، ملايينُ الذنوب والخطايا تتركُ جسدَك- الذي يوشكُ أن يسقطَ - وتستقرُ في مستودَعِ سيئاتك !! وأنتَ تتساءل هل أنا اقترفت كلَّ هذهِ الذنوب والمعاصي؟؟

تريدُ أن تحرِّكَ يديكَ كي تمنعها من العبور إلى الطرف الآخر ..

ولكن هيهاتَ لم يعُد لديكَ سلطانٌ على يديك.

وترى أيضاً بعضَ الحسنات تعبر إلى الطرفِ الآخر وكأنها خَجلى من هذا الخِضَمِّ الهائل منَ السيئات التي تكادُ تسد عليها طريقَ العبور، هيَ أيضاً كما السيئات تمتلكُ تأريخاً محدداً ووصفاً دقيقاً.

ترى قارورةَ السيئات تكادُ تمتلئ والذنوبُ تتزاحمُ داخلها، وتحسُّ أنها تسخرُ منكَ أو تلعنك، أمَّا قارورة الحسنات فهيَ شبهُ فارغة.

ثمَ يأتي ملكانِ مكلفان فيختمان على أعمالك ويحملان القارورتين من أمامِ عينيك ويزيغُ بصرُك خلفهما وهما يختفيان في الأفق.

لقد انتهَت حياتك إذن وخُتمَت أعمالك.

وترتَعِدُ فرائِصُكَ لهولِ المشهد.

"يا ويلتاه على ما فرَّطتُ في نفسي".

في هذهِ اللحظة المرعبة لوخُيِّرتَ بينَ امتلاكِ الدنيا بكلِّ مباهجها وملذاتها وبينَ أن تعيشَ فقيراً محروماً معدماً إذا كانَ المقابل أن يمتلئ مستودعُ حسناتك وأن يفرَغ مستودعُ سيئاتك ستختارُ الثانية لا محال. وتقولُ كما قالَ كلٌّ من سبقكَ إلى هذا الموقف " ربِّي أرجعني أعمل صالحاً ".

ولكن هيهاتَ فلا رجوعَ البتة عن خطِّ النهاية.

سيسقطُ جسدُكَ على هذا الجانب من الخطِ الفاصل بينَ حياةِ الدنيا وحياةِ البرزخ، وتعبر روحك التي ستتشكلُ في قالبٍ جديد يلائمُ هذهِ الحياة "حياة البرزخ".

إنَّها الغفلة المطلقة التي تسيطرُ علينا في حياتنا الدنيا وهيَ التي تمنعنا من أن نفكّرَ أونتحسَّسَ هذهِ اللحظة الرهيبة ونعد لها من الحسنات ما نملأ بها قارورةَ الحسنات حتى إذا تهاوى الجسد على هذا الجانب انطلقت النفس إلى الجانب الآخر مطمئنة راضية لتدخل في عبادِ الله وتدخل من ثمَّ في جنته.

ولوقدِّرَ لأحدنا أن يطلعَ على ما يشغلُ بالَ من يصل إلى خطِّ النهاية هذا وفي لحظةِ وصوله لوجد أموراً تافهة لا تستحق أن يشغلَ العبد نفسَهُ بها على حسابِ آخرته.

نعم الجل الأعظم منَ الأفكار ستكون دنيوية زائلة والقلة النادرة ستكون في تلكمُ اللحظة في مرضاةِ الله ولصالحِ الآخرة.

وعندما نتمعَّنُ كيفَ أنَّ لحظةَ الموتِ قريبة من كلِّ واحدٍ منا.

وتفاجئنا من دونِ سابقِ إنذار.

بينما نحنُ ساهون وغافلون ومشغولونَ بحطامِ الدنيا.

سنحسُّ عندها كم نحنُ غافلون ومغفلون.

غافلونَ عن آخرتنا من أجلِ دنيانا.

ومغفلون لأننا نفضّلُ البضاعة الرخيصة الزائلة على البضاعة الدائمة الخالدة.

فبئسَ البيعُ بيعنا.
ستسقطُ أجسادنا عندَ خطِّ العبور.
هذا الجسد الذي أفنينا عمرَنا من أجله.
كيفَ نطعمه وكيفَ نسقيه؟؟
كيفَ وماذا نلبسه لنقيهِ البرد والحر؟؟
وكيفَ نلبي متطلباته ونحققَ لهُ ملذاته؟؟

هذا الجسدُ سينهارُ ككومةٍ لحمٍ لا قيمةَ لها سرعان ما تفنى ويفنى معَها كل مابذلناه من أجلِ هذا الجسد. كل تلكَ الجهود لا تصبحُ هباءاً منثوراً فحسبْ بل ستخرجُ من الجسد كذنوبٍ وخطايا لتنتظرنا على الطرف الآخر من الخط ولتكونَ حُجَّةً علينا:

" شبابنا فيمَ أفنيناه"

"صحتنا فيمَ فرطناها"

"أموالنا كيفَ اكتسبناها وفيمَ أنفقناها"

وسيكونُ الردُّ المزلزل المهين الذي نجبَرُ على النطقِ بهِ ساعتئذ " في هذا الجسد"

هذا الجسد الذي سيتهاوى ويفنى.

أيستحقُ منا كلَّ ذلك؟؟

أيعقلُ أن نبيعَ آخرتنا بخدمةِ شيء سيزول ونتركه ولا يعبرُ معنا إلى الجانب الآخر؟؟؟

نسألكَ اللهم أن توقظنا من غفلتنا هذه وأن تجعلنا نعملُ لآخرتنا أكثر مما نعمل لدنيانا وأن ننفقَ أعمارنا وصحتنا وأموالنا في مرضاتك لا في عملٍ يجلبُ علينا سخطك وغضبك ومقتك.

٦- حـــــدودُ الله المنســـــية

ولا تجسَّسُوا ....

ولا يغتب بعضُكم بعضاً ....

ورَدَت هذهِ النواهي الإلهية في القرآن الكريم في بابِ النهي عن السلوكياتِ الاجتماعية الخاطئة والتي لا تقودُ إلا إلى المفسدة والتباغض والتنافر وتفكك المجتمع.

والمتتبع لأحوالِ المسلمين وسلوكياتهم اليوم يرى أنَّ هذهِ الحدود قدِ انتُهكَت عندَ السواد الأعظم منَ الناس ولم ينجُ منها إلا القلة القليلة مِمَّن عمَّرَ الله قلوبهم بالإيمان وزيَّنها بالتقوى.

الكثيرُ منا يقشعرُ بدنهُ عندَ ذكرِ بعضِ المعاصي كالقتلِ والزنا والسرقة لأنَّها مرتبطة بأذهانِنا بإقامةِ الحد الشرعي لمرتكبي هذهِ المعاصي، ولكنَّنا نمرُّ على الآيات التي تنهانا عن عقوقِ الوالدين أو التجسس على بعضِنا البعض أو الغيبة والنميمة مروراً عابراً دونَ أن يرفَّ لنا جفن أو يخفق لنا فؤاد عندَ قراءتها أو سماعها.

وفي الحقيقة أن تفشي هذهِ السلوكيات الخاطئة التي نهانا عنها ربُّ العزة جل جلاله وأكد عليها الرسول الكريم (ﷺ) في أحاديثَ صحيحةٍ كثيرة قد جعلَ مجتمعاتنا الإسلامية تشكو من ظواهر مرضية خطيرة تكادُ تعصِفُ بها، فالحقدُ والحسدُ والتحايل والتنافر والتفكك وعدمِ الاجتماع على أمرٍ سواء صارَتْ سمةً ملازمة لمجتمعاتنا حتى أصبحنا نعتقد أنَّ السلوكيات والخصائِل الحميدة إن هيَ إلا حصر على المجتمعات غيرِ الإسلامية في الغرب ونتمنَّى أن نقتبسَ منها هذهِ السلوكيات والخصائل.

وننسى أنَّ كلَّ هذهِ السلوكيات الحميدة قد أفردَ لها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مساحاتٍ واسعة جداً لتبيانِ فضائل من يتمسَّك بها وسوء العاقبة

لمن يتهاون بشأنها ويتعدَّى حدودَ الله فيها.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا...﴾ [الحُجرَات: ١٢].

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ [الحُجرَات: ١٢].

لو أخذنا هذهِ النواهي الإلهية بالمنظارِ التالي.

ربُّ العزة يخاطبكَ أنتَ من فوقِ سبعِ سماوات:

" لا تَتَجَسَّس ... لا تَغتَبْ أخاك"

تصوَّر أنتَ العبد الضعيف لا حولَ لكَ ولا قوة ومخاطِبُكَ ربُّ العزة، الخالق الكريم، خالق هذا الكون والذي إذا أرادَ أن يهلككَ أويهلك هذا الكون الكبير الشاسع المترامي الأطراف فإن الأمرَ لا يتعدَّى "كنْ فيكون".

أنتَ العبد الضعيف يخاطبُكَ ربُّكَ وخالقكَ مباشرة:

لا تَتَجَسَّس ... لا تَغتَبْ أخاك...

أفلا يجب أن ترتعِد فرائصك خوفاً وهلعاً من لفظةِ التَجَسّس أوالغيبة والنميمة، أفلا يجدرُ بكَ أن تفر من مجالسِ الغيبة ومصائدِ التجسس فرارَ المذعور منَ القسورة.

ولنفكر أيضاً...

لماذا ينهانا الله عن التجسس الاجتماعي!!!

تَجَسُّس الأخِ على أخيه....

تَجَسُّس التاجرِ على زميله....

تَجَسُّس الزوجِ على زوجه....

تَجَسُّس الصديق على صديقه....

تَجَسُّس الجارِ على جاره....

وأيَّاً كانت وسائل التَجَسُّس منَ الترصُّد أوالتنصُّت أوبثّ العيون أوسرقةِ الوثائق أو الاستحواذ عليها أو المكر والخديعة أو غيرَ ذلك من آليات التَجَسُّس

فإنَّها لاتقودُ إلا إلى المفسدة، لأنَّها تجلبُ التباغض والتناحر أوِ التنكيل والتشهير. وذلكَ لأنَّ التَجَسُّس الاجتماعي يؤهلكَ لمعرفةِ ما لا يجب أن تعرفه عن شخصٍ معين أو أسرةٍ بعينها وهذهِ المعرفة تدفعكَ إلى سلوكٍ خاطئ.

وربُّ العزة عندما ينهانا من فوق سبعِ سماوات عن هذا الفعل القبيح فلأنَّه سبحانهُ وتعالى يريدُ للمجتمع الإسلامي أنْ يكونَ معافياً قوياً كالبنيانِ المرصوص متآزراً متعاوناً ساعياً ومُحبَّاً للخير، ولأنَّ هذا الدين وهودينُ الفطرة لا يمكنُ أنْ ينهضَ بدورهِ في قيادةِ المجتمعِ الإنساني إلا إذا نشأ في جوٍ سليمٍ ومعافى.

فانظر أخي المسلم إلى التَجَسُّس الاجتماعي بأنَّه تعطيلٌ لما يريدهُ الله لهذهِ الأمة من رفعةٍ وسموِ خلقٍ وريادة في المجتمع الإنساني وتصوَّر عِظَمَ ذنبٍ من لا يقيمُ حدودَ الله في هذا النهي الرباني.

عندئذْ ستفكرُ مرتين قبلَ أن تُقدِمَ على أمرٍ كهذا.

ولبيانِ قبحِ الغيبةِ والنميمة تخيَّل معي مشاهد افتراضية:

المشهد الأول:

أربعةَ أشخاصٍ يتحلقُونَ حولَ طاولةٍ مربَّعة وعلى وجهِ الطاولة جَسَد ميِّت لعزيزٍ لهم. يبادرُ أحدَهَم بقولهِ "اللهُم لاتجعلها غيبة" ثم يفتح صدرَ الميت بسكين فتنبعثُ ريح نتنة منَ الجسد المُمَدَّد على الطاولة ويمد يديه إلى جوفه فيخرُج كبدَه ويلوكها بينَ أسنانه.

سبحانَ الله !!

هل يملكُ أحدٌ أن يفرضَ على الله افعل كذا أوكذا ؟

كيفَ يتجرأ مسلم على قول ذلك ؟

إنَّه يعرف في قرارة نفسه أنَّ هذا الأمر منهي عنه وأنَّهُ محض معصية بحكم رباني قرآني مبين، فكيفَ يطلبُ منَ الله أن لايجعَلها معصية ؟؟

هل يتخيَّلُ أحد أنَّه من المقبول أن يقولَ من يهمُّ بالزنا (والعياذ بالله) ربِّي لا تجعلهَا زنا ؟؟

إنَّ بابَ التوبةِ مفتوحٌ لمَن ارتكبَ معصية ثمَّ ندَمَ واستغفرَ الله وسألهُ التوبة،

أمَّا أن يكون المرء بكاملِ وعيه ويهِمُّ بالمعصيةِ ويفعلها ويطلبُ منَ الله أن لايجعلهَا معصية فهذا أمرٌ مستهجَن لايقبلهُ عقلٌ أو منطق.

المشهد الثاني:

يقتطِعُ شخصٌ آخر من المتحلقين حولَ الطاولة قطعة من الجسدِ الميت ويبدأ في قضمِها وهو يقول "نحنُ لا نغتابهُ بل نحبه ولا نريدُ أن تكونَ لهُ هذهِ الخصال".

المشهد الثالث:

يهمُّ الشخصُ الثالث بغرزِ أصابع يديه في الجسدِ الممزق ويقتطعُ منهُ قطعةَ لحم كبيرة ويلتهمها بشراهةٍ وهوَ يقول "ليسَت هذهِ بغيبة لأنَّ ما نذكره إن هيَ إلا خصاله".

سبحانَ الله

وهل الغيبة إلا أن تذكرَ أخاكَ بما فيه !!!

ويدلوالرابعُ بدلوهِ أيضاً وتتكررُ هذهِ المشاهد ويتكررُ معها نفيُهم أنَّ ما يقومون بهِ أمرٌ مشين. ويتمزقُ الجسد الميت بينَ غرزِ السكاكين والأصابع.

المشهدُ الأخير:

الغرفَة كئيبة تكادُ تكونُ مظلمة، أشلاءُ الميت متناثرة على وجهِ الطاولة وفي أرض الغرفة. عيونُ الأشخاصِ الأربعة جاحظة، أياديهم وأفواههم ووجوههم وملابسهم ملطخةٌ بآثارِ الدمِ والأحشاء وبقايا اللحمِ المهترىء، رائحتهم نتنة وكريهة.

هذا هوَ المشهد الذي يعقبُ كلَّ جلسةِ غيبة.

وأيم الله إن المشهد عندَ الله لأقبح مما تصوَّرناه.

فهلا توقفنا لحظة؟

هلا تذكَّرنا هذهِ المشاهد المريعة قبلَ أن نخوضَ مع الخائضين في مجالسِ الغيبة والنميمة؟؟

هل نريدُ أن تؤخذ لنا آلافُ الصور الحية مثلَ التي تصوَّرناها في المشهدِ الأخير وتعرَض علينا يومَ القيامة.

هذهِ صورتك ساعةَ كذا يومِ كذا يوم اغتبتَ أخاكَ فلان.

وهذهِ صورتك ساعةَ كذا يومِ كذا يومَ خضتَ مع الخائضين في عرضِ أخيكَ فلان.

نعم لنتذكَّر أنَّ حالنا سيكون كما صوَّرناه في المشهدِ الأخير كلمَا هَمَمْنا بعقدِ جلسةٍ للغيبة.

ولنتذكَّر أنَّ كل حركة وكلمة سَتُسَجَّل علينا بالصوتِ والصورة لتكون شاهدة علينا يومَ القيامة.

عندها قد يدفعنا الخوف من المشهدِ المريع والمشين في عدمِ الوقوع في هذهِ المعصية.

نسألكَ اللهم أنْ تُقوِّمَ أخلاقنا وأفعالنا وسلوكَنا وتجعلنَا مِمَّن يقفونَ عندَ حدودك فيحللونَ ما حللتَ ويحرمونَ ما حرَّمت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

٧ - ربيعٌ وخريف

ربيعُ العمرِ وخريفه

ها أنذا أقفُ فوقَ ربوة.

أنظرُ يميناً فأرى زوجينِ من الطيور، يتناجيانِ ويتراقصان ويبنيانِ عشَّهما الصغير.

ثمَّ أرى العش بعدَ حين وقد امتلأ بأفراخٍ صغار تثيرُ الضجيج وهيَ تتلقَّفُ الطعام من أبويها.

أنظر شمالاً فأرى عشاً مهجوراً.

وأرى بقايا منَ الريش تعودُ للأفراخ التي كانت تسكنُ العش أو لأحدِ الزوجين، ربما انقضَّ عليها نسرٌ جائع فالتهمها.

أنظر يميناً فأرى حقولاً خضراء تمتد باتجاه الأفق وأرى سنابل ممتلئة تقفُ على سيقانٍ قوية تتمايلُ بنشوةٍ وخيلاء معَ النسيم.

وأنظرُ شمالاً فأرى أرضاً جرداء وتهبُّ رياحٌ فتثيرُ فيها سحابةَ غبارٍ من الأتربة ومما تخلف عن الحصاد.

عن يميني غابة خضراء كثيفة الشجر متشابكة الأغصان حتى ليخيل للمرء إن هيَ إلا شجرة خضراء عظيمة واحدة تغطي كلَّ هذه المساحة.

قد أمَّتها أسرابٌ من الطير وهي جميعاً تزقزقُ وتتقافز على الأغصان.

واستيقظت حيواناتها من السبات الشتوي فها هيَ تبحث عن طعامٍ أو وليفٍ جديد تجدِّدُ معه حياتها لهذا العام.

وعن شمالي غابة جرداء قد تراكمَ تحتها حطامٌ أصفر.

وبانت فيها هنا وهناك أغصانٌ يابسة أوأشجارٌ متهالكة.

لا أرى فيها إلا طيراً قد تخلف عن الخروج وهو يشقُّ طريقهُ الآن إلى الطرفِ الآخر من الغابة مسرعاً وجلاً لئلا يتخلف عن الركب.

وأرى سنجاباً يخرجُ من جوفِ شجرةٍ هرمة يحاولُ أن يجمع ما تبقَّى من ثمار على أطرافِ الأغصان أوما تساقطَ منها تحتَ الشجر.

هنا أرى فتية يتسلقونَ السفح بفرحٍ تتعالى ضحكاتهم وهم يتَّجهونَ صوبَ قمةِ الجبل لتسلقه وقد أعدوا لذلك عدته.

وهناك أرى عدداً من الرجال ينحدرون من السفح صوبَ الوادي قد أنهكهم التعب، كلّ واحدٍ منشغلٌ بهمّه وكأنَّ خطواتهم تقودهم إلى المجهول.

عن يميني أرى شباباً في ربيعِ العمر، أجسادهم صلبة تشعُّ نضارة وصحة وقسماتهم حادة وثاقبة. خطواتهم على الأرض مستقيمة تدكُّ الأرضَ دكاً وكأنَّما ربيعُ الطبيعة يمدّهم من عنفوانه ونضارته وبهاءه.

وعن شمالي كهولٌ بدأ الشيبُ يغزو رؤوسهم وقد تركَ الزمن أخاديدَ وتجاعيد على وجوههم وَوَهن العظم منهم وتراخت العضلات فيهم وهم بالكادِ يرفعونَ خطواتهم عن الأرض وكأنَّما خريفُ الطبيعة قد بث فيهم من ضعفه وتراخيه وتداعياته.

هنا ربيع العمر والطبيعة وهناك خريفهما ولكلٍ منها قوانينها وموازينها وتلكَ سنَّـةٌ من سننِ الله في كونه وفي خلقه، ولن تجدَ لسنة الله تبديلاً.

ربيع العمل الصالح وخريفه

العمل الصالح لا ينقطع أبداً إذا كانَ وراءه من يحرِّض عليه ويقوم به، ولكن قد يتبدَّل من طورٍ إلى آخر أو ينزل درجة أو يصعد أخرى تبعاً للحقبة العمرية التي يمر بها الشخص وثراء الفكر والعقيدة الذي يمتلكهما.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده أن سهَّلَ عليهمُ الطاعات وتقبل الأعمال الصالحات، فمن كانَ موفورَ الصحة سليم البنية يصلي قائماً ومن كان به أذى من مرضٍ أو عوقٍ يصلي قاعداً او مستلقياً في فراشهِ فالأصلُ هو صدق وإخلاص النية في التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى عندَ الصلاة، شرطَ أن يكون وضع المتعبد عند الصلاة يعكس حقيقة وضعه الصحي والبدني وليسَ بطراً وتكاسلاً.

والصوم يسقطُ عن المريض وكبير السن الذي لا يقوى على مشاقه فالمريضُ

يقضي عما أفطرَ في مرضهِ والشيخ يفدي عنه. والحج أيضاً لا يوجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً، ويقبلُ الله الصدقات ولو كانت شق تمرة أو كلمة طيبة أو أن تربتَ على رأسٍ يتيم.

ولكن المرء وهوفي مقتبل العمر وربيعه يقدر على أمور يعجزُ عنها بعد حين وبعد أن تدركه الكهولة ويصل إلى خريفِ العمر، فالشاب يمكنهُ المجاهدة وتحمُّل المشقة أكثر ممّا يفعله الكهل والشيخ، ويمكنه المشي في عملِ الخير الذي يتطلب جهداً وقوة وتكون قدمُه أخف وأسرع في ذلك، ويستطيع أن يكثر من الترحال إلى أصقاعٍ بعيدة طلباً للرزقِ الحلال أوسعياً لتحصيلِ العلم ويكونُ بدنهُ أقوى في تحمُّلِ المشاق وذهنه وعقله أصفى في تقبّل العلم والمعرفة واكتساب الخبرات.

وكذلك يكون شأنه في أي سعي دنيوي يريدُ به الخير لأهلهِ وعشيرتهِ وبلدهِ وقومه، وأي تلكأ أوكسل في ذلك كله يعني تعطيل طاقة شابة منتجة وتعطيل هذهِ القوة المنتجة بدون وجه حق يضعُ صاحبها في إطار المسؤولية الأخلاقية لأنه بذلك يهدر ويعطل من طاقة الأمة وهي أحوج ما تكون إليها.

فالأمة تُبنى بسواعدِ شبابها وهممهم العالية.

لذلك أوصانا رسول الهدى (ﷺ) أن نستثمرَ شبابنا قبل هرمنا ونبَّهَنا أنَّ الحق سبحانه وتعالى سيسألنا عن شبابنا فيم أفنيناه فهل يكون جوابنا ساعة إذٍ:

(في طاعتك وفي البرِّ والتقوى والأعمال الصالحات يا رب).

أم تنتكس رؤوسنا وقتها ذلاً وخنوعاً ونحجمُ عن الكلام فينطِقُ الله ألسنتنا ويكون الجواب:

(في اللهو والمعصية والبعد عن منهجك يا رب).

والمؤمن الكيس الفطن لا يستثمر ربيع عمره فقط في طاعةِ الله وفي العمل الذي يدر الخير عليه وعلى أهله وقومه بل يحاول أن يجعل كل عمره ربيعاً فلا يترك منه فسحة أوحيزاً إلا ويملؤه بالطاعةِ والعمل الصالح.

والغريب أن نرى شباباً أصحاءَ تضجُّ أجسادهم بالقوة والنضارة وتراهم لاهين عن ذكر الله وطاعته وعندما تسألهم فيمَ أنتم؟؟ ولم تفرطون صحتكم فيما

لا يرضي الله ولا يجلب لكم خيراً ولا نفعاً ؟؟

يكون ردهم: في العمر متسع وعندما نصل لخريف العمر نلتفت لديننا وقتها ونبدأ بطاعة الله!!

سبحانَ الله، وأنى لهم أن يتيقنوا أن الله سيمدُّ في أعمارهم حتى يصلوا إلى خريف العمر؟؟

ثمَّ إذا كانوا يعلمونَ أنَّ ذكرَ الله وطاعته والعمل الصالح أمورٌ واجبة واستحقاقات لا بدَّ منها بل هيَ أساسُ وجود الخلق فلماذا هذا التلكؤ وهذا الرد الأخرق الذي لا ينم إلا عن جهلٍ وضلالة؟؟

أوَ يريد هؤلاء أنه لوقدِّرَ لأحدهم أن ينظر في صحيفة أعماله بعد حين فلا يرى فيها ما يسره ويبهجه؟؟ فيتذكر منظر الخريف الذي وصفناه فيما سبق من قول فتتكدَّر نفسه وهوَ لا يرى في صحيفتهِ إلا حطاماً أصفر وأعشاشاً فارغة وأشجاراً متهالكات يابسات.

لماذا تتكدَّرُ نفوسنا ونشقى ونحزن إذا وجدنا أنَّ قطار التعلم قد فاتنا وننظرُ حوالينا فنرى أصحابنا وخلاننا قد نالوا شهاداتٍ عليا في هذا المضمارِ أو ذاك بينما نكون قد فرَّطنا في أنفسنا كسَلاً وبطراً ولهواً؟؟

ولماذا نحترق بنارِ الحسدِ والغيرة ونحنُ نرى أقراننا وهم يتسابقونَ في اقتطافِ ثمارِ النجاح واقتناصِ الفرص فيزدادونَ ثراءاً مادياً بينما نكونُ نحنُ في أسفلِ السلم أو في أوطأ درجاتهِ.

ويحدثُ هذا ونحنُ ننظرُ إلى الأمرِ كله بمنظار نفعي دنيوي محض.

ثم لا تذهب انفسنا حسرات عندما نجد تخلفنا عن غيرنا في طاعاتنا وعباداتنا وفي أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر.

حريٌ بنا أن نفهمَ سنَّةَ الحياة فالوقتُ الذي يمضي لا يعود أبداً والعمرُ الذي تتركهُ وراءكَ لا يمكنكَ استرجاعه وتغيير مكاسبهُ ومغانمهُ أومثالبه.

وحري بنا أن نستذكر ربيعَ الطبيعة وربيعَ العمر وخريفَهما وسنةَ الله في ذلكَ كله. في إقبالنا على الطاعة وفي مشينا في مناكبِ الأرض وفي تعاملاتنا في كل أمور الدين والحياة وأن نعطي لكل حقبة من أعمارنا استحقاقاتها من الطاعة والبذل والجهد، فنكون قد استثمرنا أعمارنا خيرَ استثمار وخير العمر ما صرف في سبيلِ الله وفي مرضاتهِ وخيرُ العمل أدومهُ.

٨ - سخاء الكرم الرباني وبخل البشر

الكرم الرباني

الكرم الرباني كرمٌ عظيمٌ طاغٍ لا يمكن أن تتصوَّر لهُ حدوداً أوأن تجدَ لهُ حيّزاً يشغلهُ، وتمتدُّ آثار كرمه سبحانهُ وتعالى في نفسك ومحيطك وهوائك وغذائك وشرابك.

وأعظم دلائل هذا الكرم أنَّ الله كرَّم بني آدم بأن زيَّنهُ بنعمة العقل والتدبُّر، وكرَّمه بأن سخَّرَ لهُ الكون كله بكل مكنوناته وكينوناته وخلائقه ونُظمه وسُننه، وكرَّمه بأن استخلفه في أرضه ليمشي في مناكبها يبني ويعمر ويطور اسلوب حياته ويعبد الله وقلبه مطمئن بالإيمان.

ولكي تدرك حجم هذا التكريم الرباني تخيَّل نفسك وقد تقمَّصت في بهيمةٍ من الأنعام ممن تملكها أنتَ أو يملكها غيرك أو تقمَّصتَ في وحشٍ من وحوش البراري أو شجرة في غابة أو ذرة رمل على ضفاف بحرٍ لُجّي، وكلها مخلوقات الله سبحانهُ وتعالى.

ثمَّ تخيَّل وأنَّك تقمَّصتَ في إحدى هذهِ المخلوقات قد احتفظتَ بأحاسيسك ومشاعركَ الإنسانية.

عندها فقط ستحس بهوانك على نفسك وهوانك على الناس أجمعين.

وأنتَ بهيمة من الأنعام ترى صاحبك لا ينظر إلا لما يجنيهِ منك من نفع فإن كنتَ ثوراً تحرث الأرض ثمَّ تثاقلت خطواتك لهرمكَ وشعرَ أنَّك لم تعد ذا نفعٍ كبير تكون سكّينَهُ قد سارعت إلى رقبتكَ فقطعتها.

ولو كنتَ وحشاً في البراري لوجدتَ نفسكَ في محيطِ الموت وأتونه في كلِّ لحظة مُطارِداً أومُطارَداً ويومَ تنكسر قائمتكَ أوتقع في حفرة فإنّكَ لن تجِدَ أحداً يمدُّ يدهُ إليك لينقذك أو يهتم لألمك وأنتَ تتضوَّر جوعاً أوتنزف دماً حتى

الموت، بل تأتيكَ الضواري من كلٍّ حدبٍ وصوبٍ تنهشُ لحمكَ غيرَ آبهةٍ بألمكَ وعذابك، فتقول في سرِّك لوكنتُ بشراً سوياً لهرعَ إليَّ الأحبّةُ والخلان ينقذونني من محنتي ومصيبتي.

ولو كنتَ شجرةً في غابة فإنَّكَ لا تدري متى يأتيكَ حَطّاب أخرق فيعمل فأسهُ فيكَ فيُسقطكَ من علياءك جذعاً ممدداً في أرضِ الغابة ثمَّ يعمدُ إلى أغصانك وساقك فيقطعها إرباً إرباً.

أو يأتي صبيةٌ أشقياء فيضرمونَ النارَ تحتك فلا تملك لهم دفعاً ولا تملك منهم مهرباً وتشبُ النار فيك فلا تتركك إلا جذعاً أجوفاً يريدُ أن ينقض، فتتذكر يومَ كنتَ بشراً كيفَ كان أهلك ومحبُّوك يركضونَ إليكَ في كل محنة فيحوِّطوكَ بحنانهم وعطفهم ويدفعونَ عنكَ غوائل الدهر ويخففونَ عليكَ مصائبه.

ولوكنتَ ذرة رمل على ضفاف بحر، لمرَّت عليكَ آلاف السنين وأنتَ كما أنت تدوسكَ الأقدام ويلطمك موج البحر فيقذفكَ هنا وهناك دونَ أن تجد من يؤنسك في وحدتكَ ويخفف عليكَ وحشتَك كما كانَ يفعل خلانك يومَ كنت بشراً.

عندئذ فقط تحسُّ بالكرم الرباني عليك بأن جعلك بشراً سوياً تفكر وتزن الأمور بموازين العقل والمنطق الذي وَهبكَ اللهُ إيَّاه، فها أنت تحسُّ وتشعر بمن حولك تحبهم ويحبونك وتعطف عليهم وتسعى قدمك إلى الخير وتمتد يدك لتساند الأيادي الممتدة أيضاً مثل يدك لتعمر الأرض وتبنيها وأنتَ تعلم أنَّ اليد الواحدة وحدها لا تبني شيئاً. وتعمل عقلك في كسب العلم والمعرفة حتى تصل المدارج العليا والمنازل الرفيعة ولا ترضى أن تكون في الدرجات السفلى منها وأنتَ تستشعر بذلك قول رسول الله وحبيبهُ (ﷺ):

اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى رواه الخمسة إلا أبو داود.

وتجد أهلك وأولادك وإخوانك وبني قومك وقد جمعتك بهم رؤى وأحلام وأفكار مشتركة وتحس أنَّ عليك واجباً تجاههم جميعاً وتجاه بلدك الذي أنجَبكَ فتكون على رأس النفيضة في كل جهد مبارك يدر خيراً على قومك وبلدك.

وليسَ محض الصُدفة أنَّكَ وجدتَ نفسكَ إنساناً عاقلاً سوياً متدبراً ولم تكن

ثوراً يحرث الأرض أو عقاباً يأكل جِيَف الحيوانات في الفلاة، بل هوَ الكرم الرباني الذي أنزلكَ هذهِ المنزلة الراقية التي لا تدانيها أيَّة منزلة بينَ مخلوقاته كلها وهوَ الذي صوَّرك فأحسنَ صورتك.

وبعدها يكون خيارك أنتَ أن تحتفظ بهذهِ المنزلة وترتقي صعوداً في مدارج الرقي الإنساني بإيمانك بخالقك وشكرك لهُ على كرمه ونعمهِ عليك والانقياد الكامل لأوامرهِ ونواهيه، أو تهبط من هذهِ المنزلة الكريمة الرفيعة إلى ما دون منازل البهائم بكفرك وجحودك وركوبك هوى نفسك وتعطيل عقلك ومداركك.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

ومن كرم الله سبحانهُ وتعالى على البشر أن بثَّ فيهم قبَسات من فيضِ بعضِ صفاته كالرحمة والعدل والكرم والحكمة والعفو واللطف والرأفة والمغفرة والصبر.

لأنَّ الحياة لا تستقيم إلا أن تجدَ هذه الصفات سبيلها إلى سلوكهم وتحتل موقعها في حياة أسرهم ومجتمعاتهم.

ومن كرم الله سبحانهُ وتعالى على البشر أيضاً أنَّ الله يكتب لمن يتَّصف بهذهِ الصفات في سلوكهِ وتعاملهِ معَ أهلهِ وجيرانهِ وذوي قرباه والناس أجمعين ثواباً بذلك ويبلغ هذا الثواب شأواً عظيماً كلما وصلت هذهِ الصفات مَدَياتٍ أعلى وأرقى في سلوكِ المسلم.

فما أعظمكَ من ربٍ كريم ياالله، ها أنتَ تُثيب من يكونُ رحيماً بعيالهِ لطيفا معهم ومن كانَ عادلاً في حكمهِ وكريماً في عطاءهِ وحكيماً في قرارهِ وعفوَّاً عندَ غضبهِ ومقدرتهِ ورؤوفاً باليتامى والمساكين وغفوراً لمن يسيء في حقهِ وصبوراً عندَ محنتهِ ومصيبته.

يا رب أنتَ من بثَّ فينا هذهِ الصفات وتريدنا أن نعطيها كل حظها في التطبيق وتثيبنا على ذلك وهذا هوَ الكرم الرباني يا من سمَّيتَ نفسكَ (الكريم).

الكرم والبخل عندَ البشر

المؤمن الذي يدرك عظَمة خالقه ويفقه كُنه مشيئته في خلقه، يَتَرسَّخُ في يقينه ووجدانه أنَّ ما بهِ من نعمة وما يصيبُ من نجاحٍ وما يُبَصَّر بعلمٍ ومعرفة وحكمة وما يؤتى من أرضٍ ومالٍ ويُرزق من ولدٍ لا يكونُ إلا بمشيئةِ الله وبفضلهِ وكرمه.

والمؤمنُ الكيِّسُ الفطن وهوَ يدرك كل هذا تكون يدهُ مبذولة بالعطاء ولسانه ناطقاً بالدعوة إلى الله والنصيحة لعباده والشكر والحمد لربه.

ويدرك المؤمن أيضاً أنَّ بذل العطاء الرباني لهُ أو منعه وقبضهُ لا يكون إلا ابتلاءاً وامتحاناً إلهياً وقد أفلحَ من وعى الدرس وأجتازَ الاختبار وخابَ من جَحدَ وأنكر فأعرض.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٥ـ ٢٠].

نعم إنَّ المرء مالم يكن قلبهُ وجوارحهُ كلها تنبض بالإيمان فإنهُ لا يجد في بذلِ العطاء الرباني أو قبضهُ ابتلاءاً، فها هوَ يظنُّ أنَّ الله وقد أكرمهُ وأسبغَ عليهِ نعمهُ إنما هوَ استحقَّ الكرم الرباني عن جدارة وليست منةً وعطاءاً من الله.

وها هو يظن أيضاً أنَّ الله وقد قبضَ عنهُ نِعَمهُ وقدَّرَ عليه رزقه فقد أهانَهُ بدون وجه حق.

وهذا الظن يورد صاحبهُ موارد الهلاك ويدخله في دائرة الشرك. فليسَ لمخلوق أن يصفَ فعل الله بغير وصفهِ ويضعهُ في غير موضعه.

ويكون الرد الإلهي على صاحب الظن هذا: أنَّ ما أصابك ليسَ إلا من جنس عملك فأنتَ لم تقدِّر كرمَ الله وفضلهُ عليك عندما أجزلَ لكَ العطاء والنعم بل أصبحت عبداً للمال الذي وهبك الله إياه، تحبه حباً جماً أكثر من حبك لله سبحانه وتعالى فما أكرمتَ يتيماً ولا أطعمتَ مسكيناً.

انظر ثانية إلى كرم الله وسخاءه مع عباده فمن بذل ماله في سبيل الله فيكرم

يتيماً أو مسكيناً أو يجهز غازياً أو يعاون طالب علم أو يعمر بيتاً من بيوت الله أو يجري صدقه دائمة فإن الله يحتسب المال المبذول كقرضة حسنة من العبد فيرده مضاعفاً يوم القيامة وفوق ذلك يعطيه أجراً كريماً حسناً.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨].

والمؤمن ينظر إلى الأمر هكذا:

الله هوالذي خلقه وهوالذي بث فيه صفة الكرم ويريده أن يستخدم هذه الصفة لأقصى مدياتها وهوَ الذي آتاهُ المال من فضلهِ وهوَ الذي حثهُ على إنفاقه في سبيله على أهلهِ ووالديه وذوي قرباه وعلى اليتيم والمسكين وابن السبيل وعلى جارهِ وعلى الفقير الذي لا يسأل الناس تعففاً وأن يجري بهِ صدقة دائمة. ثمَّ يثيبه الله على ذلك إن فعل ويعطيه فوقَ ذلك أجراً كريما.

فمن يقبض يدهُ عن الإنفاق بعدَ ذلك لا يكون إلا بخيلاً والبخيل لا يكونُ إلا عدواً لله.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . . . بأن منعَ عنها ثوابَ الله وأجره الكريم ببخله وعدم إنفاقه، وهوَ سيترك هذا المال لا محال لورثته أو يخسره قبلَ مماته.

والوَرثة يكونون هم مؤتمنون على نصيبهم من هذا الميراث ومسائلون عنهُ يومَ القيامة ولا يصل للمرء خيرُ مالهِ إلا ما أنفقهُ في حياته أو أجراهُ صدَقة دائمة قبلَ موته.

وأشدُّ البخل وأبغضه أنَّكَ وقد كتمتَ ما آتاكَ اللهُ من فضلهِ فبخلتَ به وكنزته ذهباً وفضة وعقارات، أن لا تقر عينك ولا تطيب نفسك أن تجدَ رجلاً كريماً إلى جوارك فلا تنفك تدعوهُ إلى البخل وتزيِّنَ في عينهِ المال حتى تجعلهُ بخيلاً مثلك.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

اللهم ربِّي ما أعظمك، ونحنُ نقرأ قرآنك أوندرس سنة نبيك نجد في كلِّ وقت وحين أمثلة حية لما ذكرتهُ في كتابك.

إنها النفس البشرية الأمَّارة بالسوء - وعلى مرِّ الأزمنة والعصور - التي تحض صاحبها على الإتيان بما لا يرضى عنهُ الله ورسوله فمنَ الناس من يضعف أمامَ ضغط النفس الأمَّارة فيسقط في وحل المعصية والجحود والإنكار ومنهم من يقاوم ويصد عنها فينجو إلى رحمة من الله وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدَّت للمتقين.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾ [التوبة: ٧٥_ ٧٧].

إنَّهُ الابتلاءُ الرباني: ها قد أوتيتَ سؤلكَ وآتاكَ اللهُ من فضلهِ ففيمَ جحودكَ وإعراضك وبخلك وفيمَ تنكّركَ لعهدكَ الذي قطعتهُ لله، فجزائك اليومَ بما أخلفت الله ما وعدته نفاقاً يتشرَّب بهِ قلبك وتصطبغ بهِ أفعالك إلى يوم الدين.

ومنَ الناس من يظن أنَّهُ إذا زكى ماله وأمسكَ يدهُ فيما عدا ذلك فإنهُ يُكتب عندَ اللهِ كريماً وتسقط عنهُ صفة البخل، أوَ لا يعلم هذا أنَّ الزكاة فرضٌ رباني ونصيبٌ معلوم من أموالهِ. أوَ لا يعلم أنَّ من يمنع أو يمتنع عن إخراجه يصبحُ خارجَ ملة الإسلام.

والكرم هوَ غيرُ ذلك، هوَ ما تنفقهُ طوعاً في سبيلِ الله وحسب التوجيه الرباني لك مثلَ ما سبق.

ومنَ الناس من يعمرُ بيتاً من بيوتِ الله ويكثرُ من الإنفاقِ فيه وجاهةً للدنيا

وزينتها ويكونُ بخيلاً معَ أهلهِ وذوي قرباه حتى يقالَ بعدَ ذلك هذا مسجدُ فلان.

ولا يكونُ عملهُ خالصاً لوجه الله تعالى ولا نقيًّاً من الشبهة والتفاخر والرياء، فيكونُ ثوابه من هذا الذي يظنهُ كرماً، هذهِ الوجاهة الزائلة التي يصيبها في الدنيا ولا يكونُ لهُ حظٌ من ثواب في الآخرة.

فالكرمُ الحقيقي هوَ الذي لا يخالطه رياء بل يكون خالصاً نقيًّاً صادقاً لوجه الله تعالى، وخيرُ الكرم والصدقات ما خفيَ منها.

كلماتٌ خجلى في رثاءِ فتاةٍ نذرَت حياتها للقرآن.. فكانَ موتها عرساً ملائكياً....

٩ - عُرسُكِ كانَ ملائكياً يا جرا.....

انفطرَت صفحةُ السماء في الأفقِ البعيد شرقَ العمادية وهبَطتْ مِنها ألوفٌ مؤلفة من ملائكةِ الرحمة أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورُباع بعددِ حروفِ القرآن التي خَزنْتِ كلماته ومعانيه في قلبكِ يا (جرا) وبعددِ المرات التي وردتِ فيها هذهِ الكلمات. وما هيَ إلا هنيهات حتى غصَّتِ الجبالُ والوديان والأفقُ كله باللونِ الملائكي ناصع البياض وامتدَّ الزحفُ المبارك هذا إلى تخوم "سواره توكا" حيثُ سيستقبلُ موكبَ عرسٍ مبارك من هناك.

سدت الآفاقُ كلها أمامَ الحركةِ غيرِ المرئية وأصبحت جموعُ الملائكة تستقرُ في أماكنها المقررة لها وأطبقَ سكونٌ مطلق على الآفاق كلها بانتظار موكبِ العرس.

حتى لاحَ موكبُ عرسكِ يا (جرا) وأخذَتِ السيارةُ الصغيرة تتهادى صعوداً نحوَ "سواره توكا" وفي نقطةٍ محددة ولحظةٍ بعينها اختارتها مشيئة الله حصلَ التصادمُ المريع.

في تلكَ اللحظة انقسمَ المشهد إلى صورتين، الأولى دنيوية والثانية أخروية.

الصورة الأولى: صورةٌ حزينة أليمة قاسية على كلِّ قلب. جسدك الطاهر مرمي عندَ السفح بفعلِ الصدمة، وجهُكِ الجميل ممرغٌ بالتراب لا يجدُ من يسعفه أو يوقِفُ الدمَ الطاهرَ النازف منه.

اللهُ وحدَه يعلم كم مررتِ بلحظاتٍ صعبة وأنتِ -إضافة إلى آلامك- ترينَ شقيقتك محشورة داخلَ السيارة تلفظ أنفاسها المباركةَ الأخيرة وترينَ في المقعد الخلفي عصافيرَ الجنة الأربعة أحدُها يوشكُ أن يطير والثلاثة الأخرى قد تكسَّرت أجنحَتها وهيَ الأخرى محشورة في السيارة التي تحطمت أيَّما تحطيم.

لا بدَّ أنه مرَّت عليكِ وكلمحِ البصر مشهد الإسعاف الذي يجب أن يتوفر في هكذا لحظات من خلالِ ما تعلمتِهِ من مهنةِ الطب وربَّما تمنيتِ لوكنتِ صاحيةً

وفي وعيك ربما استطعت أن تفعلي شيئاً لشقيقتكِ وصغارها.

تستمرُ الصورة هذهِ مع عمليةِ الإنقاذ التي تمَّت وتمتدُ الى المستشفى في دهوك وانتشار الخبر والشعور بالصدمة الأليمة لكلٍّ من سمعَ الخبر من أصدقاءك وأقرباءك ومُحبيك.

الصورة الثانية: ملائكة الرحمة قد هيَّأتْ لكِ هودجاً من نور وهيَّأت آخر لشقيقتكِ وطفلها ومظاهر البشر والفرح باديةٌ عليها، تتهيأ مجموعة لتحمل هودجَكِ على أجنحتها ومجموعةٌ أخرى تنشر عطورَ الجنة في الآفاق.

اليومُ يومُ عرسكِ يا جرا فهنيئاً لكِ هذا العرس الملائكي.

هوذا هودجُ النور محمَّلٌ على أجنحةِ ملائكةٍ كرام برَرَة ترفعهُ نحوَ السماء وقبلَ أن تنطلقَ بهِ إلى أعلى عليين في مقعدِ صدقٍ عندَ مَليكٍ مقتدر، يُطافُ بهِ في أروقةِ مستشفى "آزادي" وفي مدارجِ قاعاتِ التدريس وقاعاتِ التشريح في كليةِ الطب وفي القسم الداخلي الذي كنتِ تسكنين وغيرها من مناطقِ وشوارع "دهوك" لكي تودِّع روحك كلَّ الأشخاص والأماكن الحبيبة إلى قلبك.

يعودُ موكب عرسك ليطير في الفضاء بينَ "دهوك" و"العمادية". وتضجُّ كلُّ الأشجار والصخور والجبالِ بالبكاءِ خلفَ موكبك فرحاً بهذا التكريم الإلهي لكِ وحزناً لفراقكِ وحرمانها من وجودك.

يصلُ موكبك إلى أجواء العمادية في اللحظة التي يصل فيها نعشُكِ وترينَ أباكِ وأمك وأخوتك وأخواتك والمقربين إليك كيفَ قد هدَّهمُ الحزن وعَصرَهمُ الألم لفقدكِ وترينَ عيونَهم لا تنفكُّ تهطلُ بالدمع، ولكن تقرُّ عينك لأنك لا تجدينَ ما يغضِبُ الله من شقٍّ للجيوب ولطمٍ للخدود أو النواح.

لوقدِّرَ لكِ لحظتها أن تتكلمي لقلتِ لهم:

ما بالكم؟؟ ولمَ أنتم محزونونَ ومكتئبون؟؟ ألا ترونَ أنه يومُ عرسي؟؟ ألا ترون موكبي وهودج النور الذي أركبه؟؟

ثم تنادين: أبتاه أمي الحبيبة أشقائي شقيقاتي أعزتي وأحبتي أستودعكمُ اللهَ وأستودعُ عندَه دينكم وإيمانكم وأطلبُ منكم جميعاً الصفح والغفران.

وفي اللحظة التي يُوَارى فيها جثمانكِ الطاهر الثرى في "ميرسته كى" ينطلقُ موكبُ عرسك الملائكي صعوداً إلى السماء.

هناكَ في أعلى عليين ستكونينَ ضيفةً كريمةً على الصفوةِ المختارةِ من نساءِ العالمين. ستلتقينَ بمريم العذراء وفاطمة الزهراء والمئات الأخريات من النساءِ الخالدات.

هكذا تخَيَّلتُ أن يكونَ موكبَ عرسكِ يا جرا وهكذا أحسبُك عندَ الله سبحانه وتعالى إن شاء الله.

أذكر يا جرا أنني يومَ تلقَّيتُ نبأ نجاحكِ الباهر في المرحلةِ الإعدادية ووقتها كنتِ خارجَ كوردستان أرسلتُ لكِ رسالة وبدأتها بـ " إلى فخر العشيرة جرا... "

والآن وأنا أكتبُ هذه الكلمات المرتبكة الخجلى في حقك، أشعر أنني غبنتك يومها، ولوكنتُ أعرفك وقتها كما أعرفك الآن لخاطبتكِ يا فخرَ العمادية أو يا فخرَ بهدينان بل يا فخرَ كوردستان.

أنتِ يا جرا حطمتِ تصورين خاطئين لدى الكثيرِ منَ الناس.

الأوَّل: أنَّ التفوق العلمي لهُ شروطه وأدواتهُ من أساتذةٍ أكفاءَ ومدارسَ عصرية وانتظام في الدوام ومراقبة كفوءة من الجهات التربوية ومنَ الأسرة. ولم يتوفر لكِ أي من ذلك فكنتِ في مدرسةٍ تعاني من صعوباتٍ في كلٍّ شيء بسببِ الحصار المزدوج المفروض على كوردستان يومَها، مدرسةٍ لم يستكمل ملاكها التدريسي بانتظام، تعاني من صعوباتٍ جمَّة في توفيرِ الكتب والمقررات ووسائلِ التدفئة والتبريد وفي إكمال المناهج المقررة نتيجة لكلٍّ ذلك. فكانَ تفوقك تفوقاً ذاتياً نابعاً من تصميمك على النجاح وتحقيقِ الهدف الذي رسمتهِ لحياتك.

والثاني: أنَّهُ لايمكن الجمع بينَ منهجين في الحياة والتفوق في كليهما وفي آن واحد. فكانَ أن تفوقت في حفظِ كتابِ الله عن ظهرِ قلب وتفوقتِ في الدراسة الإعدادية وتفوقتِ في دراسةِ الطب. جمعتِ بينَ قاعاتِ التدريس والتشريح والمنهجِ المرهق لكليةِ الطب وبينَ المحافظة على كتابِ الله حفظاً

وتطبيقاً ومنهجاً للحياة.

وأطّرْتِ كلَّ ذلك بدماثةِ خلقٍ وفصاحةِ لسان وكريمِ خصال.

لذلكَ كانَ فقدُكِ قاسياً ومؤلماً لكلٍّ من عرفك عن كثب.

سيولدُ ربيعٌ جديد بدونكِ يا جرا..

وستزهو الجبالُ بالخضرة وتعبقُ السفوح والوديان بعبيرِ النرجس، وتطلُّ ورود "الكل شلير" برؤوسِها في قمة " بشيش" و"سه رى آميديى" و" كاره" وتتدفقُ عشراتُ الينابيع الربيعية في سفوحِها.

وعندما يحينُ موعدُ السفرات ويذهبُ زملاءك وزميلاتك في الكلية أو أحباءكِ من دهوك والعمادية إلى تلكَ الأماكن سيحسون بغيابكِ عندَ كلٍّ منعطفٍ وشجرةٍ وصخرة ويكونُ طيفكِ الجميل حاضراً أمامهم خطوةً بخطوة.

ولوقُدِّرَ للأشجار والورود والجبالِ والينابيع أن تتكلم لسألتهم عنك:أينَ الفتاة الصالحة التقية ؟؟ أينَ **جرا** ؟؟

وسيلفها الحزنُ العميق عندما تعرف من نظراتهم الحزينة ومن مآقيهم الملأى بالدموع أنكِ قد رَحلتِ.

انطفأ نوركِ الأرضي يا جرا...

ولكن: " كحبةِ قمح أنبَتَت سبعَ سنابل في كلِّ سنبلةٍ مائة حبة" فإن تلميذاتك ورفيقاتك والمقربون إليك وكلُّ من تأثر بسيرتكِ العطرة سيشعلونَ ألف "**جرا**" من بعدكِ ليظلَّ نورك الأرضي سرمدياً إلى يومَ القيامة.

وأيضاً:

كلماتُ النور من كتابِ الله التي ما انفكيت ترددينَها آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار تعليماً أو ورداً أو تلاوة، أصبَحت قناديلَ من نورٍ سماوي شكلت غيمةَ نورٍ في السماءِ دائمةِ الوجود إلى يومِ الدين ترسِلُ السكينة الى قلوبِ محبيك وأصبحت رمزاً للاقتداء بسيرتكِ العطرة النقية.

جرا : فتاة كوردية كانت في أوائل العشرينات من عمرها، وكانت في المرحلة الرابعة في كليةالطب-جامعة دهوك.

العمادية: مدينة جبلية صغيرة في إقليم كوردستان العراق من أعمال محافظة دهوك.

مستشفى آزادي: مستشفى تعليمي في دهوك.

سواره توكا: مصيف صغير في الطريق الجبلي بين دهوك والعمادية حيث قضت جرا نحبها في حادث مروع مع شقيقتها(سحر) البالغة من العمر ثلاثون عاما التي كانت تقود عربتها في الطريق الجبلي وإلى جوارها جرا وفي المقعد الخلفي ابنها الذي مات أيضاً في الحادث وبناتها الثلاثة اللائي تعرضن لكسور جمة.

ميرسته كي: مدافن مدينة العمادية.

كل شلير: ورد ربيعي ينبت في قمم جبال كوردستان.

بشيش، سه ري آميديي: جبال تحيط بالعمادية.

١٠- قارون موسى وقارون لكل

الخطاب القُرآني المُبين خِطابٌ لا يَأتيه الباطل من بَين يديه ولا عَنْ شِماله أو يَمينه، لأنّه خِطاب رَبّ العزّة خالق الكون علّام الغيوب للبشر.

والقصَصُ التي أوردَها الله سبحانَه تعالى في قُرآن لِيكونَ دستورا ومنهَجاً للحياة لا يمكن أن تكون شخوصها مُرتبطة بتلكُمُ القصص لَيْسَ الّا وفي الزّمانِ الذي وقعت فيه فحسب بحيث ينقطع تَأثيرها بِموت أصْحابها أو انتهاء أزَمانهم، لذلكَ عِندما نقرأ القصة القُرآنية فحالها حال أية قصة أخرى سمعناها أو قرأناها في الحياة نتفاعل مع شخوصها وأحداثها ونتأثر بالقدرِ الذي نتعاطف مع الشخوص أو الحدث ويمكن أنْ يتباين هذا التأثير من قارئ الى آخر تأسيساً على ذلك.

كَلّا وحاشى لله أنْ يُنَزِّلَ كتاباً من فَوْق سَبْع سَماوات لِتَحْوي قِصَصَاً وروايات للقراءة والتسلية.

القرآن العظيم زاخِرٌ بقِصص الأنبياء والأقوام السابقة. وفي الحقيقة أن صفحات هذا الكتاب السماوي يَحوي كُنوزاً لا تَنْضب من الأمثالِ والحِكَم والقصص التي أوردها الله تعالى لِتُعطينا فهما أدق لرسالتنا في الحياة ومسيرة الانسان على وجه البسيطة منذ بدأ الخليقة الى مبعث نبي الرحمة (ﷺ) والى أن تقوم الساعة.

اراد الله لِقُرآنه أن يكون كتابا للحياة بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: **العصور....**

اللهُ هو خالقُ النَّفس البشرية وهوالذي بَثَّ فيها الغَرائز والعواطِف وزيَّنها بالعقل والمنطق وهداها النجدين. لذلك فان هذه الفطرة الانسانية والغرائز والعواطف لا تتغير باختلاف الزمان والمكان.

فالشَّهوات هي عينها وحب المال والأولاد هي ذاتها والبغض والكره والحب والعطف والوفاء والنفاق والرياء والكبرياء . . . الخ لم تتغير طبيعتها مُنذ أوَّلِ الخَليقة وتبقى كما هي الى قيام الساعة.

لذلك أوصانا الله سبحانه وتعالى أن نَعْتَبِرَ من القَصَصِ والأمْثال التي أوْرَدَها في كِتابه العَزيزْ .

ولوكانت النفس البشرية تَخْتَلِف باختلاف العصور وتَتَطَوَّرُ كما تَتَطَوَّرُ التقنيات والعلوم التي تستخدمها لما صَحَّتْ هذه القصَصْ والأمثال أن تكون عبرة ودروساً للأجيالِ المتعاقبة.

صَوَّرَ لنا القرآن الكريم قصة قارون في سورة القَصَصْ (الآيات ٧٦_ ٨٣)

وتَحكي القصة أنَّ قارون كان رَجُلاً من قوم مُوسى وقدْ فَتحَ الله عليه أبوابَ الرِّزق على مَصاريعها حتى تَكوَّنت لديه ثروة طائلة حَرَصَ على جمعها وتكنيزها في خزائن مقفلة وكان يتفاخر بالعُصْبةِ التي حوله التي أوْكَلَ اليها حَمْل مفاتح خزائنهِ.

استكبر قارون وبَغى على قومه ظَناً مِنه أنَّ مالَهُ وجاهَهُ الدُّنيوي يُعطيانِهِ الخُلود في الأرض والحَقَّ في التَعالي على قومه، وكانَ فَرِحاً مُتباهياً بما جَمَعَه في خزائنه.

نَصَحَهُ أهلُ العلم والحِكْمة من قومهِ:

يا قارون اتَّقِ الله ولا تَفْرح بِمالكَ فَالله لا يُحبُّ من يَحْجُبُ حُبَّ المالِ عن قلبهِ وناظرَيه حُبَّ الله وحُبَّ الخير اجْعَلْ منْ نِعْمَةِ الله عليك وَسيلة تُحَقِّقُ بها خيرا لآخرتك وَتَمَتَّعْ بِمالكَ في دُنياك في الأوْجُهِ التي لا تَجْلِبُ غَضَبَ الرَّب.

قابل فَضْل الله واحسانه عليك بالإحسانِ الى النَّاس ولا تُقابل هذا الفضل بالإنكار والجُحود والفَساد.

ولكِنْ لأنَّ شَهوة جَمْع المال قَدْ أعمَتْ بَصيرته أنكرَ فَضلَ اللهِ في إغداق هذه الثَّروة عليهِ وأخَذَتهُ العِزَّةُ بالإثم فتصوَّرَ أن نُموَّ ثروتِهِ إنْ هي إلّا نِتاجُ عِلْمِهِ وَحُسْنِ تَدبيرِهِ وإدارَتِهِ وإلا فَلِماذا لَمْ يُؤْتَ أحَدٌ من قومِه مثل ما أوتِيَ هُو.

لَمْ يَدرْ بِخُلدِهِ أنَّ الله قدْ أهْلَكَ من الأقوام والقُرون التي سَبَقتْه رجالاً جمَعوا من المال أكثر مما جمع وامتلكوا من الجاه والقوة أعْظَمَ مما يملك فأين هُمُ الآن؟؟ وأينَ سَطوتهم وقُوَّتُهم؟؟ أينَ خزائِنهم؟؟

كان الغُرور والكِبرياء والخُيَلاءُ رداءَ قارون، فَخَرَجَ على قَوْمِه في أبْهَى وأعْظم مراسيمِ الزِّينة تحومُ حَوْلَه حاشِيَتُهُ من المنتفِعين والمُتَمَلِّقين وعَبَدَةُ المال، ومن الغلمان وَالخدم.

كان مَوْكبه مَهيباً عَظيماً يَتَدافع النّاس لكي يَرَوْهُ وَيَرَوْا النَّعيم الذي هو فيه.

مَظاهِر الزِّينة والبذخ التي ظهر بها قارون في موكبه جَعَلَتْ طائفة من النَّاس مِمَّنْ تُؤْثِرُ دُنياها على آخرتها تَفتَتِنُ بما وَجَدَتْ عند قارون فتمنَّت أن تؤتى مثل ما أوتي. (لا شك أنه ذو حظٍ عظيم!! ويا ليتنا نملكُ ما يملكُ قارون).

رَدَّ عليهم أهْلُ العِلم والحِكْمةِ والإيمان من قَومِهم : وَيْحَكُمْ أتتَمَنَّوْنَ شيئاً زائلاً لا يدوم؟؟. أتَجْعَلونَ مَبْلَغَ طَلَبِكُمْ ومُنتهى مُرادكم أن يكون لكم مِثل ما لِقَارون؟؟ قارون هذا الذي أعماه المال عن شكر ربه فَبَغى وَفَسَق وَفَسدْ!! ماذا لوتَمَنَيْتُمُ أن يُتِمَّ الله نِعْمَتَهُ عليكم فيكمل ايمانكم ويرزقكم العمل الصالح في الدنيا وَيثُوبَكُمْ عنه في الآخرة مَغفِرَةً ونعيماً لا يَنْضَبُ ولا يزول في جنة عَرْضُها السَّماواتُ والأرض.

أراد الله أن يُخَلِّدَ ذِكْرَ قارونَ عِبرَ العُصور مَثلاً لِمَنْ آتاه الله المالَ والكُنوز والثَّرْوةِ الطائِلة ولكنّه بَدَلَ أنْ يَشْكُرَ الله على نَعْمائِهِ وجُوده وكَرَمِهِ وَبَدَلَ أن ينْفِقَ هذا المالَ في مَرْضاةِ الله، تَكَبَّرَ وَعَلا في الأرْض وَبَغَى على قَوْمِهِ وأنكرَ فَضْلَ الله عليه وسَلَكَ طريقَ الفساد.

استَيْقَظَ أهلُ المدينةِ علَى أمْرٍ عَظيم.

لَقَدْ خَسَفَ الله بِقارون وَقصوره وخزائِنِه وحاشِيَتهِ.

قارون وكل ما يَمْلِكُ من عزٍ وجاهٍ وأموال وزِينةٍ مِمَّا كانَ يَتَفاخَرُ به على النّاس خُسِفَ به وأصْبَح أثراً بعدَ عَينْ.

كان بمقدورِ الله سبحانه وتعالى وهوالقادر على كلّ شيء أن يُهلِكَ قارون وحاشِيَتَهُ فَقَطْ هلاكاً عادياً، أويُهْلِكَ ما جَمعَ من مالٍ وكنوزٍ ويُبْقي على قارون فَيَخسِرَ ما كان يدعوه للبغي والطغيان.

ولكن عندها قد يَتَعاطف معه بَعْضُ قومه ويقولون (ارحموا عزيز قوم ذل) إذا هلك ماله.

أو يُبقي قارون رمزاً لِرَجُلٍ عَظيمٍ كانت له كنوز ومقام كريم إذا هلكَ هوَ وبقيت خزائنه.

لكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك.

خَسَفَ به وبدَارِهِ لِيُدْفَنَ هو مَعَ ما جَمَعَ في أعْماقِ الأرضِ حتى يَكونَ العِقابُ الإلهي واضِحاً وصارماً لِقارونِ مُوسَى ولكلِّ (قارون) يأتي من بعده.

تقاطَرَ القوم من أرجاء المدينة ليجدوا أنَّهُ خُسِفَ بقَارونَ وبِدارِهِ فَقَطْ وأن الخَسْفَ شَديدٌ مِمَّا لم يَعهَدوه من قبْلُ.

فتيقّنوا أنه انتقام إلهي محض.

أصاب الذعرُ والهَلعُ الطائفة التي تَمنَّت بالأمسِ أن تُؤتى مِثْل ما أوتِيَ قارون بعد أن رَأَتْ ما فعلَ الغَضَبُ الإلهيُ بِهِ.

وَتَيَقَّنَتْ أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ وَقَبْضِهِ هو تقديرٌ إلهيٌ مَحْض، وأنَّ مَن يَكْفُرُ باللهِ وَأنْعُمِهِ وَيَبْغِي الفَسَادَ في الأرْضِ لَنْ يَجِدَ الفلاح، واستَدْرَكَتْ أنَّ الله قد مَنَّ عليها إذْ لم يَخْسِفَ بها مَعَ من تَمَنَّت أن تكونَ في مَقامِهِ.

وَيَخْتِمُ الله قِصّة قارون موسى ببلاغٍ قُرآنِي مُبين تُوجِزُ حُكْماً إلهياً يَقْضي بَينَ النّاس الى يوم القيامة.

تِلكَ الدّار الآخِرَةُ نَجْعَلها للذين لا يُريدون عُلُواً في الأرْضِ ولا فَساداً والعاقِبَةُ للمُتَقّين .

كَمْ أنْجَبَتِ الأرْضُ رجالاً مثْلَ قارون في العُصور التي تَلَتْ من بَعدِه وكم ستنجِب الى يوم القيامة؟؟؟

رِجالاً سَلَكوا ويَسلكونَ نَهجَ قارون في حُبِّهِ للمالِ وتَفَاخُرِهِ على قومه وفي

فَسادِهِ، ويعزونَ النعمة التي أنعمها الله عليهم الى أنفسهم وحِكمتهم وحُسْنِ تدبيرهم، فيطغون بدل أن يشكروا الله.

لوقُدِّرَ لنا أن نرصد سلوك هؤلاء لوجدنا تطابقاً كبيراً لسيرتهم يكاد يصل الى حد التكرار لسيرة قارون التي أوجبت غضب الله.

إلّا أن الله خَسَفَ بقارونَ وبدارِهِ ليَكونَ آيةً مِنْ آياتِهِ في خَلْقه وَلِتَكُونَ حادثَةَ الخَسْفِ تَذكِرَةً لِكُلٍّ مَن يَقْتَدِي بقارون أو يَهْتديَ بِهَديهِ ويكونَ الحُكم الإلهي آنِفَ الذِّكر هو الفَيْصَل والحَكَمُ لِيَومِ الدين.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣].

اللهُمَ نَسألكَ رزقاً كَريماً طيباً يُقَرِّبُنا مِنْكَ ثم بارك لنا فيه.

وَنسألك أنْ تُجري المالَ في أيدينا وَتَرْزُقَنا كَرَمَ الإحسانِ وَشَرفَ التصدق بمالك. ونَعوذُ بك من سطوة المال والولد.

ونعوذ بك من أن يَدْخُل حُبَّ الدنيا الى قلوبِنا فَنَركُض فيها ركْضَ الوُحوش ثم لا يَكون لنا الا ما قدَّرْته لنا. والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وأكرمهم خصالاً نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبه وسلم.

١١ - قالَ حكيمُ الطير...

الوقتُ خريفٌ متأخِّر وقد هبَّت الرياحُ الباردة التي تنذر بشتاءٍ قارص قاسي فتهيَّأت الطيور المهاجرة لرحلتها السنوية المعتادة باتجاه الشرق حيث الدفئ والموطن البديل.

إلتأمت الطيور في مجاميع متناسقة وقد هُيِّئ لكل مجموعة من يقودها أو ينسق طيرانها أو يشرح للجيل الجديد من الطير معالم الطريق ومسالك الطيران.

مع تباشير الفجر الأولى انطلقت المجاميع في رحلتها المضنية التي لا بدَّ منها والكلُّ لقائدِ الطير تابع ومقلِّد، والذي وزَّعَ بدورهِ المهام والأوامر بدقة وصرامة.

تركت الطيور موطنها الصيفي في أعالي البحار واتجهت جنوباً نحوَ الشرق وعبرت بحاراً وبلداناً تكاد تكون ثابتة أو متشابهة في تضاريسها ومناخها ومعالم عمرانها.

وعندما وصلت سماءَ الأندلس لاحظت أسراب الطير معالماً وآثاراً عظيمة في قرطبة وغرناطة فاستفسرت من حكيم الطير الذي يملك مفاتح تأريخ البلدان عن هذهِ الآثار التي تراها مختلفة عما وَجَدَته في البلدان التي مرَّت بها فأتاها الرد أنها آثار الحضارة الإسلامية في هذهِ البلاد والتي استوطنت قروناً عديدة في هذهِ البقاع ونشرَت مدارس للفكر الإنساني الراقي في الطب والفلك والعلوم والفنون والآداب والعمران وكانت منارات نور لكل أوروبا.

فاستفسرَ بعضُ الطير: ولمَ انحسَرَ هذا الفكر وزالَ من هذهِ البلاد؟؟

ألِعيبٍ في أصلِ المنهج أو خطأ في منطلقاتهِ الفكرية أو عدم صلاحيتهِ ومواكبتهِ للتطور التأريخي الذي يحصل في المعرفة البشرية؟؟

فأتاها الرد:

كلا . . . فالمنهج إن هوَ إلا الطريق المستقيم والصراط القويم الذي ارتضاهُ اللهُ للناسِ جميعاً، المنهج منهجُ الله المستخلص من خطابِ الله للبشر وسنة رسولِهِ المبعوث رحمةً للناسِ كافة.

السبب يا صغاري هوَ عكسُ ذلكَ تماماً.

هوَ ابتعاد من كانَ يقودُ ويحكم هذهِ البلاد عن روح المنهج الذي يهدي أبداً للتي هيَ أقوم، هوَ تكالبُ الحكام والأمراء على حطام الدنيا وجعل الحُكم مُلكاً ضروساً يتقاتلونَ من أجلهِ.

لم يعد يهمهم إعلاء كلمة الله ولا إقامة منهجهِ ونشر الفكر السامي والحفاظ على القيم والثوابت التي جاءَ بها المنهج، ووصلَ بهمُ الخذلان بأن مدّوا أيديهم لأعداءِ دينهم من أجلِ أن ينصرونهم على إخوانهم في الدين من حكام وأمراء الأقاليم المتاخمة فكانَ أن داستهم حوافر نفس الخيول التي استنصروها على إخوانهم من قبل.

سألَ بعضُ الطير مجدداً وأينَ كانَ علماؤهم وحكمائهم فينصحوهم ويجمعوا أمرهم على كلمةٍ سواء؟؟

أجابهم حكيمُ الطير: عندما يتفتتُ بنيان الأمة ويصبح الهمُّ الأكبر للناس هوى النفس وملذّات الدنيا ويتركون المنهج النبراس -الذي كانَ محرِّكَ نهضتهم وسر قوَّتهم- وراءَ ظهورهم فإنَّ الحكماء والعلماء إن وجدوا في هذا الخِضَم المتلاطم من الطمع الدنيوي يكونون في الأغلب جزءاً من النسيج المتهرأ فتراهم يركضونَ وراءَ الحكام طمعاً في استرضائهم وخَطْبُ ودهم فيجمع كل حاكم في حاشيتهِ من وعّاظ السلاطين من يروِّجُ لأفكارهِ ويبرّرُ لأفعالهِ ويحاولُ أن يزيِّنَها بلباسِ الدينِ والتقوى ويضفي عليها طابعَ الصالح العام، وما عداها لا يكونُ إلا فساداً وخروجاً عن الدين والمنهج الرباني وهكذا تتقاطع الفتاوى والتبريرات المنسوبة إلى الدين والمنهج والدينُ منها براء.

فهيَ كلها تركض وراء سراب الطمع الدنيوي الزائل، وهذا الأمر يجعل عامة الناسِ في حيرةٍ من أمرهم وهم يرونَ علمائهم وحكمائهم تفرَّقوا شيَعاً وأحزاباً مع فرقاء متخاصمين فيصلَ الوهن والضعف والقنوط إلى نفوسهم فلا

يكون ثمة قوة أو دافع أو محرِك لاستنهاض هممهم ودفعهم للدفاع عن تخوم بلادِهم وثغورها، حتى إذا وصلت الخيلُ إلى أزقّتهم وحاراتهم وقراهم التجأوا إلى بيوتهم فيدخل جندُ العدو إلى مخادعهم ويعمل فيهم قتلاً وتنكيلاً.

هكذا انكفأت الحضارة الإسلامية وانحسرَت عن ديارِ الأندلس يا صغاري.

فاعتبروا يا أبناء الطير فالقوة والغَلَبة في الاتحاد والخير كله مع الإجماع. والتفرّق داء عضال يفتت جموعكم ويوهنُ أجسادكم وقلوبكم وعزائمكم.

عَبَرت جموع الطير إلى الضفة الشرقية من البحر فوجدَت أنَّ معالم البلدان التي تمر فوقها اختلفت وصارت تتسم بالبؤس والتخلف والفقر ورأت قوارباً صغيرة تتحرك في عرض البحر خِلسة لتعبر إلى الطرف الآخر ورأت مآذن كثيرة منها ما عمّرت في سالف العصر والأوان ومنها ما شيِّدَت حديثاً فاختلطَ الأمرُ عليها ورأت أن تستفسر من حكيم الطير مجدداً علها تجد عندهُ الخبر اليقين.

أيُها الحكيم هذهِ المآذن قديمها وجديدها وهذهِ الآثار تدلُّ على أنَّ الديار كانت ولا تزال ديارَ الإسلام فما السر في التخلف الذي نشهدهُ يعم هذهِ البلدان وما سر هذهِ القوارب التي تندفع خلسة إلى الطرف الغربي من البحر؟؟

قالَ حكيمُ الطير بعدَ أن زفَرَ زفرةً طويلة: إيـه يا صغاري أمَّا انَّ الديارَ ديارُ الإسلام فنَعم وأمَّا انَّ المآذن يرفعُ فيها الأذان خمساً في اليوم فنَعم.

ولكنَّ الإيمان قد هجَرَ قلوبَ القوم -إلا من رحِمَ ربِّي- فمَن يثبّته من جديد في قلوبهم ووجدانهم؟؟ ومن يغيِّر أحوالهم إذا كانت العزائم خاوية وعلى الأبصار غشاوة، وإذا لم يكن ثمة من يستنهض هممهم ويقوّي عزائمهم؟؟

لقد تركوا كتابَ الله وسنة رسولهِ وراءَ ظهرانيهم وصارت عباداتهم وطاعاتهم وصلواتهم مفرغة من بعدها الإيماني القوي فلم تعد تنهيهم عنِ المنكر أو تحثّهم على الأمرِ بالمعروف فما ازدادوا عنِ الله إلا بعداً.

ووجدَ الجهلُ والفقر والتخلُّف سبيلهُ إلى مجتمعاتهم فصارت السمة البارزة لهم وتخلّى حكمائهم وعلمائهم عن دورهم وتركوا الساحة فارغة لمن يوغل في جسدِ الأمة طعناً وانتهاكاً للحرمات وفساداً وسيطرةً على الثروات وغزاهم الاستعمار وسيطَرَ عليهم لعقودِ طويلة، وحتى بعدَ أن عادَ أدراجهُ إلى الضفة

الأخرى تركَ وراءهُ مجتمعات مفككة تسيطرُ عليهِا الأهواء والعاطفة وقصر النظر في كل أمور الحياة.

وصارتِ الأممُ من حولها -والتي بنت نهضتها الجديدة حيثُ تركَ المسلمون ثمار وبذور نهضتهم وراءهم- تنطلق إلى الأمام في قوةٍ وعنفوان لاستنباطِ العلوم والتقنيات التي تخدم مجتمعاتهم ورفاه شعوبهم.

وازدادَ المسلمون تخلُّفاً وبؤساً وأخذَ القهرُ والاستبداد والتحكُّم بمصيرهم بُعداً لا إنسانياً جَعلت الأمم الأخرى تعيبهم على تخلفهم واسلوب تفردهم بالحكم وبمقدرات شعوبهم وصارت تلكَ الأمم مأوىً لكلِّ صاحب فكر مخالف للفكرِ السائد والمستبد في بلدانهم مهما كانَ نوع هذا الفكر وصارت قِبلة لكل من يريد الحصول على فرصة عمل -شريفة أو غير شريفة- بعدَ أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت في أوطانهم وعصفت بهمُ البطالة سنيناً وعقوداً وها أنتم ترونهم يا صغاري كيفَ يركبونَ موجَ البحرِ الهائج في ظلمِ الليالي يرومونَ الوصول إلى الطرف الغربي فمنهم من يصل ومنهم من يبتلعهُ الموج في عرضِ البحر.

قالتِ صغار الطير لقدِ التبسَ الأمرُ علينا أيُّها الحكيم.

إذا كانَ النبعُ الذي نشربُ منهُ نحنُ صافياً عذباً رقراقاً فهل يعقل أن نتركهُ ونشرب من بركِ الطين الآسن؟؟ ولو فعلنا لحقَّ للأقوام الأخرى من الطير أن تعيبَ علينا سلوكنا وسوءَ تصرفنا.

فهل يكون ثمَّة قوم قد أمدَّهُم الله بمنهجٍ يستمد أصولهُ وفروعهُ من خطابِ الله المباشر لهم وإن تمسكوا بهِ لن يضلوا أبداً ثمَّ يتركوه وراءَ ظهرانيهم؟؟

قالَ حكيمُ الطير: الأمرُ أصعب من ذلكَ يا صغاري لقد تعقَّدت أحوال الأمة وأتت عليها عقود طويلة وهم في حالٍ من الارتباكِ والتيهِ الفكري والعقائدي والسياسي وأدخلوا في دينهم طقوساً وبدعا ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان ولا تمُت إلى المنهج القويم بصلة، طقوساً تجمعُ بينَ الشعوذة وعبادة الأضرحة وتقديس الصالحين حتى صارَ الولاء والتضرُّع والتوجُّه للأضرحة والصالحين دونَ الله سبحانهُ وتعالى.

وابتعدَ البعضُ الآخر عن دينهم أيّما ابتعاد وصارَ انتمائهم لأمةِ الإسلام بالهوية فقط دونَ العقيدة والعبادة والسلوك وتَمسَّكَ البعضُ بالغلو والتشدَد وتركوا سماحة المنهج ووسطيته وشفافيته.

وفي خضم هذا الطرق المستمر على العقيدة الحقَّة- التي لا تصحُّ إلا أن تكون خالصةً لوجهِ الله تعالى- ومحاولة تطويعها شداً وجذباً بينَ هذا التوجُّه أو ذاك وهذهِ الفكرة أو تلك هجرَ الإيمان الكامل واليقين الثابت القلوب.

فلم تعد شخصية المسلم نموذجاً لفكرِ الإسلام ومنهجهُ بل صارت هذهِ الشخصية ازدواجية الفكر والهوى والسلوك للغالبية العظمى من المسلمين حتى صارَ الاتهام يوجَّه للإسلام من كثرة أخطاء المسلمين وسوء سلوكهم وقبح أفعالهم والإسلام من كلٍّ ذلكَ براء.

انتفضَ بعضُ صغارِ الطير محتجِّين: أيها الحكيم إذا كانَ الإسلامُ يأخذُ منهجهُ من كتابِ الله الخاتم الذي أنزلهُ هدىً ورحمةً للعالمين فإنَّهُ يكونُ بمنأى عن كلِّ طعنٍ أو مثلمةٍ أو عيبٍ ونقص فما ذنبُ هذا المنهج إذا ابتعدَ من يدَّعي الانتماءَ إليهِ عن روحهِ وأصالته؟؟

هكذا علمتمونا أيُّها الحكيم.

قالَ حكيمُ الطير أيُّها الصغار لقد توارثنا هذا العلم عن آباءنا وأجدادنا وَيُلهِمُ الله فوق ذلك من يشاء وجاءنا من العلمِ أنَّهُ كانَ قولُ الرسول الذي أنزِلَ عليهِ القرآن وعَمَلُه -وهوَ الرسول الخاتم المبعوث ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاق والمبعوث رحمةً للعالمين- تطبيقاً لمعاني القرآن وشرح مضامينه وبيان مقاصده.

وعينُ الحقيقة ما ذهبتم إليهِ أنَّ منهجَ الإسلام وهوَ يستندُ إلى كتابِ الله وسنَّةِ رسولهِ لا يعيبهُ إذا تخلَّى بعضُ من يدعي الإسلام عن تطبيقِ مبادئهِ أوشذ سلوكهم وتلوثَت أخلاقهم وأفكارهم.

أرأيتم لو شربتم من ماءٍ آسن بمحضِ إرادتكم وتركتم النبعَ الصافي كما قلتم أيمكنُ للنبعِ الصافي أن يفقِدَ نقاءهُ وصفاءهُ بفعلتكم هذهِ أم تكونونَ أنتم من فقدتّم صوابكم ولَوثتم بطونكم وعرَّضتم أنفسكم للهلاك أمَّا الماء فيبقى صافياً نقياً كما كان.

أرأيتم لو تمرَّدتم على تعليماتِ هجرتكم فتخلفتم عنِ الهجرة وبقيتم في أماكنكم وجاءكم البردُ والصقيع أو تركتم السربَ في منتصفِ الطريق ونزلتم فرادى في أماكن لا تصلح لإقامتكم فَهَلكتم لهذا السببِ أو ذاك هل يكونُ العيبُ في قانونِ الهجرة الموسمية الذي رُسِمَ لكم منذُ القِدم أم يكونُ فيكم وفي سلوككم وسوءِ تصرفكم.

ولكن يا صغار اعلموا أمراً هاماً:

أنَّ الله هوَ الذي أنزَلَ هذا الذكر الحكيم والقرآن المبين والمنهج القويم وهوَ الذي سيحفظهُ من الزوالِ ويصونه من أن يتلوَّث بالشبهات التي تحاك ضده أو البدع التي تلصق به.

ستبقى شعلة الإسلام متَّقدة أبدَ الدهر مهما حاولَ المغرضون -من أعداءه أو ممن ينتسب اليه بالهوية فقط أو ممن يخالف قوله وفعله منهج الاسلام- وضعَ الحجب على ضيائها ونورها.

وسَيُقَيِّضُ اللهُ لدينهِ -ولو بعدَ حين- من يوقظُ المسلمينَ من رقدتهم ويرشدهم إلى دينِ الله الحق كما ارتضاهُ لهم ورسَمَ لهم سبلهُ ومسالكهُ في كتابهِ وثبَّتَ مضامينهُ ومقاصدهُ وآدابهُ رسولهُ الكريم (ﷺ).

وسيأتي يَوْمَ تعبرُ جموعكم أو من يأتي بعدكم سماء هذهِ الديار فيراها عامرةً بالإيمان والازدهار والرقي وقد أصبحت منارات للهدى والنور والحكمة والرقي الانساني والخلق الحسن.

وليسَ ذلكَ على اللهِ بعزيز.

١٢ - كيف تنهض الأمة من جديد ..؟؟

الحياة ليست عبثية

القرآن الكريم وهو الكتاب المنهج لهذه الأمة زاخرٌ بالآيات التي تدعو إلى التفكّر في خلق السماوات والأرض وما بثَّ الله فيهما من آياتِ صنعه ودلائل إعجازه سبحانهُ وتعالى.

والدعوة إلى التفكّر والتدبّر فيما سبق هو توجيه رباني مبارك لعبادهِ للاستدلال من بديع صنعهِ على عظمة الصانع والخالق ولتستقر النفس بعدها وتستكين حينَ تهتدي إلى بارئها وتتيقن أنَّ الذي أبدع هذا الكون وأنجز هذا الصنع وسخَّر كل ذلك للإنسان لا يمكن أن يجعل حياته عبثية يولد الإنسان في الدنيا ويقضي فيها ردحاً من الزمن ثم يموت ويفنى، يتساوى في ذلك الظالم الذي يقضي كل حياته في استعباد الناس وزهقِ أرواحهم والمظلوم الذي أمضى جلَّ حياته تحت نير الظلم والطغيان ولم يجد متنفساً فيها إلا بعدَ أن قضى عليه الموت، أو من عاش غنياً يملكُ مثل ما كان قارون يملك من كنوز وخزائن ومالٍ وفير وهو غارقٌ في نعيم الدنيا وملذاتها أو عاشَ فقيراً معدماً لا يملكُ قوتَ يومه ولم تنزل إلى جوفه لقمة رطبة هنية قط.

ثم يمضي الجميع هكذا واحداً تلوَ الآخر وجيلاً بعدَ جيل إلى الموت والفناء ويسدل الستار على هذه النهاية العبثية الهزلية لحياةِ الإنسان.

هل من المنطق أن يُخلق الإنسان لتكون هذهِ حياته وتلكَ نهايته؟؟ نهاية تدل على منتهى الاستخفاف والإجحاف بدور الإنسان في الدنيا ومغزى حياته فيها.

حاشا لله وهو الموجد والخالق لهذا الكون البديع الدقيق في صنعهِ وتنظيمهِ وسيره أن يجعل من حياةِ الإنسان الذي استخلفهُ في الأرض حياة عبثية دونَ ضوابط أو نواميس تحكمها ودونَ غاية أساسية من وجودهِ حتى.

رسالة الأنبياء واحدة

لم يترك الله سبحانه وتعالى عبيده يواجهون هذه الاشكاليات الكبيرة في الحياة ليكتشف من يكتشف الحقيقة وتغيب عمَّن تغيب، فكانت بعثة الأنبياء والرسل من أجل ذلك.

لدعوةِ أقوامهم إلى التفكّر في خلقِ السماوات والأرض وفي أنفسهم ليكتشفوا آيات صنع الله ودلائل إعجازه ويعرفوا يقيناً لا يخالطهُ شك أن لهذا الكون وهذهِ الأفلاك وهذا الصنع البديع للكون وللإنسان نفسه خالقاً عظيماً ورباً رحيماً، وتترسخُ لديهم القناعة بوجودِ الله ووحدانيته وأنَّ لا سلطانَ في الكون إلا سلطانه ولا قوة قاهرة غير قوته ولا ملكاً غير ملكه.

ثم يدعونَ أقوامهم إلى عبادةِ هذا الخالق الكريم الذي تخضع لمشيئته كلُّ الخلائق فلا يكون خضوعهم وتضرعهم وخشيتهم وتوجههم بالصلاة والدعاء إلا لله خالقهم.

ويدعونَ أقوامهم بعدَ ذلك إلى الخُلقِ الكريم والسلوك القويم في التعامل معَ الله وفيما بينهم لتكتسب حياتهم رقياً إنسانياً تخرجها من إطار العبثية إلى الاستقامة والضبط والتقويم والصلاح ليعمروا بعد ذلك الأرض إلى ما شاءَ الله حتى يأتي أمرُ الله وتقوم الساعة ويكون الهلاكُ والفناء لكلِّ شيء ولا يبقى إلا وجهُ الله ذو الجلال والاكرام.

ثم يكونُ البعث والنشور والحساب ويكونُ العدل الإلهي المطلق فتوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت واكتسبت ولا يَظِلمُ ربك أحداً.

إذن فالحياة الدنيا وهذهِ حالها ومآلها ليست إلا معبراً إلى الحياة الأزلية والناجي في الحياةِ الدنيا هو من هداهُ الله سبحانه وتعالى وألزمهُ طائرَ التقوى والخير والصلاح في عنقه وصبَّ في قلبهِ الرأفة والرحمة والإحسان فكانَ عبورهُ عبوراً ميموناً ميسوراً ومباركاً. والشقي من يتخذ من المعبر أساسَ عمله وتوجهه ومنتهى غاياته وينسى أن يتزوَّد بزادٍ ينجيه بعد المعبر فلا يكون له حظ من الآخرة.

القرآن هو الكتاب المنهج

أنزلَ الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم ليكونَ قلبَ الرسالةِ المحمدية ونقطةَ ارتكازها ونوراً للبشريةِ جمعاء وأرفدَ الله كتابهُ بالسنةِ النبوية الشريفة لتفسِّر وتوضِّح وتثبت معاني القرآن فهماً وتطبيقاً.

وجعلَ الله هديَ الأمة وصلاحها بتمسكها بالكتابِ والسنة منهجاً ودستوراً للحياة فالأمة بخير ما دامَ الناس يهتدون بهديهما ويتخلقونَ بالأدبِ والخُلق الرفيع الذي ينبع من منابعهما وإلا فالشقاءُ والضعف والخور والفوضى يكونُ من نصيبِ الأمة.

ومن أدخلَ الله أنوارَ الهداية إلى قلبهِ يرى عظمة هذا القرآن الذي هوَ سر إعجاز الرسول الخاتم مُحمّد (ﷺ)، فالقرآنُ يحوي بحوراً عظيمة لا حدودَ لاتساعها ولا قرارَ لعمقها.

فمن بحرِ الحكمة إلى بحر المنطق والبيان ومن بحرِ العلم إلى بحر الإعجاز والإتقان ومن بحر الأخلاق والسلوك إلى بحرِ اليقين والإيمان.. بحور.. بحور تغطي كلَّ مدارك واحتياجات الإنسان. وهذهِ البحور من العمقِ والسعة لتتسع ملايين الغواصين الماهرين ليسبروا أعماقها وأغوارها ويستخرجوا من كنوزِها الربانية ما تضفي على البشرية الخير والسعادة والرقي الأخلاقي والحضاري إلى يومِ الدين.

أمة تمتلك هذهِ الكنوز كيف يصيبُها الوَهنُ والضعف؟؟

أمة تمتلك هذا المنهج كيفَ تبحث عن مناهج أخرى بديلة ليسَ فيها فصلُ الخطاب مثل ما في المنهج القرآني؟؟

ذلكَ كمن يترك البحور الزاخرة بالصيد واللؤلؤ الثمين ليـُلقي شباكهُ في بركٍ آسنة ضحلة فماذا يلتقط في شباكه؟؟

بناء المجتمع الاسلامي

المنهج القرآني يهتم بصناعة الإنسان قبلَ كل شيء لأن الإنسان هو الذي يصنعُ حضارةَ الأمة ويحقق نهضتها وبناءُ الإنسان لا يكون إلا بالإيمان الصادق

بالله عزَّ وجل إيماناً يجلبُ يقيناً ثابتاً وراسخاً للإنسان بأنَّ الله هو المدبّر لكلِّ أمر وما يعزب عنهُ مثقالُ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماء ولهُ الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

هذا اليقين يدخِلُ الطمأنينة إلى قلبهِ فما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن.. إذن هوفي رعايةِ الله وفي حماه، فلا يتوجَّس من طوارقِ الليل أوالنهار وليسَ لخشيةِ مخلوق أثر في قلبهِ وروعه وهوَ منقادٌ للهِ ومنهجه في طاعتهِ وعباداته، وفي سعيهِ للرزق، وفي سلوكهِ وخلقهِ ومعاملاته.

وعندما يصلُ المسلم إلى هذهِ الدرجة من الانقياد الكامل للهِ سبحانهُ وتعالى يصبح غرساً طيباً ينبت شجرة طيبة تؤتي أكلها كلَّ حين بالمحبة والتراحم والتواصل والتعاون على البرِّ والتقوى، ويكون اللبنة الأولى لبناء المجتمع الإسلامي وفقَ المنهج القرآني.

والمجتمع الإسلامي لا يبنى على النفاق العقائدي والفكري والسلوكي فالنية الصادقة يجب أن تكون حاضرة ومهيمنة لأن النفاق ليس المادة الصالحة للبناء قط بل هو سببٌ للانحطاط والخور والضعف لذلكَ نرى أنّ القرآن الكريم وهو كلامُ الحقِّ سبحانهُ وتعالى جعلَ الدرك الأسفل من النار من نصيبِ المنافقين وحذرَ رسوله (ﷺ) والمؤمنينَ جميعاً من مكائدِهم وضلالهم.

والمنافقون لم يكونوا حكراً على زمانِ البعثة المحمدية فقط بلْ إنهم باقون في كلِّ زمانٍ ومكان ومكائدهم في تخريبِ المجتمع من الداخل تكاد تكون نفسها مع إدخال الأساليب المبتكرة في الترويج والتضليل وخلقِ الفتن حسب الوسائل والتقنيات المتوفرة في كلِّ عصر، إلا أنّ الغاية هي واحدة وهي زرع الضعف والانهزام والخور في قلبِ الأمة.

والمجتمعُ الإسلامي لا يبنى على التحايل والمباغتة والتربّص والغدر، بل يبنى على الاستقامة والوضوح والعدل.

ولا يبنى المجتمع الإسلامي السليم إلا عندما يعرف كل فرد حدود تحركه ونوع حركته فلا ضرر ولا ضِرار ولا مساس بثوابتِ المجتمع من خلق وسلوك وأمن وممتلكات إلا بالشكلِ الذي يساهم في الاندفاع الإيجابي للأمام ومقاومة

الارتكاس والارتداد إلى الوراء.

وإذ يُكلِّف المجتمع أبناءهُ بتكاليفِ وواجبات من أجلِ حركتهِ ومصلحته وتقدمه يكونُ تغليبُ مصلحةِ المجتمع على المصلحة الفردية والتفاني والإخلاص في أداء المهمة والدور هي الغاية والمبتغى لكلٍّ فرد.

الحضارة الاسلامية... حضارة قيمٍ وأخلاق

عندما يكونُ بناءُ المجتمع على هذهِ الثوابت ويتخلق أبناؤه بهذهِ الصفات والخصالِ الحميدة فإنَّ نواة النهضة تتشكل في رحمِ الأمة، وتكبرُ النواة بتلاحم الأفكار والهِمَم وتوفير المناخ الطيب الملائم لنموِّها نمواً مضطرداً يعكسُ حالَ الأمة وتدرجها في النهوض الفكري والعلمي والاجتماعي.

وتتراكمُ الخبرات والتجارب ويتمُّ رصد ما شذّ عنِ المسار الصحيح بينَ الحين والحين فيُصار إلى تشذيبه وتصويبه ويتم دعم كل فكر نيِّر وخطىً مباركة في طريقِ الرُّقي والنهوض في مختلفِ جوانب الحضارة بأقسامها الحديثة التي تنشأ تباعاً أو تلكَ التي قطعت شوطاً كبيراً في مضمارِ النجاح.

وتتطورُ المدارك وسبلُ البحث جيلاً بعدَ جيل كما يتم دراسة ما وصل إليها من المجتمعات والحضارات الأخرى دراسةً مستفيضة متأنية غير منحازة ليتم الاستفادة منها ومن تجاربها.

هكذا كانت نشأة الحضارة الإسلامية وحتى عندَ اشتداد معاركِ الفتح الإسلامي وبعدَ خفوت صليلِ السيوف وانقشاعِ غبار المعارك، كانَ الجهدُ الأكبر ينصرف لبثِّ أدواتِ النهوض ومكتسباتِ الحضارة في تلكَ المجتمعات لأن الغاية في الفتوحات ليستِ استعباد الشعوب ونهبَ خيراتها بل إيصالَ نورِ الهداية إليها وتوفير أدوات النهوض الفكري والعلمي والأدبي لها ليختارَ من يريد بعد ذلك الدخول في الإسلام طواعية أو يمتنع من يمتنع.

لذلكَ كان ظهور المدارس الفكرية والدينية والعلمية في بلدانِ فارس وبخارى وسمرقند والأندلس- وبروز علماء افذاذ فيها أمدوا الإنسانية بفكرٍ نيِّر خلاق وعلومٍ راقية متقدمة أضافت الكثير إلى الجهد المعرفي الإنساني عبرَ التأريخ- ليسَ اقل شأناً ولا أدنى منزلة من مدارس المدينة المنورة وبغداد

والكوفة والشام.

ولأنَّ المسلم الفرد عندما يمتلئ قلبهُ بالإيمان الصادق فإن بيعه وتجارته وزراعته وكلَّ عمل يعمله إنما يستمد أصولهُ من روح المنهج القرآني ووضوحه، لذلكَ كان انتشار الإسلام في أقاصي الشرق وفي كلِّ بقعةٍ وصلَ إليها التجار والباحثون المسلمون غرباً أو شرقاً، شمالاً أو جنوباً، سواء مع جيوشِ الفتح الإسلامي أو قبلها أو بعدها أوبدونها انتشاراً عظيماً حتى دخلت بلدان وشعوب إلى الإسلام دونَ أن تطأ أرضَها قدمُ رجلٍ محاربٍ واحد.

ذلكَ لأنَّ الفكر والمنهج الإسلامي وهو يدغدغ مشاعر الفطرة الإنسانية إذا اقترنَ بالنموذج الصحيح الذي يحمل ذلك الفكر ويطبقه قبلَ أن يدعو إليه فإنَّ التأثير يكون عظيماً وطاغياً، ولم يسجِّل لنا التأريخ بأنَّ الزحف الإسلامي وبعد أن تضعَ الحرب أوزارها قد أرغمَ شعباً بحدِّ السيف أو بالإكراه على تركِ دينه ومعتقداته والدخول القسري في الإسلام.

ولكن!!

ونحن نتكلم بمقاييس بشرية وليست ملائكية فلا بدَّ أنْ تكون حصَلَت خروقات فردية كثيرة هنا وهناك غلبَ فيها هوى النفس على المبدأ فوقعت مظالم، ولكننا نتكلم عن الإسلوب المنهجي المتأصل الذي تبناهُ المسلمون في تركِ العقيدة حرة غير خاضعة لسطوةِ السلطان وحرابِ العسكر.

وحدثت نكبات وفتن كبيرة في التاريخ الإسلامي حتى في صدرِ الإسلام تركت ظلالاً ثقيلة لا يزالُ تأثيرها ممتداً إلى يومنا هذا، ولكنَّ المجتمع الإسلامي كان يحافظُ على ثوابته في العقيدة والسلوك والتعامل بشكلٍ لم يكن بمقدور الساسة والأمراء تحريف عقيدة الناس وتضليلهم إلا من ضعفَ منهم أمام هوى النفس وفتنة الدنيا.

وفي كثيرٍ من الأحيان حتى عندما يتسلط على رقابِ المسلمين أميرٌ ظالم بكلِّ المقاييس لم يكنْ ليتجرأ أن يمسَّ روحَ العقيدة وقيم وثوابت المنهج القرآني.

وهكذا وصلنا المنهج القرآني بكلِّ مكوناتهِ الرئيسية والفرعية صافياً كما

الذهب لم يكن بمقدور أحد أن يُدخِل في جوهره ما يخالف أصول القرآن والسنة.

نعم حاول المغرضون كثيراً إدخال التحريف إليه أو إلصاقَ أفكار ومعتقدات خاطئة بهِ ولكن في نفس الوقت هيأ الله لهذا المنهج من يتصدى للدفاع عنه في كلِّ زمان ومكان فيفرز الأصيل عن الدخيل فأمّا الزبد فيلفظ ويذهبُ جفاءاً وأما ما هو من أصل المنهج والعقيدة فيبقى.

وحاولَ ويحاولُ الكثير من الأفاقين لوي أعناق نصوص شرعية لكي تخدم أغراضهم الدنيوية الضيقة ويمكنهم إيقاع الكثيرين في شراكِ وَهْمِهم وخداعهم أو إيقاع الأذى بكثير من خلقِ الله ولكن ذلك لا يشكلُ إلا غيوماً سوداء في تأريخ الأمة سرعانَ ما تبددها شمسُ الحقيقة الساطعة وصفاءُ المنهج ونقاؤه.

مائة عام من العزلة

حصلَ انكفاء وارتداد خطير في تاريخ الأمة منذ ما يقارب مائة عام. ضعفت فيها شوكة المسلمين وتربصَ بهم الطامعون والأعداء واشتدَّ الضغط على تخومهم وثغورهم واقتطعت أجزاءاً من جسدِ الأمة الذي كان يرزح تحتَ حمى التفكك والتشرذم وفقدان الهوية الإيمانية المنهجية.

حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى تفككت أوصالها إلى مفاصل ضعيفة لاحولَ لها ولا قوة، وصارت لقمة سائغة للمتربصين الذين أرادوا الهيمنة عليها فكراً وتأريخاً واقتصاداً وسياسة، وكانت الأمة في تلكَ الفترة في قمةِ انحطاطها الاقتصادي والفكري المنهجي تغلبُ عليها العاطفة الساذجة في كلِّ مداركها الاجتماعية والسياسية وحتى العقائدية.

والأمة لا تبنى بتأجيج العواطف وتهييجها بل تُبنى بالعقل المستنير والمنهج القويم، ولمّا كانَ المنهج غائباً والعقل تسيِّره العاطفة فلم تكن ثمة قوة في جسدِ الأمة يمنع أجزاءه من التفكك.

بل على العكس كانت الأفكار الدخيلة قد وجدَت لها موطن قدم هنا وهناك فكانت قوة هدم من الداخل ساهمت في تسريع وقوع الجسد أو أجزاءه وتمرغها في وحلِ الهزيمة والتشرذم وفقدان الهوية.

ولأنَّ القائمين على أمور المسلمين وقتئذٍ كانوا ابتعدوا فراسخَ كثيرة عن المنهج الرسالي المحمدي الذي لا يفرق بين عباد الله في الحقوق والواجبات. ويكتسب كل فرد منزلته في المجتمع بمقدار تقواه وحرصه على مصالح الأمة وليس بانتماءه إلى هذا العرق او ذلك أو قربهِ من الأمير أو صاحب السلطة والجاه.

ولم تكن لأسباب القوة والمنعة حظ في نفوسهم وكانَ ثمة بون شاسع بينهم وبينَ مجتمعاتهم، لذلك لم يكن بمقدورهم منعُ الانهيار، وفي الحقيقة كانوا هم جزءاً من مسببات الانهيار.

والأمة التي يتفكك نسيجُها الإيماني ويحاول المتسلطون على رقاب الناس رتق النسيج بخرق بالية من التعصب العرقي أوالطائفي أوالمذهبي فإن النسيج لا يعود إلى رونقه وأصالته بل يصبح نسيجاً مسخاً لا يمت بالصلة إلى النسيج الأصلي وسرعان ما تتهرأ وتتمزق هذه الخرق الرابطة فينفرط عقد النسيج إلى قطعٍ متناثرة غير مترابطة ولا متآلفة.

نعم عندما يريدُ المتسلطون فرضَ فكرٍ متشدد لا ينتمي إلى منبعِ العقيدة السمحاء الجامعة للمجتمعات المتآلفة التي تكوِّن جسدَ الأمة- وسواء كانَ هذا الفكر المتشدد ديني الصبغة أو عرقي التوجه أو مذهبي الهوى- فليسَ ثمة قوة في الأرض بمقدورِها أن تعيدَ اللُحمَة إلى تلكَ الأجزاء وتشكلها في كيانٍ واحد متحد وقوي من جديد.

لا يمكن جمع مجتمعات عرقية مختلفة أو مذاهب وطوائف متنوعة إلا من خلالِ منهجٍ أصيل سَمِح تتساوى فيه الأعراق والمذاهب في الحقوق والواجبات وتعُم الفائدة على الجميع وتكون مصلحة الجزء هي مصلحة الكل ومصلحة الكل هي مصلحة الجزء ويكونُ الفكر الذي يحكم فكراً متنوراً ومتسامحاً.

وتوالت الهزائم والنكبات. . . .

وانكفأ المنهج الرسالي الخالد معَ أمجاد الأمة وسفر رجالاتها لتصبحَ أخباراً في بطونِ الكتب تدرَّس للتلامذة واليافعين فيرونها أمراً خيالياً ومثالياً لا تثير فيهم الحماسة حتى.

ونسيَ عقلاءُ الأمة (أنَّ التأريخ دائماً ليسَ ملكاً إلا للزمن الذي ولدَ فيه، لايورث أمجاداً ولا انحطاطاً وإنما يورثُ شيئاً واحداً فقط: هوَ العبرة)، والعبرة هو الشيء الوحيد الذي لم يتمكن التربويون والحكام من غرسهِ في عقولِ النشئ والشباب.

وانقسمَ المجتمع بينَ فئاتٍ ثلاث:

فئة لا تعرفُ إلا التباكي والنواح على أطلالِ الماضي: كنا كذا وكذا... وفعلَ فلان كذا... وقيلَ كذا وكذا....

أمّا أن تخطوخطوة واحدة للأمام لتغيير نفسها وواقعها فلا.

وكأنها لاتعرف أن جفافَ بساتينها وجناتها تعني أنَّ ماءَ النبع مقطوع عنها والطريق إلى النبع يحتاج إلى الكثير منَ العمل المضني والمجاهدة لكي يتم تنظيف مسار الماء الذي كانَ شريان حياتها ونهضتها، أمّا أن تقف حيث هي وترنو إلى الجبل حيث النبع فإن الأرض ستبور ولن تنتج إلا الشوك والعشب الضار.

والفئة الثانية فئة لا ترى من تأريخها إلا الفترات المظلمة فيها فتضخمها حتى تصيرها جبالاً تكتمُ أنفاسها فلا ترى بعدَ ذلك أي قبسات نور أو ومضات إشراق فيها، فتصبُّ جام غضبها وحقدها على التأريخ ورجالاته وتبقى حبيسة هذا الحقد وأسيرتها فلا تسبرُ أغوارَ التأريخ بحثاً وتحقيقاً وتمحيصاً لتنظرَ إليهِ نظرة موضوعية وعقلانية فتأخذ منه العبر ثم ترسُم لحياتها ومستقبلها طريقاً نحوَ الذرى يجنبها ما وقعت فيه الأمة من أحداث جسام.

إنها فئة مشلولة محبطة للهمم لا ترضى بالماضي وليسَ لها طريق واضح للمستقبل.

أمَّا الفئة الثالثة فترى أن تأريخ الأمة شيء مضى وانقضى ونحنُ أبناءُ اليوم، ولكي نبدأ من جديد ونخطو الخطوة الأولى وننطلق بقوة علينا كسب الوقت والاقتداء بالمنهج الغربي الحديث في بناء مجتمعاتنا من جديد ولا ترى النهضة والحضارة إلا في العمران والخدمات بمعزل عن الفكر والأخلاق والقيم التي ترى أن تترك للأفراد ليختاروا ما يشاؤون دون أن يكونَ للمجتمع عليهم من

سلطان.

ولكن!!

وبالمقابل لم تخلُ الأمة حتى في فترات انحطاطها وانكفائها من رجالٍ أفذاذ وعلماءٍ أعلام أرفدوا الإرث الإسلامي بروائع الفكر والتفسير والتجديد تكونت حولها في وقت نشوئها أو بعدها مدارس فكرية راقية خلاقة.

لكن في خضم الفوضى الفكرية والعقائدية والاجتماعية التي عاشتها وتعيشها الأمة كانَ تأثير تلك المدارس قليلاً بقيت في الكثير من الحالات داخلَ بيئتها التي نشأت فيها او حُوربَت ممَّن حولها فلم يكتمل نفعُها أو تعم فائدتها.

وتوالت النكبات على الأمة...

موجات الإلحاد عصفت بمجتمعاتٍ إسلامية كثيرة في خضم تنامي الفكر الشيوعي العالمي. ولأن المجتمعات كانت وقتئذ قد فقدت أي اتصالٍ لها بالمنهج والفكر الإسلامي الرصين وتكره بالمقابل الاستعمار الغربي الذي ترى فيه سبباً جديداً لتخلفها ومصائبها فانعطفت شرقاً لترتمي في أحضان الشيوعية معصوبة العينين.

ثم كانت نكبة فلسطين التي أوصَلت معنويات الأمة - أو ما تبقى منها في شكلِ مجتمعاتٍ متباعدة لا تشترك في شيء إلا في الهوية الإسلامية المجردة- إلى الحضيض وفقدت في النكبة معظم فلسطين.

وجاءَت بعدها نكبة حزيران فكانَ أن ضاعت كل فلسطين ومعَها أراضي من الدول العربية المجاورة لها وترسخت الهزيمة في وجدانِ العرب والمسلمين.

وتوالت النكبات قبل ذلكَ وبعدها أيضاً ....

حربٌ في اليمن وحربٌ في ضفار وحربٌ في السودان وحربٌ في الجزائر والمغرب وحربٌ في باكستان والبنغال وحربٌ في الصومال وحربٌ في ليبيا وحربٌ في نايجيريا وحربٌ في تركيا وحربٌ في العراق وايران وحربٌ في أفغانستان وحربٌ في العراق والكويت.

حروب وقودُها المجتمعات الإسلامية المغلوبة على أمرها... حروبٌ

يشعلها الساسة المتسلطون على بلدٍ جار أو داخل أوطانهم وعلى شعوبهم.. حكامٌ لا يعرفون من صيغ الحكم إلا البطشَ والتنكيل بشعوبهم أولاً.

ولا تزالُ المجتمعات الإسلامية تعيشُ حالة الانكفاء الفكري والعقائدي ولا تزال كثير من الحروب مرشحة للاندلاع هنا وهناك إذا بقيَ الحال على ما هو عليه.

مائة عام والأمة الإسلامية تعيشُ حالةَ انكفاءٍ وتقهقر.

وكلما حدثت نكبة في بقعةٍ من أرضِ الإسلام انبرى (حكماء) الأمة ومفكروها والغالبية العظمى فيها لتلقي - وبفعلِ العاطفة المجردة والانفعال الذي يفتقر إلى الحكمة- تبعة تلكَ النكبة على الصهيونية العالمية وأمريكا والمجتمع الغربي عموماً حتى وصلَ الحال لوعثرَت دابة في أرضِ العراق أو في مصر مثلاً لقالوا إنما هي مكيدة صهيونية أمريكية.

وحتى مع عدم تغييب مثل هذهِ الأدوار كلياً إلا أن إطلاق التهم نفسَها لمائة عام معَ توالي الهزائم كل هزيمة ألعن من أختها وكل نكسة توغل جرحاً أعمق وأكبر في جسدِ الأمة فإن ذلكَ يعني أنَّ الخللَ فينا ...في عقولنا... في مناهجنا... في مدارسنا... في إعلامنا... في حكامنا... في فقهائنا وعلمائنا ومفكرينا.

والرسول (ﷺ) قد حذرنا أنَّ المؤمن لا يُلدَغ من جحرٍ مرتين - والرسولُ لا ينطقُ إلا بالحق- وأجسادنا تهرئت من كثر اللدغ وبث السم فيه.

وهذا يعني أنّ الإيمان الذي ندَّعي أننا نمتلكه ليسَ إلا وهماً في رؤوسنا ليسَ له علاقة بالمدرسة المحمدية بل إن هيَ إلا أفكار مشتتة لا يربطها رابط وقد تناقض بعضها بعضاً في الكثير من مواقفنا وسلوكياتنا ونختارُ من الدين ما يلائم أمزجتنا ومصالحنا وهوانا.

والإيمان غير ذلك إطلاقا، هوَ اليقينُ الراسخُ باللهِ ووحدانيته والامتثالُ الكامل لأوامرهِ ونواهيه والتخلق بالخلق والسلوك الحَسَن الذي دعانا الله ورسولهُ إليه ونراه مبثوثاً في ثنايا كتابهِ وسنة نبيه.

إن قمة التخلف وذروة سنامهِ هوَ أن نحكِّم فينا العاطفة ونغيِّب العقل في كل

شؤوننا، ولو اعترفنا بأنّ الداءَ فينا لعرفنا كيف نعالج انفسنا مهما كان الداءُ صعباً عضالاً فإن نصفَ العلاج هو تشخيص الداء.

أمّا أن ندعيَ العكس ونقول أننا أصحاء وليسَ بنا من سقمٍ أو مرض وأنّ العدوى تأتينا من عدونا فهذا يعني أننا سنقضي مائة عام أخرى من السبات والتخلف وتزدادُ الهوة بيننا وبينَ الأقوام الأخرى ويتفكك نسيجنا الاجتماعي بعدَ أن تفكك النسيجُ الإيماني الذي كانَ يربطنا.

مائة عام من العزلة والنكبات....

وواقع الأمة لا يسر إلا العِدا.

فمن هوَ العدو إذن؟؟

هل هي الصهيونية العالمية ومن ورائها أمريكا وبمؤازرة ومباركةِ الغرب؟؟

أم إن عدونا هوَ تخلفنا وتشتتنا وهواننا؟؟

أم هوَ بعدنا عن منبعِ العقيدة السمحاء والمنهج القرآني؟؟

أم هيَ الفوضى التي تتحكمُ فينا ... في عقيدتنا وفكرنا وسلوكنا؟؟

أم هوَ عدم المنهجية التي اصطبغت بها كل حركاتنا وسكناتنا وأهدافنا وخططنا؟؟

أم هوَ وقوفُ حكامنا وشعوبنا في خندقين متخاصمين.. فلا الحاكمُ يمثلُ الشعب، ولا يتفق الشعب على أمرٍ جامع معَ الحاكم أومعَ نفسه؟؟

أم هوَ الفقرُ والبؤس والجهلُ الذي يلف معظم مجتمعاتنا؟؟

أم هوَ عدمُ التزامنا بمبادئ عظماءِ الأمة ورجالاتها فنلطمُ الخدود ونشق الجيوب ونقيم مراسمَ أشبه بالكرنفالات على مصابهم وفقدهم بينما نزدادُ بعداً عن مناهجهم وسيرهم الخالدة.

أم هيَ الطائفية البغيضة التي نرى مئات الآلاف تنتظم في المظاهرات تحملُ الهراوات والسكاكين في باكستان ضدَ طائفةٍ أخرى فتفجِّرَ مساجدها وتخرِّب بيوتها ومصادرَ رزقها فتنتقمُ الأخرى بشكلٍ أعنف وأكثر همجية. ونسينا قولَ الحق سبحانه وتعالى: **الحجرات**: وإن طائفتان من المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحوا بينهما.. "٩" إلى آخرِ الآية.

فهل نحنُ مؤمنون؟؟

أم هيَ الطقوسُ الساذجة التي نراها حولَ مراقدِ أولياءِ الله والصالحين بكاءاً وعويلاً وتمسحاً وتوجهاً بالسؤال إلى أضرحتهم لا إلى الحقِ سبحانهُ وتعالى.

أم هوَ غزو قنوات التلفاز الفضائية التي تبث في أوطاننا وتموّل بأموالنا وتدخل بيوتنا بدون استئذان فتسيطر على عقول كبارنا قبلَ أن تسيطر على عقول صغارنا وشبابنا، غزواً لا يحملُ في طياتهِ إلا الاستهانة بعقولنا وعقيدتنا وقيمنا.

أم هوَ أن نحارب كل فكر للتصحيح العقلاني المنهجي لعقيدتنا ومناهجنا وسياساتنا واقتصادياتنا وإعلامنا ويوهمنا حكامنا أنَّ التصحيح معناهُ أن نخضعَ ونضعف أمام هجمات الصهيونية والإمبريالية علينا.

فنصدق هذه الفرية.

أم هوَ أنهُ إذا قدِّرَ لفئةٍ أوطائفةٍ منا أن تسودَ وتحكم، ووجدَت إلى جانبها أقلية عرقية أومذهبية فإنها لا تتعامل معها المعاملة الإنسانية الراقية التي يرضاها الله لعباده بل تفرض عليها الانصهار والذوبان وإلا فالتقتيل والتنكيل يكونُ من نصيبها.

أم هوَ أن يكفِّرَ أحدُنا الآخر ونضربَ رقابَ بعضنا بعضاً فتسري عدوى الحقد والكراهية إلى مجتمعاتنا وأوطاننا.

أم هوَ أن ترزحَ مجتمعاتنا تحتَ ركامٍ هائل من الأمراض الاجتماعية كالكذب والنفاق والغش والخداع والتحايل وغيرها من الأمراض حتى أصبحنا نتحرَّى الصدق والإخلاص عندَ غيرِ المسلمين في مجتمعاتنا نحن وفي البلدان الأخرى.

أم هوَ أن تنغلق عقول بعض فقهائِنا على فكرٍ جامد ورأيٍ واحد فيقيسون حالَ الأمة بمقاييس غير حكيمة ولا صحيحة ويلتف حولهم بعض الشباب الطائش او الجاهل فيغذونهم بأفكار تكفيرية متشددة لا تخدم نهوضَ الأمة بل توغِل في تخلفها وتراهم يدعونَ إلى جهادٍ بغيرِ أهله وفي مكانٍ غير مكانه وبوسيلةٍ غير وسيلته، فلا تحصدُ الأمة إلا مزيداً من التشتت والانكفاء والفوضى والفتن.

أليسَ الأولى أن يبدأوا بادئَ ذي بدءٍ بإصلاح شأنهم والالتفات إلى ما تعانيه

مجتمعاتهم من تخلف وجهل وانتشار للمخدرات وتلبُّك في العقيدة الحقة السمحاء.

أم هوَ أن يخشى فقهائنا وعلمائنا من قولِ الحق إما خوفاً من سطوةِ الحاكم أو طمعاً في قربهِ أو انقياداً إلى الغثاء الذي يغلبُ على مجتمعاتنا طمعاً في مركزٍ أو شهرة دنيوية لا تغني ولا تسمن من جوع.

أم هوَ أن يصل أسلوب التفرد والتسلط إلى النخب السياسية في بلداننا فتتوهم كل فئة أنَ الخير لا يجري إلا من بينِ يديها، لذلك من يصل منها إلى الحكم تكون تصفية الآخر وتهميشه هي السياسة الحكيمة الرشيدة الأولى التي تبدأ بها (ومن أجلِ مصلحة الشعب والوطن بطبيعةِ الحال).

أم هوَ أن تزحف جموعنا إلى مكاتبِ الاقتراع لنختار حكامنا للولاية الخامسة أو السادسة أو حكاماً أبديين وتكون النتيجة لصالحهم بنسبة تسعة وتسعون بالمائة ونقيم لفوزهم الأفراح والليالي الملاح، ونحنُ نعلم يقيناً أنهم هم سبب تخلفنا وبؤسنا وشقاءنا.

أم هوَ أن تحمل جالياتنا بؤسنا وتخلفنا إلى الخارج فتستغل خيمة حرية الفكر والعقيدة والتظاهر والإعلان عن نفسها التي تستظل بها في تلكَ البلدان لتنشر غسيل عارها وتشرذمها على الملأ هناك. وبدلَ أن تكون منارات للهداية والتنوير في تلكَ المجتمعات تكون بؤراً للتطرف والعنف والتخلف.

أم وأم. . . . . ليصلَ الأمر إلى كل جوارحنا وأفعالنا وسلوكنا وعباداتنا.

ثم نقول أن عدونا هي الصهيونية وأمريكا.

وهل تركنا لهم شيئاً ليفعلوه؟؟

إن الجسد إذا كانَ فقدَ مناعتهُ كلياً وأصابهُ الوهن والسقم والوجع في كلِّ عضوٍ فيه، ولا يزالُ يتمرغ في الوحل فماذا بعدَ ذلك؟؟ هل يقولُ فلانٌ عداني بالبرد.

هل من وقفةٍ إذن؟؟

ألم يحنِ الوقت ليصطف عقلاءُ الأمة وحكمائها وعلماؤها معاً ليتدارسوا

واقعَ الأمة المرير في كلِّ أصقاعها وبقاعِها دراسةً تكونُ أولَ اهدافها كشفَ الواقع وتعريته كما هوَ رضيَ الحكامُ بذلكَ أم غضبوا؟؟

ويكون الهدف أيضاً وضعَ الإصبع على مواضعِ الجرح والألم حسبَ خطورتها وأهميتها.

ويكون الهدف كذلك الاتفاق على أفضل سبل العلاج والأسرع تجاوباً والأمضى تأثيراً.

كأن تشكل المؤسسات التربوية والعلمية والإرشادية من أجل تطوير مناهج التعليم والبحث العلمي والديني وأن تطالبَ الحكومات بتخصيص ميزانياتٍ لذلك تضاهي تلكَ المخصصة لدوائرِ الأمن والمخابرات.

وأن تعادَ هيكلة اقتصادياتنا لتخدم مقومات النهضة الحقيقية في كلِّ مرافق الحياة وليسَ العمرانية والخدمية منها فقط.

ألم يحنِ الوقت لحكامنا أن يتعلموا من دروسِ الماضي القريب وأن يتعظوا بمصيرِ من كانَ يجالسهم من الحكام ثم تمَّ إقصائهم من قبلِ مناوئيهم فقُتلوا أو غُيِّبوا في السجون أو لحقِت بهم لعناتُ شعوبهم في قبورهم... فيفسحوا المجال لغيرهم ويتركوا لشعوبهم متنفساً للتفكيرِ بمصائرهم وطموحاتهم؟؟

أم أنَّ العقلَ الراجح والرأي السديد والقولَ الرشيد حكرٌ عليهم دونَ خلقِ الله؟؟ وأنَّ الله اصطفاهم للحكمِ دونَ عباده؟؟

أخيراً...

يجب أن لا نظلمَ جهود بعضِ علمائنا ومفكرينا ودعاتنا الذين انتبهوا إلى محنةِ الأمة فأسسوا مراكزَ للتنوير الفكري بجهودٍ فردية.. أو نظموا لقاءات فكرية جماهيرية أو ألقوا محاضرات تثقيفية، تخدم ما تصبوا إليه الأمة وما تحتاجه.

ولكنها مهما بلغَت من الكمال والرقي تكادُ لا تشكل نقطة في بحر لأن الجرحَ بليغ والفتق كبير يحتاجُ إلى استنهاض كل الجهود التي تمتلكها الأمة، الفكرية منها والمالية والتنظيمية وأن يتم التعامل مع المحنة باسلوب منهجي علمي رصين وهادف بعيداً عن كل المهاترات والمزايدات السياسية الجوفاء.

١٣ - لا تزرع الشوك في أرضك...

الأرض لا تعطي ثماراً من عدم.

تصور أن قطعة الأرض هذهِ هيَ كل ما تملك من حطامِ الدنيا، وبجوارها يمر نهر يمكنك الوصول إليه وشق جدول منهُ إلى أرضك.

وليسَ لكَ من الأمرِ إلا أن تعيشَ في هذهِ الأرض وتموت فيها.

لا يمكنك استبدالها أو توسيعها فهيَ لكَ كما هيَ، وعليكَ أن تجاهدَ من أجلها بل تُجاهد فيها من أجلِ نفسك، ولكَ في ذلك سبيلان لا ثالثَ لهما.

السبيل الأول:

أن تستثمر عقلكَ وما حباكَ اللهُ بهِ من فنون ومعرفة وتشمِّر عن ساعد الجد لإعمار هذهِ الأرض. فتذهب إلى النهر الذي يستمد ماءهُ من معينٍ لا ينضب فتشق منهُ جدولاً إلى أرضك وتجاهد أن يكون جريانهُ سلساً مدراراً وتنظِّم تدفقهُ ووصولهُ كلما دعت الحاجة إلى ذلكَ، فأنتَ تعلم أنَّ أرضكَ بدون هذا الجدول الذي يمدهُ لن يكونَ إلا كَفَلاةٍ قاحلة لا تنبتُ لكَ زرعاً ولا شجراً.

ثَمَّ تأخذ من الجدول سواقي إلى كل أركان أرضك فلا تترك منها مكاناً إلا ويصلها الماء سهلاً ميسوراً.

ثمَّ تُقَسِّم أرضك إلى قطع متجاورات وتخطط كيفَ ومتى تحرث كل قطعة وبماذا تزرعها ومتى تسقيها وكيفَ تتعهدها بالعناية والتنظيف وتزيل العشب الضَّار منها وتقلع الشوك عنها ومتى تحصد زرعها وتجني ثمرها وتجمع غلتها.

هذهِ القطعة لقمحك وتلكَ لفولكَ وثومكَ وعدَسكَ وبصلك وقثَّاءك وأخرى لرمانك وعنبك ورطبك وتينك وزيتونك وهذهِ لوردكَ وريحانكَ وتلكَ لداركَ ومغتسلك.

فتقعد معَ إطلالةِ كلِّ فجر وتدخُلَ جنتك تحرث أرضاً هنا وتسقي أخرى

هناك، تُقَلِّم شَجَراً هنا وتقلعُ شوكاً هناك، وأنتَ رغمَ جهدكَ وتعبك منشرح الصدر مرتاح البال.

حتى إذا قدِمَ المساء ودنى الليل تضرب برجلك إلى مغتسلك ثمَّ تأكل من طعامك وشرابك وتأوي إلى فراشك وأنتَ تشكرُ فضلَ الله عليك.

وتكون قبلَ ذلك قد أقمتَ جداراً حول أرضك فلا تصل عينك أو يدك إلى ما متعَ اللهُ بهِ من هُم إلى جوارك ولا يمتد أذاكَ وضرّك إليهم، ولا يعبر منهُ إلى أرضك ايضا لص متسلل أو غاصب مقتحم.

وعندما يحينُ موسمُ الحصاد وجني الثمار تكون حقولك زاهية بسنابل مثقلة من حبِّ الحصيد وتكون أشجارك قد تدلَّت أغصانها بثمارٍ قد حانَ موعدُ قِطافها فتمتلىء بيادرك ومخازن غلّتك وثمارك ويكونُ لك نصيبٌ كبير من الانشراح والاطمئنان فتسجد للهِ شاكراً لأنعمهِ عليك.

السبيل الثاني:

أن يكون الكسَل والبطر قد شلَّ جسدك وعقلكَ فلا تحس بقيمةِ أرضك فلا تبذل شيئاً من العناء لشقِّ جدول من النهر إليه وإن فَعلت لا تجاهد أن يكون ماؤهُ مبذولاً دونكَ أبداً لأنَّ الجدول الذي شققتهُ يكونُ واهياً يسلكهُ الماء يوماً وينقطع عنهُ أياماً فيكون وجودهُ كعدمه.

ولا تخطط كيفَ تعمر أرضك، تضرب فأساً هنا وأخرى هناك تبذّر حبَّكَ وتغرس غرسكَ في غيرِ موسمه وحتى عندما يأتيكَ الماءُ يوماً فإنهُ لا يصل إلى كل أرضك لأنَّكَ تركتهُ دونَ تسوية أو تعديل أصلاً.

لا تقعد من نومكَ إلا بعدَ أن تكون الشمس فوق رأسك ثمَّ تفتح جفناً وتغلق آخر وتقوم من فراشك وأنتَ تجرُّ قدميكَ وراءك ولا تكادُ تدخل أرضَكَ حتى تخرج منها متذمراً ثمَّ ترمي بنفسك في ظلٍ واهٍ لشجرةٍ يابسة في طَرَفِ أرضك.

وعندما يحينُ موسمُ الحصادِ وجني الثمار لا يكونُ لكَ نصيبٌ كبير منها أو لا يكون لكَ نصيبٌ البتة، فيأكلُ الهمُّ قلبك ويجثمُ على صدرك فيزدادُ كسلكَ ويقلُّ عملك وتنظر بعينٍ حاسدة إلى جيرانكَ فترى نظارةَ زرعهم وينع ثمارهم فتمتد يدكَ لتسرق وتسلب ما ليسَ لك.

وتتصلب أرضك ويغزوها الشوك والعشب الضار فقد تركْتَها تنموعلى سجيتها وهواها فلا تكونُ لك القدرة اليوم على قلعها واجتثاثها، وتزحف عليك الأشواك كما الطاعون لتحاصِرَك في موضع نومك وراحتك.

وتصبح أرضك في النهاية كغابة مظلمة متشابكة من الشوك لا خيرَ فيها، فتزداد نفسك انقباضاً ويزداد خلقك سوءاً وجفاء.

استثمر لحياتك وليس لمماتك

حياتكَ كقطعةِ الأرض تلك ليس لكَ سبيل إلى استبدالها بأخرى أو مدها لتتسع أكثر، ولكل نفسٍ أجلٌ وكتاب وإذا جاءَ أجلك فلا تتسع حياتك لساعة أخرى.

وليسَ لك أو لأحد من العالمين معرفة كم تتسع حياته وكم تشغل حيزاً في جدارِ الزمن، يمكنك أن تثبت انطلاق حياتك من ساعة مولدك ولكنك لن تدري أينَ ومتى تتوقف، بعدَ ساعة أو أقل من ذلك؟؟ ربما، بعدَ شهر أو سنوات أو عقود؟؟ عِلم ذلكَ عند الله وحده سبحانه وتعالى.

ولأن لكَ زمن مقطوع تعبر منه فعليك استثمار هذا الزمن كله وأن تبذل فيه كلَّ جهدك من أجل أن تكون حياتك حياةً مثمرة.

وإذا كانت حياتك كقطعةِ الأرض تلك فإنَّ النهر الذي يمر بجواره هوالمنهج الرباني الذي لا تستقيم حياتك بدونه، والجدول الذي تمده إلى أرضك هو ما يصلك بهذا المنهج لتستقي منه فهم وتصحيح عقيدتك وتنهل منه صدق توجهك لخالقك واخلاصك له في طاعتك وتستمد منه أيضاً ما ينير دربك وينظم حياتك ومعاملاتك ويقوِّم سلوكك.

وليس لك في حياتك إلا سبيلين لا ثالثَ لهما.

السبيل الأول

دوام الصلة بمنهجِ الله وعدم الانقطاع عن التزود منه، والمجاهدة أن تكون المسالك التي توصلك بهذا المنهج نقية صافية لتضمن أنَّكَ تتزود من أصل المعين ولا تختلط بهِ قبلَ أن يصلَ إليك شوائب من البدع والتشويه أوِ التشدد الذي لا

ينسجم معَ أصلِ المنهج.

ثمَّ تُنظِّم وقتك بينَ طاعاتك وعباداتك وبينَ سعيكَ لرزقك وأمور حياتك فلا يذهب وقتكَ هباء.

وتسعى قَدَمكَ للخيرِ أينما وجد وتمتنع عن طريقِ الشر فلا تضرب فيهِ خطوة واحدة.

وكما امتلأتَ بيادركَ ومخازن غلالك وسِلالُ ثماركَ من سعيك في أرضك يمتلأ ميزان حسناتك بالطاعات والصدقات وأعمال البر فتكون استثمرتَ حياتكَ الدنيا لحيوانك كما أرادكَ الله أن تفعل.

وتكون قبلَ ذلك قد سوَّرتَ حياتك بحدود الله فلا تعتديها، فتسكنك الطمأنينة وتتفرَّغ لطاعتك وعملك بنفسٍ راضية وقلبٍ مفعم بالإيمان تماماً كالذي يقيم جداراً حولَ أرضهِ يقيهِ شرَّ اللصوص والضواري فيتفرَّغ لعملهِ بجدٍ ونشاط فيكون جهدهُ كلهُ مبذولاً لاستدرار الخير من أرضهِ لا لدفع الشر والأذى عنه.

السبيل الثاني

أن تعيشَ ليومك وتعمل لدنياك وتكون الأواصر التي تربطكَ بمنهجِ الله ضعيفة وواهية بل كثيراً ما تنقطع فلا تكترث لذلك ولا تذهب نفسك حسراتٍ على انقطاعكَ عن معينِ المنهج.

ولا تصرف عينك ولا تَكفَّ يدك في الإضرار بنفسك وبالآخرين، تضرُّ بنفسكَ لأنَّكَ تقبلُ أن تعيشَ حياتك عيشة الحيوان تركض في البراري ركضَ الوحوش ولا تلتفت إلى المنزلة التي أنزلكَ الله فيها من دون مخلوقاتهِ فَكرَّمَكَ وسخَّرَ الكونَ لك وأعطاكَ عقلاً لترتفع بنفسكَ من حظيرةِ الحيوانات إلى منازل عاليه كريمة ولكنكَ أبيتَ إلا أن تكونَ في الحظيرة تتمرَّغ في وحلِ الرذيلة والمعاصي.

فالأصل في رُقيِّ الإنسان أن يستخدِمَ عقلهُ في معرفةِ خالقهِ ويُطَرِّزَ هذهِ العلاقة بالانقياد التام لهُ سبحانهُ وتعالى وأن يمتثِلَ للأوامر والنواهي التي أنزلها على لسانِ أنبياءهِ ورُسلهِ أو بثَّها في كتبهِ وفي منهجهِ الخاتم. ولكنكَ استثمرتَ واستخدمتَ غرائزكَ فقط وعطلتَ عقلك.

وتضرُّ بالآخرين بالتعرض لأموالهم وممتلكاتهم وأعراضهم ومَن وَقفَ في وجهِ طمعكَ ومجونكَ لا يضرُّكَ أن تدوسهُ بقدمكَ لتصلَ إلى مبتغاك.

ويكونُ حالُكَ بعدَ حين كَحَالِ الذي أهملَ أرضهُ كسلاً أو لهواً وبطراً فكانَ أن تحوَّلت إلى غابة من الشوك بدَلَ أن تكون جنَّة ذات ثمر وفير وظلٍ ظليل.

وتتراكم على قلبكَ الذنوب والمعاصي والآثام فتحاصر قلبك وتكتم أنفاسك وتأخذ كل هذهِ الأثقال معك بعدَ ذلكَ إلى قبرك.

تخيل أنك وقد اهملت أرضك فنمى الشوك فيها لسنوات وعقود ثم قمت تجمع الشوك كله وتدسه في جحر ضيق ثم تجاهد أن تحشر نفسك داخل الجحر رغم لسعات الشوك التي تدمي جسدك كله وبعد أن تستقر فيها تضرم النار في الشوك فتشب النار فيها وتكون أهلكت نفسك بنفسك.

ان هذا خلاف المنطق والعقل ولا يكون التفكير فيه حتى، الا ضربا من الجنون.

وأيم الله إن من لا يعير اهتماما لحدود الله ولا يقيم حكمه - بأوامره ونواهيه- في نفسه ورزقه وأهله وكل مسالك ودروب سعيه في الحياة وقبل ذلك مع ربه وخالقه يكون حاله أقسى وأشد من حال جامع الشوك في الجحر الصغير.

واعلم أن السعي الحي هوالسعي الذي تكون الغاية والمبتغى فيه هوطلب رضوان الله وثواب الآخرة واعلم أن كل سعي يلتصق بالأرض وحظوظ الدنيا فقط، فتكون هي الغاية والهدف لا يكون الا سعيا ميتا لا روح فيه ولا يقود الا الى الهلاك وسوء العاقبة.

١٤- لا تقنطوا من رحمة الله ...

الشمس وهي آيةٌ من آيات الله وخلقٌ من خلقه بدونها لا تصحُّ الحياة فلا ماء ولاشجر ولا بشر ولا حيوان. ومِن لطفِ اللهِ بعبادهِ أنَّه لم يجعل ضياءَ الشمس أو افولهُ سرمدين إلى يوم الدين، بل جعلَ تعاقبهما منتظماً فالشمس تجري لمستقرٍ لها ذلكَ تقديرُ العزيزِ الحكيم وجعلَ النهارَ معاشاً والليلَ سباتاً.

والماء الذي ينزلهُ الله منَ المزن فيحيي بهِ الأرضَ الميتة لهُ مواسمٌ وفصول ومناطق يكثر فيها ومناطق يغيبُ عنها وكل ذلكَ بعلمِ الله ومشيئتهِ.

ولكن رحمة الله وهيَ تغمر الأرض فإنها رحمة نافذة لا يحول دونها حائل ولا ممسك لها ولا مانعَ من دونِ الله سبحانهُ وتعالى. ورحمةُ الله لا مواسمَ لها ولا فصول بل هيَ تهطل على الأرض والسماء أناءَ الليل وأطراف النهار فتصل إلى الجنين في رحمِ أمهِ وتصل إلى العابد في جوفِ المغارة والعامل خلفَ الآلة والتلميذ على مقاعد الدراسة وتصل لمن ينفذ في أقطار السماوات أو يغوصُ بعيداً في أعماق البحر، وتصل إلى البذرة في باطنِ الأرض والورق في غصن الشجر والدابة وهي تقطع الصحارى من بلد إلى بلد.

إنَّ رحمة الله وسعت كلَّ شيء، وكل شيء هنا هوَ الكون وما فيه.

ولايمكن لأي جبَّار - مهما علا في الأرض أو استكبر- أن يمسك رحمة أرادها الله بك، يمكنهُ أن يحجب عنكَ ضياءَ الشمس بل يمكنهُ أن يحجب عنكَ الهواء حتى، فيضعك في غياهبِ السجن ويقنن عليكَ الهواء وإن شاءَ يمنعهُ عنكَ فتموت مختنقاً في ظلام السجنِ الدامس، ولكنهُ وهو يفعل ذلك فإنَّ رحمة الله تدركك، تخترق حصونهُ وتخترق الحراسة المشددة المخيفة التي أقامها الظالم من حولك، فتنزل عليكَ سكينة من الله ويمتلئ قلبك بالطمأنينة والرضى بما قدرهُ الله لك فيكون توجهك وتضرّعك وودك للرحمن وحده.

ويظن هذا الظالم المستبد أنهُ يسيئ إليك بينما أنتَ تبني لنفسكَ قصوراً في

الجنة بصبركَ وطاعتك وتعلقك بالله ربك الرحمن الرحيم.

ورحمة الله تُدرِك الناس جميعاً لا تفرق بينَ نسب وعرق ومنزلة، تُدرِك الجميع إلا من أبى، وهل يأبى أن تُدركَهُ رحمة الله إلا الكَفُور.

ورحمة الله تسبق غضبه وهوَ سبحانهُ يرسل لعباده فيضاً إلهياً من رحمتهِ فيردَّها العبد بالمعصية فيمدَّهُ الله بقبسٍ جديد فيردَّهُ العبد بالجحود، فيغمرهُ الله بقبسٍ آخر فيردَّهُ العبد بالظلم، حتى يهلك وهوَ على المعصية فلا تدركه رحمة الله ويستحق غضبهُ سبحانه لأنَّهُ أبى أن يؤمِنَ بالله واستكبرَ عن عبادته وتعدَّى حدوده في نفسه وفي الناسِ أجمعين.

إنَّ العبدَ ليسلك سبيلَ المعصية ويتفنن فيها ويمشي في طريقِ الضلال فيتيه في دروبه ثمَّ يستدرك بعدَ حين، فيرى أنَّهُ قد أسرفَ على نفسهِ بالمعاصي والآثام من كلِّ لون، وينظر خلفهُ فيرى أنَّه لم يترك موضعَ قدم إلا وقد كبَّ فيها قذارة من قذارات معاصيهِ حتى تراكمت من حولهِ أنقاضاً وتلالاً فيدركه اليأس والقنوط لأنهُ ينظر إلى الأمر بمنظارٍ بشري فيتخيَّل أنه لو أذنبَ في حقِّ رجلٍ من الناس فلم يترك سبيلاً إلى إلحاقِ الأذى بهِ إلا وقد أتاه، من اعتداءٍ على مالهِ وعرضهِ وإيذاءٍ لهُ في نفسهِ وبدنهِ فهل يملك من شفيعٍ عندهُ بعدَ ذلك؟؟ حتى لوِ اعتذر، ويعتذر عن ماذا؟

هذا العبد وقد أسرفَ على نفسهِ لا يدرك أنَّ المقياس البشري لا يصح ولا يقارن معَ مقياس الرحمن، ويأتيهِ هاتفٌ رباني وهوَ في قمةِ يأسهِ وقنوطهِ: لا تنظر خلفك، انظر أمامك ها هوَ بابُ التوبةِ مفتوحٌ دونك ليس عليهِ حاجبٌ يمنعك من دخولهِ ولا تحتاجُ إلى وسيطٍ يتوسط لك، فاضرب برجلك وهرول نحوَ باب التوبة ستلفك نسمة رحمانية رطبة منعشة بمجرد ولوجك الباب وسيغمركَ اللهُ بواسعِ مغفرته.

إنَّها الرحمة الواسعة التي تنتظر العصاة وتسع كل معاصيهم كائنة ما كانت، وإنها دعوةٌ ربانيةٌ مباركة لهم وهم في هذا التيه من المعصية والضلال إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله بعدَ التوبة.

إنَّ الله رحيمٌ بعباده وهوَ يعرف ضعفهم أمامَ مغرياتِ الحياة وعجزهم عن

مقاومتها، ويعلم أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوء فهيَ تضغطُ عليهم دوماً للتلذذِ بملذاتِ الدنيا ولا تأبه في ذلك بحلالٍ دونَ حرام فالمهم عندها الحصول على اللذة والمتعة المجردتين ليسَ إلا.

ويعلمُ الله سبحانهُ أنَّ الشيطان يوسوسُ لهم ويترصد لهم ويأخذ عليهم كل طريق ويضيِّقُ عليهم الخناق بخيلهِ وجنده حتى يحاصرهم فلا يترك لهم مهرباً، فيختل توازنهم ويقعون في المعصية.

نعم إنَّ الشيطان جادٌ كلَّ الجد في عملهِ وهوَ بارعٌ في التخطيط للإيقاع بضحيتهِ، وهوَ يعلم أنَّ بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه ويعرف مواطن الضعف فيه، وهوَ مطلعٌ كلَّ الإطلاع على ما رُكِّبَ في كيان هذا المخلوق من وظائف وميول وشهوات ويعرف كيفَ يطرقُ عليها ومتى وبماذا؟

يعلم الله سبحانهُ عن عبدهِ كلَّ هذا فلا يتركه في تيه الضلال ووحشة المعاصي بل يمد لهُ العون ويوسع لهُ في الرحمة.

إنَّ الله واسعُ الرحمة والمغفرة ولا يترصد لعباده حتى إن جاءَ أحدهم بمعصية أخذهُ بها. بل تركَ بابَ التوبة مفتوحاً وهيأ لعباده جميعَ الوسائل ليصلحوا خطأهم ويصححوا خُطاهم ويضعوها على الصراطِ المستقيم.

بل حتى بعدَ أن يَلُجَّ العبد في المعصية ويسرفُ على نفسهِ بالذنب حتى لَيَظُن أنَّهُ مطرودٌ من رحمةِ الله ولا تقبل لهُ توبة ولا أوبة، في لحظاتِ اليأس والقنوط هذهِ يأتيه الهاتف الرباني طرياً نديًّاً لا تقنط من رحمة الله، عُد إلى أفياءِ الطاعة وظلالِ الاستسلام والانقياد التام لله ربك وخالقك.

وقد يتوقف العبد لحظة عندما يستشعر المقياس البشري أيضاً لمن يعود إلى عشيرته بعدَ عصيان لها أو يقع في قبضةِ من كانَ يسومهم سوءَ العذاب فيرى كيفَ انَّ الذلة والمهانة والخنوع والتشفي تكون لهُ بالمرصاد ولا يرى عندهم بصيصاً من رحمةٍ أو شفقة.

فيأتيهِ الهاتفُ الرباني مجدداً كفاكَ عبدي تردُّداً، الذل والخنوع والانكسار هوَ في بقائكَ في المعصية والسعادة والعز يأتيكَ بعدَ ولوجكَ من بابِ التوبة، فلا تُفوِّت عليكَ الفرصة ولا تسمع لوسوسةِ الشيطان فإنَّ رحمة الله تسعك بكلِّ

ذنوبك حتى لو أتيتَ الله بقرابِ الأرض خطايا ولا تشرك بهِ شيئاً سعتكَ رحمته وشملتكَ مغفرته.

ففي المقياس الرباني يكون التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وتكون كمن أحرق كل تأريخه ومعاصيه قبل أن يلج باب التوبة، فتلقى الله عز وجل كما ولدتك أمك نقيا طاهرا مقربا منه سبحانه، لا أحد يعيّرك بما مضى من عمرك قبل التوبة، ولا أحد يسخر منك فأنت في ضيافة الرحمن مشمول بمغفرته.

فهيا اغتنمِ الفرصة فإنَّكَ لا تدري كم تملكُ من وقتٍ في الدنيا وقد يفصل في الأمر فَيُغلقَ بابُ التوبة دونك في أي لحظة من لحظات الليل والنهار فتذهب بعدها نفسك حسراتٍ على ما فرَّطتَ في جنبِ الله.

هيَّا تُب إلى الله خالقك وارجع إلى المنهج الذي أرادهُ الله لكلِّ عباده. المنهج القرآني الذي هوَ أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، ومن فاتتهُ فرصة التوبة والأوبة إلى الله فإنهُ يكون قد تبوَّأ مقعدهُ من النار وهوَ لا يشعر.

كفاكَ تفريطاً في حقِّ الله وسخريةً بوعده، فإنَّ وعدَ الله حق فلا تغرَّنك الحياة الدنيا ولا يَغرنَّك بالله الغرور.

إنَّ الله لا يريدك أن تضلَّ أو تشقى بل يريدُ لكَ الهداية وقد تركَ بابَ التوبة مفتوحاً فإذا أبيتَ إلا أن تقفَ وراءَ الباب وأبيتَ إلا أن تضلَّ وتشقى فلا تلومنَّ إلا نفسك.

واعلم أيُّها العبد إذا انتهت حياتك وأنتَ على معصية فلا كرَّة ولا رجوع إلى حياةٍ ثانية لتصحح مساركَ وتمحي خطاياك، ها أنتَ في دارِ العمل فاعمل لدنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً واعمل لآخرتكَ كأنَّكَ تموتُ غداً.

إنها حياةٌ واحدة، وفرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٣ _ ٥٩].

حديث قدسي: «من جاءَ بالحسنة فلهُ عشرُ أمثالها أو أزيد، ومن جاءَ بالسيئةِ فجزاء سيئةٍ مثلها أو اغفر، ومن تقرَّب مني شبراً تقربتُ إليهِ ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً تقربّتُ منهُ باعاً، ومن أتاني يمشي أتيتهُ هرولة، ومن لقيني بقرابِ الأرض خطيئة، ثمَّ لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة» سنن ابن ماجه.

١٥ - محنة اليتيم.. وأجر الكافل

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي -الذي نشأ يتيماً فعرفَ كيف يكون حالُ اليتيم وكيف يكون ثوابُ من يكفله ويرعاه كما يراعي أولاده من صلبه- وعلى آلهِ وصحبه وسلم.

قصة يتيمين . .

جاء رجل إلى سوق المدينة يسعى قال: من يدلني على أهل بيت من المسلمين كرامٍ بررة، يخشونَ الله ويطيعونه فيما أمرهم، ويسعونَ للخير طمعاً في رضوان الله وجنته؟؟

قال له الناس: وما خطبك أيها العجوز؟؟

قال: كانت لنا مساكن وزروع ومقام كريم عندَ قدم جبل فانهارت حافته وتساقط علينا وابلٌ عظيم من الحجارة أتت على كل شيء وطمرت مساكننا وزروعنا وأنعامنا وأسواقنا تحتَ ركامٍ هائل من الطين والحجارة، وكنت وقتها وحفيديَ هذين في جنةٍ لنا بربوةٍ عاليةٍ في الطرفِ الاخر فكنا الناجين الوحيدين من دون الناس أجمعين. وأنا رجلٌ بلغتُ من الكبر ما بلغت وقد أصابني الضعف والوهن ولم تعد لدي قدرة على الكسب والعمل، وأخشى أن يتوفاني الله وأترك حفيديَ دون راع. فأنا أبحث عن بيتٍ كريم يتكفلهما ويكون لهم الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى.

كان يمسك بإحدى يديه طفلاً دونَ الثامنة من عمره وفي اليد الأخرى طفلة لم تكمل عامها الخامس بعد، يخيم عليهما الشرود والارتباك والقلق، فعقلهما الصغير لم يستوعب حجم الكارثة التي أودت في لحظات معدودات بكل أحبائهما وعلى رأسهم أقرب المقربين إليهما (أبويهما).

وهما ينزلان من الربوة مع جدهما بعد الكارثة لم يكن بإمكانهما أن يميزا موقع بيتهما الجميل الذي نشآ فيه ولعبا في فنائه. كانت المنطقة برمتها عبارة عن

أكوام ضخمة من الحجارة والطين بحيث تعذر على جدهما أن يجد سبيلاً إلى حيث كانوا يسكنون فالوادي كله مدفون تحت الصخور، ومن ينظر الآن لا يدرك أنه كانت ثمة مساكن وأسواق وبساتين في هذا الوادي قط.

لا زالت أصوات الانهيار وتلاطم الصخور وأصوات الاستغاثة- التي علت ثم سرعان ما خفتت وانقطعت بعد لحظات من الانهيار- ترن في أذنيهما ومنظر الانهيار المخيف ماثل أمام عينيهما وهما يريان الحدث من فوق الربوة، فتمسكا بجدهما وهو أمام حشد من التجار في سوق المدينة التي قصدها بعد أن جرى لمدينتهم الصغيرة ما جرى.

إنهما لا يدركان الآن أنّ الشجرة الكبيرة التي كانت في فناء دارهما وكانا يتفيئان بها ويلعبان حولها قد اجتثت ولم يعد لها من قرار وأن الدار نفسه صار حطاماً وركاماً تحتَ الأنقاض.

ولا يدركان أن خيمة الحنان (أمهما) التي كانا يلجآن إليها ويدسان نفسيهما في دفئ أحضانها قد تمزقت وصارت أشلاء، ولا يعيان أن فقد الخيمة يعني الكثير!! فأما أن يبقيا تحت قيض الشمس أو قرص البرد بدون خيمةٍ أبداً، أو تكون لهما خيمة أو خيام مؤقتة لا يعرفان متى تطوى من على رأسيهما أو كيف يكون الحر والبرد تحتها.

لا يدركان الآن أن الأمر بالنسبة إليهما لم يعد إلا لقمة تلقى في جوفهما أو كسوة تكسى بها جسدهما فإن نبع حنان الأم قد سدّ دونهما، وهل يمكن لمن في عمرهما أن يعيش بلا حنان ودفئ الأمومة؟؟

الخطب عظيم والأمر جلل فالأب الذي كانا يلعبان على صدره وكتفيه قد غابَ عنهما هوالآخر وإلى الأبد. من يمدهما بالقوة والعزم من بعده؟؟ ومن يوفر لهما ما يبغيان من متع الطفولة البريئة أو احتياجاتِ الصبا والمراهقة؟؟

عقلهما الصغير لا يستوعب بل لا يدرك أصلاً حجم محنتهما، إنهما في ذهول وارتباك يتمسكان بأهدابِ جدهما بقوة لا يتركانه لحظة واحدة فالدنيا صارت غريبة أمام عينيهما وتلاحق الأحداث يزيد من حيرتهما ومخاوفهما والشخص الوحيد الذي يربطهما بالزمان والمكان الذي يعرفان هو الجد.

لا يفهمان ما هو المصير أو المستقبل أو الغد!!

سيتركهما الجد - العاجز أصلاً - فيكونان من بعده كمن تاهَ في الصحراء لا يعرفان طريقاً أو سبيلاً يسلكانه وليس بمقدورهما أن يدفعا عن نفسيهما شرَّ طوارق الليل والنهار.

لا يربطهما بالبيئة الجديدة أي رابط.

إنهما عصفوران غضّان سقطا من عشهما ولما تشتد وتقوى أجنحتهما ليصبحا فريسة سهلة للقوارض والزواحف من الحيوانات، أو يهلكهما الجوع بعد أن فقدا من كان يرطب جوفهما بما يقذفُ فيه من طعام.

بعد أن تخفت قسوة الحدث ويخبو هول المنظر في وجدانهما وبعد أن يفارقهما الجدُّ الحنون ستبدأ مأساتهما، يلتفتان يمنة ويسرة فلا يجدان وجهاً واحداً يألفانه من قبل... كل الوجوه غريبة... كل الأماكن كئيبة.

في اليوم والليلة سيحتاجان إلى أمهما عشرات المرات فإلى من يلجآن؟؟ إلى غريبٍ ملكَ أمرهما؟؟ أو إلى امرأةٍ تستغلُ طفولتهما وبراءتهما؟؟

سيبحثان عن أمهما فلا يجدانها ولا يجدان من يمنحهما ولو جزءاً بسيطاً أو قبساً خافتاً من حنانها وعطفها.

سيبحثان عن أبيهما كلما اشتدت بهما رغبة لتحقيق حلم طفولي صغير فلا مجيب ولابديل.

أينَ تنتهي بهما الأيام؟؟

في دارٍ للأيتام؟؟

يوفر المأوى والملبس والمأكل فحسب؟؟ وحيث يفتقدان فيه إلى حنان الأم وعطفها، ومداعبات الأب وحرصه، وحنو الجد والجدة.

سيشتاقان إلى كل شيء فقداه، وستكون حياتهما في دار الأيتام رتيبة مملة. سيضطران إلى مشاركة أطفال آخرين لا يعرفونهم في غرف النوم وقاعات الطعام، سيكون المكان بالنسبة لهما أشبه بالسجن بالمقارنة مع بيتهما الجميل وفنائه الكبير وفضاء الحرية الذي كانا يملكان.

أم يكونان في كنف أسرة جديدة؟؟

قد يكون رب الأسرة رحيماً وتكون الزوجة قاسية أو عكس ذلك أو كلاهما قساة، أو يكون كلاهما رحيمين شفيقين ويكون أو لادهما قساة لا يفهمون من البر باليتيم شيئاً ويجدان في اليتيمين دخيلين على أسرتهم فيجعلانهما مادة غنية للسخرية والإستهزاء وحتى القسوة.

والدخيل لا يكون كالأصيل، فإذا حدثَ لغط في الأسرة فإن اليتيمين هما السبب، وإذا كُسِرت حاجة ثمينة من حاجاتِ البيت فأحد اليتيمين يكون من كسرها وإذا فقد للأسرة شيء فإن أحد اليتيمين يكون سرقها، وعندما يهرعان لرب الأسرة أو زوجته ليقولا أن هذا بهتان بحقهما وبدل أن يجدا من يعينهما على إظهار الحق يكون التعنيف والتوبيخ هو ما ينتظرهما مع التأكيد أن اولادهم لا يكذبون!!!

عقلهما الصغير لا يميز كثيراً ما الفرق بينهما وبينَ أولاد الأسرة.

لذلك فإنهما يتسائلان في سرهما دوماً:

لماذا تكون المزايا والهدايا لكل الأولاد دونهما فقط؟؟ لماذا لا يجدان أذرعاً مفتوحة لاستقبالاهما بالأحضان كلما مرا بموقف صعب شعرا عنده بحاجة إلى من يلجآن إليه بينما الأولاد الآخرون لهم ذلك؟؟

عندما تأتي الأعياد والمناسبات، لماذا تعطى لهما الكسوة القديمة بينما تشترى للآخرين كسوة جديدة؟؟ ألا يعيشون تحتَ سقفٍ واحد وفي كنف أسرة واحدة؟ فلماذا هذا التمييز الظالم إذن؟؟

عندما يعود رب الأسرة من سفرٍ بعيد ويهرع الأولاد لاستقباله واحتضانه وتلقي هداياه ويهرعان هما أيضا فلماذا يصدهما الأب أو تعنفهما الزوجة قائلة: كفاكما إنهُ متعب فلا ترهقاه، أو يدفعهما أولاد الأسرة بعيداً قائلين لهما أنه ليس أباكما فابتعدا فيأويان إلى ركنٍ بعيد يبكيان؟؟

عندما يأتي أقارب الأسرة ويأخذون جميعَ الأولاد في أحضانهم، لماذا يستثنيان من ذلك ويتركان في زاوية من زوايا البيت ينظران إلى ما يجري أمامهما من مظاهر الفرح- دون أن يكون لهما سبيلٌ للمشاركة- بعيون تفيض بالدمع

وقلوب محطمة مملوءة بالحسرة؟؟

لماذا يكلفان بأعباء البيت رغم صغرهما دونَ بقية الأولاد وسنة بعد أخرى يكتشفان أنهما أصبحا خدماً لهذا البيت والأولاد الآخرون الذين كبروا معهم هم سادة يأمرون وينهون؟؟

كل يوم يمر عليهما هكذا يزداد ألمهما وشعورهما بالغربة والخذلان وتأخذهما الحسرة تلوَ الحسرة والغصة بعدَ الغصة.

إنهما وككل من في عمرهما بحاجة إلى العاطفة الحقة والحنان الصادق الذي يخفف عنهما مصابهما في فقد أبويهما.

أكلٌّ من يفقد أبويه يصبح هكذا ذليلاً يعيشُ على هامش الحياة؟؟

أم لأنهما لا يملكان من حطام الدنيا أيَّ شيء؟؟ ترى لو لم تدفن مساكنهما وبساتينهما وأموالهما تحتَ التراب، هل كانا يعاملان هكذا؟؟

هل يمكن أن يكون فِكرُ الناس ملتصقاً بالأرض وحطام الدنيا فتتدرج عواطفهم الإنسانية تجاه الآخرين صعوداً وهبوطاً على قدر ما يملكون أو الطبقة التي ينتمون؟؟

أين إنسانية الإنسان إذن؟؟

لوكانَ الطفلان اليتيمان يملكان عقلاً مدركاً وواعياً لطافت بمخيلتهما كل هذه التداعيات من تجارب من قد سبق. ولكنهما مجرد طفلين صغيرين وأنى لهما الإدراك والتمييز؟؟ فهما لم يألفا إلا دفءَ البيت وحضنَ الأسرة وليس لهما في غابة الحياة من سابقة.

المشهد الأخير من القصة

توجه العجوز والطفلين في جمهرةٍ من الناس إلى مسجد المدينة وقام شيخُ المسجد خطيباً بعدَ أن ألمَّ بالموضوع. فحمدَ الله وأثنى عليه ثم بيَّن للناس فضلَ الإحسان لليتامى وتلى من الآياتِ والأحاديث ما يدعمُ قوله. ثم قال للعجوز: أليسَ لديكم بقية من أهل فيكونُ الأولى أن يتكفلوا بذوي قرباهم. قال العجوز: كل أهلنا كانوا في المدينة وما جاورها وقد قضوا في الكارثة وبقيتُ أياماً على

تخوم الوادي المنكوب أتسقط الأخبار لعلي أخرج منها بخبر نفر من أهلنا لو كانوا مسافرين فيعودوا فنجتمع معاً ولكن لم تأتيني أخبارٌ عن أحد.

حثَّ شيخُ المسجد الناس أن يسارعوا إلى مغفرةٍ من الله وجنةٍ عرضها السماوات والأرض بكفالةِ الطفلين اليتيمين. قامَ رجلٌ وقال: أنا أكفلُ الولد. وقال آخر وأنى أكفلُ البنت. قال الشيخ: أليسَ فيكم من يكفل الإثنين فلا نفرِّق بينهما؟؟ فلم يقم من الناس أحد. وطلبَ ممن برز وقبل الكفالة أن يكفلَ أحدهما الإثنين. قالَ الذي كفلَ الولد: أنَّ كفالة البنت أمرٌ شاق لا قِبلَ لي على ذلك. وقالَ الثاني: لدي بناتٌ ثلاث وإنما أكفلُ البنت لتعيشَ بينهن.

أوصاهما الشيخ أن يتقيا الله في اليتيمين وأن يُحسِنا إليهما ويكونان لهما الأهل والعشيرة وأشهدَ من في المسجد على ذلك.

عندما أحسَّ الطفلان بما يحاك، علا صراخهما بالبكاء وطلبَ الولدُ من جدهِ أن يبقيهُ وأخته معه. قال الجد: يا بنيَّ أنا رجلٌ قد وهنَ العظمُ مني ولا أملكُ القوة للكسب ولا المال لتدبُّر أمركما فكن قوياً واذهب مع من كفلك ولكن أوصيكَ بأختكَ خيراً ولا تقطعها وتسقَّط أخبارها وزُرها كلما وجدتَ إلى ذلكَ سبيلاً حتى إذا كبرتَ واشتدَ عودك وقويَ ساعدُك ضمَّ إليك أختك وأحسن إليها وعوِّضها حنانَ الأبوين، ثم قبَّله في جبينه.

لمّا أحسَّت الطفلة أنَّ أخاها ذاهبٌ عنها علا نحيبها وصارت تدعو أخاها أنْ لا يفارقها وكانت تمسِكُ بتلابيب الجد بيد وتلوِّح باليدِ الأخرى لأخيها تطلبُ عودته حتى توارى عنها وهو يجرُّ قدميه بصعوبة والدمع ينهلُ من عينيه مدراراً.

تمسَّكتِ الطفلة بعنقِ جدها وهي تشهقُ من البكاء حتى نامت على صدره وهي تلفُّ عنقه بيديها الصغيرتين.

طلبَ الرجل الذي قبلَ أن يكفلها من أحد صبيانه أن يحملها إلى دارهِ ففكَّ يديها من رقبة العجوز وحملها كقطة أليفة تغطُّ في نومٍ عميق فقبَّلها جدها من جبينها وأخذها الصبي إلى خارج المسجد.

وتهالك العجوز بعدَها يجهشُ بالبكاء وتفرَّق الجمعُ من حولهِ وبعدَ لحظات رقدَ على أرضِ المسجد ولا ندري أرقدة نومٍ كانت أم رقدة أبدية.

وكانت محنة اليتيمين قد بدأت من تلك اللحظة.

هل فكرَ أحدُنا أن يكونَ أطفالهُ في موضعِ الطفلين اليتيمين؟؟؟

تخيَّل أنَّ كلَّ الذي ذكرناه آنفاً يجري مع أطفالك كيفَ تشعر وتتذ؟؟؟

البعد الأخلاقي القرآني للبر باليتيم

من عظمةِ المنهج القرآني أنَّ الله سبحانهُ وتعالى في الوقت الذي يدعو الناس لعبادته وحدَه تحقيقاً للغاية التي من أجلها خلقوا، يقرن هذه العبادة بأوامر ربانية أخرى قد لا تشكل عندَ الكثير منا اليوم هاجساً كبيراً في حياته، نتجاوزها بسهولة ولا نعتبرها أموراً خطيرة من صميمِ اكتمال الإيمان والعقيدة وتشكل هويتنا الإسلامية.

لننظر إلى قبسات من النور الإلهي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ... ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ... ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ... ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

ها هوَ الحقُّ سبحانهُ وتعالى يُصدر حكمهُ الإلهي في كتابهِ الحق المبين أنَّ العبادة لا تكون إلا للهِ وحده خالصة نقية لا تشوبها شائبة من شرك أو وهم أو كِبر، بل يقينٌ راسخ ورضوخٌ كامل، وأن يكون البر والإحسان للوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والإنفاق عليهم حباً لله وطمعاً في كرمه.

وكل مسلم كامل الإيمان يدرك أنَّ آياتِ القرآن وكلماته إنما جاءت متلازمة مترابطة، لكل آية أو كلمة موقعها وحسب ما أرادَ الله ووفقَ مشيئته لتعطي معنىً

كاملاً لمرادِ الله من تلك الآية أو تلكَ الكلمة.

القرآن الكريم كلامُ الله الذي أنزلهُ على قلبِ الرسول الكريم مُحمّد (ﷺ) ليكون منهاج الأمة ودستورها ومنبع الحكمة والرقي الإنساني لها وسر نهضتها، فالأمر الواجب الإيمان بهِ أن كلام الله وهو أصدق الكلام دقيق في ترتيبه وتسلسله وترابط معانيه. وورود بعض الأوامر والنواهي ان جاءت متلازمة فذلكَ يعني أن المسلم لا يكتمل إيمانه إلا باتباع هذه الأوامر والنواهي مجتمعة وإن جاءت تحتَ بنود مختلفة كالإيمان بالله وأداء الطاعات والسلوك والأخلاق.

والأمر الإلهي إنما يكون لرقي وسمو الإنسان ولامحاباة لله ولا فرق في هذهِ الأوامر بينَ أنبياءهِ ورسله وبينَ بقية الناس، وما يصدر عن اللهِ سبحانهُ وتعالى يجب أن يتنزه في عقولنا ووجداننا عما نجده في الأرض، فإن السلطان أو الحاكم إذا أصدر أوامر ونواهي فإن المقربين منه يجدون سبلاً وطرائقَ عددا لتجاوزها أو يختارونَ منها ما يلائم مصالحهم وهواهم ودونَ أن يطالهم غضبُ السلطان وعقابه.

ولله المثلُ الأعلى، ولنا في رسوله اسوة حسنة.

ألم يكن الرسول الكريم وهوَ حبيبُ الله وصفيه من خلقه أشد الناس إيماناً وأكثرهم لله طاعة وأحسنهم أخلاقاً ؟؟

نعم. لايمكن للمسلم الذي يسعى ويجاهد من أجل اكتمال إيمانه ويدعوالله أن يهديه إلى ذلك ويعينه على الثبات عليه ثم يقول: سأعبد الله حقَّ عبادته ولكني لن أبر بوالدي لأنهما لم يفعلا شيئاً لأجلي وإنما صنعت نفسي بنفسي!! أو يقول: لا شأنَ لي بذوي القربى واليتامى والمساكين سأتكفلُ بنفسي وأسرتي وليس لي شأنٌ بأحدٍ من خلق الله بعد ذلك.

وهل يمكن للمجتمع الإسلامي أن يبنى على هذا التفكير القاصر؟؟

ألم يقلِ النبي (ﷺ) في حديثٍ شريف: (مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثلِ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)؟؟ صحيح مسلم، **ألم يبلغنا النبي (ﷺ) :(لنْ يدخلَ الجنة قاطعُ رَحِم)**،صحيح مسلم. ألم يأمرنا أن نصل من قطعنا؟؟

وها هوَ اللهُ سبحانه وتعالى وهو يدعو إلى عبادته وعدم الشرك به يأمرنا بالصلاة وأداء الزكاة كما يأمرنا أيضاً وفي نفسِ السياق القرآني المبين بالبرِّ والإحسان للوالدين ولليتامى والمساكين.

من الهوان الذي لحق بهذهِ الأمة في هذا الزمان أنها وضعت حواجز بينَ العقيدة والسلوك. ففي الوقت الذي يسعى من يؤمن بالله إلى اكتمال العقيدة - في الظاهر على الأقل- فإنه ينظرُ للسلوك والأخلاق كشأن شخصي.

لذلكَ نرى الكثير ممن يلتزم بالصوم ويواظب على الصلاة ثمَّ لا يبر بوالديهِ ويغش في تجارته ولهُ أخلاق منفرة ويسيء إلى جارهِ ولا يحسن لليتيم.

أينَ نحن من قول الله سبحانه وتعالى . . . إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ؟؟ أو قولهُ سبحانه وتعالى ليسَ البر أن تولوا وجوهكم قِبلَ المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمنَ بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين ؟؟

إذن نحن أمام معادلة ثلاثية الأبعاد!!

البعد الأول: الإيمان بالله وباليوم الاخر وبملائكتهِ وكتبه ورسلهِ وبالقدر خيرهِ وشره.

البعد الثاني: البر للوالدين واليتامى والمساكين وإيصال الرحم والصدق والوفاء بالعهد وكل السلوكيات التي حضَّ عليها المنهج القرآني الرسالي أو نهى عنها.

البعد الثالث: الصلاة والزكاة والعبادات.

ونفهم أن لا قيمة للصلاة والزكاة وبقية العبادات إذا لم تبنى على البعدين الأول والثاني. ونفهمُ أيضاً أن البعد الثاني هو حلقة الوصل لإيصال عبادة العبد وطاعته إلى الحق سبحانه وتعالى. أو هي كالمصفاة تمرُّ من خلالها الطاعات لتصل نقية صافية خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، فاذا كانت المصفاة ملوثة بسوءِ الخلق ودَعِّ اليتيم وعقوق الوالدين والكذب والغش فكيف تصل تلكَ الطاعة إلى الله طيبة نقية والله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب؟؟

المسلم كلٌ متكامل لا يمكن تصور جزء منه تقياً ورعاً عابداً وحامداً،

والجزء الآخر غضوباً بخيلاً منفراً مؤذياً لجارهِ بذيء اللسان يأكل مالَ اليتيم ويغشُ في بيعه وتجارته؟؟

إن هذا لا ينسجم مع روح المنهج القرآني.

وليسَ المقصود هنا أن يكونَ الناسُ ملائكة يمشون على الأرض، بل المقصود هو أن المنهج القرآني والهوية الإيمانية لا يتجسدان إلا بالمزج بين الأبعاد الثلاثة آنفة الذكر.

فالثوابت الإيمانية يجب أن تكون كاملة خالصة ولا يقبل أي مساس بها أو الإيمان ببعض والكفر بالبعض الآخر.

وأما العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج فيحرص المسلم على الالتزام الدقيق بها وأدائها في أوقاتها وإن فاتهُ شيء منها تداركها بسرعة واستغفر الله عما فاته.

وأمَّا السلوك والأخلاق والصفات التي يكون عليها المسلم فهي أيضاً تكون الغاية والمبتغى ويجاهد النفس على مدار اللحظة والهنيهة أن يتصف ويتخلق بها وإن زلت به قدم في هذا الموطن أو ذاك فالتوبة من قريب تكون واجبة.

إذن فالبرّ والإحسان والإنفاق على اليتيم توجيهٌ رباني كريم وكتابُ الله زاخرٌ بالآيات التي تحضُّ على ذلك بل وتقرن ذلك بعبادة الله سبحانه وتعالى وبالصلاة والزكاة. وهذا الأمر الرباني ليس ترفاً أخلاقياً أو اجتماعياً إن شئنا أخذنا به وإن لم نشأ فلا تثريبَ علينا.

ومحنة اليتيم ومأساتهُ عظيمة كما حاولنا أن نبرزَ جانباً منها في أول المقال وإن كانت الحقيقة أمَر من ذلك وأقسى بكثير. فلا أحد بمقدوره أن يتجسَّد في قلبِ طفلٍ فقدَ أبويه ليعرفَ حجمَ مأساته ومعاناته.

إنها قمة المأساة الإنسانية، لأنَّ الطفل وهوأحوج ما يكون لحنان وعطف ورعاية أبويه عندما يفقد كل ذلك في لمح البصر ويدخل في عالم آخر قد لا يجدُ فيه أية فرصة البتة في لحظة حنان أسرية أو لمسة عطف إنسانية.

لذلكَ كانَ ثوابُ كافل اليتيم عظيماً عظيماً لا يتخيلهُ أحد وكانَ القرآن الكريم واضحاً في الحضّ عليه واقرانه بعبادةِ الله وأداء الطاعات.

ونراه جلياً في بيانِ الرسول الكريم لهذا الثواب من خلالِ حديثه الشريف: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة)،صحيح مسلم. فأي ثواب أعظم من أن تقترب منزلة كافل اليتيم من منزلة خير خلقِ الله مُحمّد (ﷺ) في الجنة.

تذكرة

في كلّ مدينة من مدننا الكبيرة توجد دار أو أكثر من دور الأيتام، فكَم منا زارَ هذهِ الدور ولولمرة واحدة في حياته؟؟ ليعرفَ عن كثب أخبار هذهِ الزهور الندية كيفَ تعيش وما هي احتياجاتها المادية أو العاطفية؟؟ ثم يساهِم فيها ولو بشيء بسيط.

لماذا لا نحضّ بعضنا بعضاً فنتفق فيما بيننا أن نعمل زيارات عائلية اسبوعية لهذهِ الدور؟؟

أونختار أقرب دار للأيتام ونعرف عددَ الأطفال فيها ثم نحاول جمعَ عدد من العوائل يوازي عدد الأطفال في تلكَ الدار فيكون لكلٍّ طفل يتيم عائلة تزورهُ اسبوعياً تمده بالعطف والحنان الأسري وتشعرهُ أنه جزء من العائلة حتى إذا كانَ في الدار، تتابع أخبارهُ ومشاكله معَ الدار أو في المدرسة فتحاول مع الإدارة أن تحلها. تزورهُ في الأعياد والمناسبات وتجلب له الهدايا والكسوة الجديدة. تدعوه - بعد أن تتوثق الصلة به وبعدَ موافقة إدارة الدار- إلى زيارتهم في البيت لقضاء عطلتهِ عندَ الأسرة. وبذلك يتهيأ لكلٍّ طفل يتيم جو نفسي يساعده على تخطي محنته وافتقاره إلى أسرته وأبويه.

وبالمقابل نربي في أولادنا الأخلاق الحميدة وروح التعاطف والتكاتف والمساعدة ومد أواصر المحبة مع اخوانهم وأخواتهم في المجتمع.

فمن يكون المبادر لتطبيق هذه الفكرة ويكون لهُ الفضل الأكبر والجزاء الأوفى من الله سبحانه وتعالى.

١٦ - مشاهد بين الحياة الدنيا وحياة الآخرة.....

حياة الدنيا

المشهد الأول

رجلٌ يعيش في بحبوحةٍ ونعيم فلقد آتاه الله رغدَ العيش وآتاه مُلكاً عظيماً وجاهاً كبيراً.

هوسيدُ قومهِ وله السمعُ والطاعة وله المركز والسطوة والقوامة في أهله وعشيرته.

لا يشقُّ له عصى للطاعة ولا يرد له أمر.

تراه من أجل ذلك وبفعل الحمية- حمية الجاهلية - يذود عنهم بكل ما أوتي من قوة ولا يتوانى أن يبذلَ دونهم ماله وحياته، والعشيرة بالمقابل رهن إشارته وطوع بنانه.

ولكن خارج حدود الأهل والعشيرة فإنهُ ظالم ليس لجبروته وبطشه وطغيانه حدود.

لا يراعي في خلق الله إلاً ولا ذمة.. أموال الناس وأرواحهم -خلاف عشيرته الأقربين-دونه مبذولة لا يردعه رادع عن إتيان معصية مهما بلغت من القبح والشدة ولا يمسكه وازع من ضمير عن الظلم مهما بلغ من الجرم والقسوة.

تنعدم عنده النظرة الإنسانية السامية للحياة بأن الله كرّم ابن آدم فلا يجوز سلبه حقه في الحياة أو أن يطغى عليه وأن الحياة تأخذ قدسيتها من الله بارئها.

ولكن أنّـا لهذا الظالم أن يعيَ ذلك؟؟

أنّا له أن يعرف أن الأرواح التي أزهقها ظلماً وعدواناً تستصرخ ربها أن

تنتقم لها؟؟

أنّا له أن يدرك قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿...أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

أنّا له أن يدرك كلَّ ذلك وقد رانَ على قلبه من كُثر ما تراكمت عليه الذنوب والمعاصي والمظالم، فلا يَدْخله أي شعاع من الهداية ولا ينفع فيه أي نصح.

ويَهلَكُ الرجلُ وهو ظالمٌ لنفسه . . . تلحقه اللعنات.

المشهد الثاني

نقيض المشهد الأول، رجلٌ صالحٌ في قومه، قد أقام ميزان العدل الإلهي في قلبه. . في قوله وفعله بينه وبين ربه في السلوك والنية والعبادات. . . . بينه وبين أهلِ بيته وعشيرته الأقربين في الحقوق والواجبات. . . وفي الحياة في تعامله مع الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

إنه يعرف التكريمَ الإلهي للإنسان.

فهو يُمسِك نفسه عن كل ما يقود إلى تشويه هذا التكريم الإلهي فلا يكون ملبسه ومأكله ومشربه إلا من الحلال البين. . . وهو ناصح أمين وأواه حليم.

كسب قلوبَ قومه بنصحه وإرشاده. . وكرمه وجوده . . بنصرته للمظلوم واقتصاصه بالعدل من الظالم.

ويموت الرجل وهو يرجو رحمة ربه . . . تتبعه الدعوات الصالحات.

المشهد الثالث

صديقان حميمان قلّما يفترقان، يحسبهما الجاهل إن هما إلا أخوان شقيقان.

جمعت بينهما العشرة والمصاحبة مذ كانا غضين يافعين، وتدرجت بهما الأيام في معترك الحياة صعوداً وهبوطاً وهما خلّان لا يفترقان.

ولكن ثمة شرخ كبير في أصل هذه العلاقة، فهي ليست في الله ولله.

تربيا في محيط لا يأبه كثيراً للقيم والمعايير الأخلاقية الاسلامية ولا يقيم وزناً كبيراً لعلاقة المرء بربه اعتقاداً وتعبداً وطاعة.

معيارُ الرقي للإنسان في هذا المحيط هو النجاح المادي في الحياة.

الشهادة العلمية ومستواها التي يحصل عليها.. شكل الحياة ونوعها التي يحياها.. نوع القصر الذي يسكنه وزخارفه ومفروشاته..العائلة التي يتصاهر معها ...حجم الثروة والممتلكات التي يمتلكها.

فكرٌ ملتصق بالأرض والدنيا لا يرجى منه انفكاكاً وانعتاقاً.

نظرات لا ترتفع عن الأرض وتتوجه إلى السماء فترى الكون الفسيح وما بثَّ الله فيه من العجائب لترتد خاشعة وهي كظيمة فتتيقن أنّ الإنسان ذرة في جرم صغير، وهو بالمعنى المادي المجرد لا شيء أمام عظمة الكون الذي يقتبس عظمته من عظمة خالقه وعند إدراك هذه الحقيقة تسمو الروح لتبلغ شأواً كبيراً يتسع مداها الكون كله.

اتباع هوى النفس والسعي وراء الملذات كان ديدنهما في الحياة. تضمهما موائدُ الخمر والميسر وجلسات اللهو الماجن، يجتمعان على معصية ويتفرقان عليها.

اتخذا شريعة الله وأنبياءه وأولياءه هزواً وسخرية. كانا كالأنعام لا يعرفان الحياة إلا غرائز يجب أن تشبع ويطلق عنانها، ليس في مجلسهما من الذكر إلا القبيح والفاضح ولا يصدر عنه إلا الضجيج والصخب.

ليس مهماً أيّةَ مناصب كانا يشغلان وأية تجارة يديران وكم من الذهب والفضة يكنزان، فالمَلكُ الرقيب لا يكتب مقدار الذهب والفضة ولا حجم القصور والصروح وشكلها إن هو إلا العمل الخالص لوجه الله ليس غيره هو الذي يكتب للعبد.

مات الصديقان الحميمان... تلحقهما عبارات التأسف على ما فرطا في جنب الله.

المشهد الرابع

نقيض المشهد الثالث.. صديقان حميمان نشئا في بيئة نظيفة نقية لأسرتين كريمتين.

تربيا منذ نعومة أظفارهما على المبادئ، هذا حلال وهذا حرام... لا ترض عن المنكر واسع إلى تقويمه وتجنبه أنت... ادع إلى المعروف واعمله بنفسك... الناس سواسية كأسنان المشط... مقياس التكريم في ميزان الخالق هوالتقوى... وغير ذلك من مكارم الأخلاق من مدرسة الحبيب المصطفى (ﷺ).

اجتمعا منذ اليوم الأول للقائهما على المحبة في الله.

تدرجا في مراحل الدراسة منكباً بمنكب وكانا من الصفوة المختارة أبداً في الاجتهاد وفي الأخلاق على حدٍ سواء.

ولم تشغلهما بعد ذلك هموم الحياة ومطالب الأسرة عن التواصل والتناصح، يحرِّض أحدهما الآخر للسعي إلى الخير والدعوة إليه، كانا على رأس النفيضة في كل ساحات العمل الجماعي الخيري.

تضمهما مجالس الذكر.

يجتمعان دوماً على الخير ويتفرقان عليه.

توفاهما الله إلى جواره... تتبعهما الدعوات الصالحات.

حياة الآخرة

ها قد نفخ في الصور وانتفضت الأرض ولفظت ما بجوفها فإذا الخلائق قيامٌ ينظرون، يخرجون من الأجداث سراعاً ويتوجهون إلى مكان معلوم.

إذن هو البعث والنشور وإن ساعة المحشر قد أزفت.

خسر المبطلون إذ كانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً هل نبعث في خلقٍ جديد؟؟

ها أنتم بعثتم في خلقٍ جديد، تَمَسَّك في الأرض إذن وابقَ تراباً، أو لا

تجلس من مرقدك.

كلا هذا ما وعد الرحمنُ وصدقَ المرسلون...

إنها ساعةُ الحقيقة فهو أمرٌ إلهي وكل الإرادات معطلة ولم تبق إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى.

ستقوم من مرقدك كما كل الخلائق تفعل، تنفض عن نفسك الغبار في ذلة ببصرٍ خاشع ونفسٍ مرهقةٍ مكسورة وستذهبُ إلى مكانٍ معلومٍ من أرضِ المحشر تنتظرُ ساعةَ حسابك، ملايين ملايين الخلائق تتقاطر... تدب كدبيب النمل وتساق نحوساحةِ المحشر في سكونٍ وذلٍ ورهبة.

المشهد في أرض المحشر مخيف مهيب مروع.. كلُّ الخلائق واقفةٌ في ساحةِ المحشر.. الحر شديدٌ شديد لا يطاق. تضيق النفس من هول الموقف ومن انتظار ساعةِ المكاشفة... لقد وُضِع الكتاب الحق الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً من عملِ أيِّ مخلوقٍ إلا أحصاها.

الناسُ في هم شاغل لا يدع لأحدهم أن يلتفت خارجَ نفسه ولا يجد فسحةً من الشعور لغيرهِ فلقد قطعت الوشائج كلها، وكلٌ يملك همَ نفسه لا يتعدَّاها.

المشهد الأول

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤، ٣٧].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١٠_ ١٤].

فما بالُ صاحب المشهد الأول في الحياة الدنيا في هذا الموقف؟؟

إن الهولَ ليأخذ بروعِهِ وإن الرعبَ ليُمسِكُ بنفسهِ وإنه يفرُّ من أبيه وأمه، مِن خلانه وأصحابه. يخشى أن يفضحوهُ أمام الله أن يقولوا ياربُّ هذا الذي أغوانا... هذا الذي أوردنا مواردَ الهلاك... به اقتدينا.

أولا يعلمُ أنَّ الله يطَّلع على خائنةِ الأعينِ وما تخفي الصدور؟؟ اليوم تُجزى

كلُّ نفسٍ ما كسبت. اليومَ ينتقمُ الله للأرواح التي أزهقْتَها وأنتَ في عزِّ جبروتك وطغيانك فاسْتَصرَختْ خالقها أن ينتصر لها واليوم يومُ العدل الإلهي يوم ترد المظالم ويقف الظالمون جثياً.

يود هذا المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ بأعز الناس عليه ممن كان يفتديهم ويناضل لأجلهم ويعيش لهم، من أمه وأبيه... بنيه وزوجه... أخيه وعشيرته الأقربين فإن لهفته على النجاة لتفقده كل الوشائج التي تربطه بهم.

ويزداد هلعه وخوفه وهو يتلمس المصير الذي ينتظره فيفقده هول الموقف وكربه الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بكل من في الأرض مقابل نجاته، وهي صورة للهفة الطاغية والفزع الأكبر والرغبة الجامحة من الإفلات.

ومشهد المرء وهو ينسلخ من ألصق الناس به وأحبهم إليه أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم... ولكنه الفزع الأكبر والمشهد المهيب المروع يمزق كل الروابط والوشائج فلا يبقي إلا الشعور بالذات فقط لا يبارحها قيد أنملة لذلك يتمنى أن يفتدي بمن في الأرض مقابل نجاته.

ولكن كلا.. فالموقف ليس موقف الأماني وليس موقف الافتداء بالزوج والبنين والعشيرة الأقربين.

سيدعوه نار جهنم فلا يملك أن يدبر ويتولى.

أما الرجل الصالح في المشهد الدنيوي...

فإن الهول ليلفه أيضاً فالهمُّ والكرب أعظم من طاقة الإنسان يومئذ والموقف مهيبٌ يأخذ بالألباب. وهو اليوم أيضاً لا يملك إلا همَّ نفسه إلا أنه وبعد أن يعود إليه روعه ينزِع الله من قلبهِ الحزن والخوف من هذا الفزع الأكبر لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .

المشهد الثاني

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وما بال الحميمين في المشهد الدنيوي الثالث؟؟

كانا في الحياة الدنيا لا يجتمعان ولا يفترقان إلا على ضلال... يحرض أحدهما الآخر على الشر وفعل المنكرات، فاليوم يتلاومان كل يقول لصاحبه أنت سبب ضلالتي وسوء عاقبتي كلما وجدتني أتوق إلى التوبة أو اقترب منها زيّنت في عيني اللهو وسهلت علي المجون وأغويتني من جديد... لولاك لكنت

الآن من المتقين.

ينقلبان إلى عدوين بعد أن كانا خلين، لم يكن أحدهما يحب الخير لصاحبه وإلا ما أورده موارد الذل والهلاك الذي هما فيه الآن.

أما المتحابان في الله فبعد ذهول المبعث ورهبة المحشر فإن الله يبعث في قلبيهما الراحة والسكينة. ولمّا كان اجتماعهما في الحياة الدنيا على الهدى والتقوى وتناصحهما على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمودتهما باقية في ظلالِ الله ورحمته وعاقبتهما إلى النجاة.

المشهد الأخير

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٣٨_ ٤١].

المتقون ممن أوردنا ذكرهم في الأمثلة السابقة ينور الله وجوههم فتراها مستنيرة متهللة ضاحكة مستبشرة راجيةٌ من ربها مطمئنةٌ بما تستشعره من رضاه فهي اليومَ تنجو من هولِ المشهدِ وكربهِ... استشعرتْ مصيرها لذلك فسرورها سرورٌ عظيم يظهر على قسماتها.

أما الضَّالون فوجوههم تعلوها غبرةُ الحزنِ والحسرة والندامة بعد أن تيقنت أن الموقف بالجدِّ وما هو بالهزلِ واسترجعت سيرتها في الحياة الدنيا وعرفت ما قدّمت فاسيتقنت ما ينتظرها من مصيرٍ فغشاها سوادُ الذلِّ وظلمةُ الانقباض.

اللهم نور قلوبنا بنور هدايتك في هذه الحياة لنعلمَ أن الحبَّ والصحبة تكون في الله وحده فيكون لنا خلانٌ يهدوننا عيوبنا ويعينوننا على تجاوزها وليس أصحابُ سوءٍ لا يُرجَى منهم خيراً لأنفسهم ولخلانهم ونعلم أن الرسول الكريم قد علمنا أن المرء يُحشر على دين خليلهِ. اللهم فاحشرنا مع خلاننا بوجوه ضاحكةٍ مستبشرة.

اللهم واجعلنا ممن يتقي الله في نفسهِ وأمهِ وأبيه وزوجتهِ وبنيه وعشيرتهِ التي تؤويه بالتناصحِ والتدبرِ والتذاكر... بالأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر. واجعلنا ممن ينقلبُ إلى أهلهِ مسروراً يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

١٧ - وأعِدُّوا لهم مَا استطعتم مِن قوة.....

ونحن نؤمن بأنَّ القرآنَ الكريم هوَ كتابُ الله وخطابهُ المباشر للناسِ كافةً. يجب أنْ نؤمنَ أيضاً أنه كما كانَ القرآن ملائماً وصالحاً في زمنِ الوحي فإنه ملائمٌ وصالح للناسِ إلى يوم القيامة لأنهُ خطابُ الله الشامل والخاتم. والإيمان بغيرِ ذلك يكونُ إيماناً ناقصاً ومشلولاً يُخرِج صاحبه من ملَّة الإيمان واللهُ سبحانه وتعالى لا يقبل إلا الإيمان الراسخ واليقين الثابت.

البعض ممّن يدّعونَ العلم يشككونَ في صلاحيةِ القرآن منهاجاً ونبراساً لحياةِ الناس في هذا العصر فيقولونَ بأنه جاءَ لإصلاح حال العرب وأنه كانَ محرِّكاً عظيماً وعلاجاً ناجعاً في وقته، استطاعَ إنقاذ العرب من الجهل والتخلف والتشرذم إلى التوحيد والتبصُّر وبسط النفوذ والسيادة ولكنها قرونٌ قد خلت ولا يمكن تطبيق ما جاء بهِ القرآن في عصر يغزو فيه الإنسان الكون وينفذ من أقطار السموات والأرض.

وهم ينظرون إلى الرسول الكريم كصانعٍ للقرآن ومصلح حَملَ فكراً راقياً ومختلفاً عما كانَ سائداً في زمانه وكان لهُ دورٌ بارز في صناعة التأريخ ولكنهُ دورٌ انقرض بتطور البشرية كما انقرض أدوار مَن كان قبله وهذا الفكر المُعوَج يحاول تجريد الرسالة المحمدية من إطارها الأخلاقي الشامل في الحياة من خلال هذا الفهم الخاطئ للمنهج الإسلامي.

أوَ يظن هؤلاء أن القرآن هو كتاب علمي يشرح تقنيات وفنون استخدام العلم لتطوير الخدمات والعلوم التطبيقية؟؟

القرآن أعظم وأشمل من أن يُحصَر في بوتقة صغيرة تدخل في صلبِ إدراك البشر وتخصصاتهم.

القرآن هو كتاب أخلاقي ومنهجي يرسم بكل وضوح آلية الاستدلال على وجودِ خالق الكون من خلال الحث على التفكُّر والتدبُّر في آيات إعجازهِ فيه وفي

النفس البشرية.

وتمكن العلم الذي يتطور باستمرار من اثبات بعض الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن كما سيكتشف حقائق علمية أخرى لم تزل غائبة عن الإدراك البشري.

وينظم القرآن علاقة الإنسان بربهِ وخالقهِ ومغزى وجودهِ وحياتهِ كما يؤسس النظام السلوكي والأخلاقي للمجتمع بإطارهِ العام ويرسم الخطوط والفواصل العامة لهُ.

ولا يدخل في التفصيلات والحيثيات الدقيقة لحياة الناس ولا يرسم صيغة محددة للحكم لتكون قابلة للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان ولتكون ملزمة للمجتمعات الإسلامية، فالفكر الإنساني يتطور وعلاقة الفرد بالفرد والفرد بالمجتمع والمجتمعات مع بعضها البعض والعلاقة مع البيئة أيضاً تتغير تبعا لذلك.

لهذاَ كانَ المنهج الإسلامي المستند على القرآن والسنة منهجاً فضفاضاً يتسع ويمتد حسب حاجات الإنسان وتطور نظم عيشهِ واسلوب حياتهِ دونَ أن يتخلى عن الثوابت الأساسية لمنهجهِ.

المنهج الإسلامي يرسم الإطار الأخلاقي للشكل الذي يكون عليه المجتمع ويوفِّر مواد البناء الأساسية لإقامتهِ ويترك التفاصيل وكيفية التشكُّل والإنجاز للإنسان.

والقرآن أيضاً يشير بوضوح إلى أنَّ الحياة الدنيا بأفراحها وآلامها بحلوها ومرِّها بأمجادها وانكفاءاتها كلها إلى زوال وفناء، ويضربُ أمثلةً على الأقوام التي سبقت نزول القرآن لتكونَ عبرةً للناس وليصححَ الناس مبادئهم وسلوكهم وعلاقاتهم في الإطار الأخلاقي العام الذي يدعو إليهِ القرآن ويكون الثواب والعقاب في الحياة الأخرى ليُؤتى كلُّ ذي حقٍ حقَّه وإن تكن مثقالَ حبةٍ من خردل يأتي بها الله سبحانهُ وتعالى.

وهذا الإطار الأخلاقي الشامل لا يصطدم مع حاجات الإنسان ولا يكون معوِّقاً لتطورهِ حتى لا يصلح للعصر الحالي كما يريد أن يروج البعض.

ولمن يؤمن بأنَّ القرآن هوَ كلامُ الله الذي أنزَلهُ على قلبِ نبيهِ مُحمَّد (ﷺ)

الذي بعثهُ رحمةً للناسِ كافةً نقولُ بأنَّ فهمنا للقرآن يجب أن يكونَ فهماً منطقياً شاملاً في الإطار العام الذي أشرنا إليهِ وليسَ متحجِّراً أحادي الرؤية منغلقاً لا يعطي للنصوص بُعدَها الإيماني والأخلاقي والمنطقي.

وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة . .

الفهمُ القاصر أو العاطفي للقرآن يدعونا ونحنُ نقرأ قول الله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ. . .﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي زمنٍ وصلت الأمة إلى ما وصلت إليهِ من الضعفِ والهوان والتفكك وتكالب الأعداء عليها وتصدُّع بنيانها من الداخل.

أن تأخذنا الحمية والعاطفة فنرى أنَّ الحل يكمن في تجييش الجيوش والتسلح وسوق الشباب ولو بالإكراه إلى معسكراتٍ للتدريب ونؤلِف جيوشاً تعدادها الملايين وبذلك نُرهب أعداءَ الأمَّة فيتخاذلون أمام هدير أقدام المجندين وهيَ تدكُّ أرضَ التدريب دكّاً.

وفي غيابٍ كامل للبناء الأخلاقي والإيماني لهذا الجيش. ليصلَ سمو فكره إلى الطرف الآخر قبلَ طلائع قوَّتهِ حسبَ المفهوم الإسلامي للقوَّة.

ودونَ التبصُّر أنَّ مقاييس القوة العسكرية المجردة تتغيَّر أيضاً فهل يُعقل أن تستورد كل سلاحك ممن تعتبرهُ عدوَّك - حتى أحذية الجند وأنطقتهم وأطقية رؤوسهم - وهل يكون هو من السذاجة بحيث يعطيكَ كل أنواع السلاح وكل أسرار استخدامه ومفاتح إنتاجهِ وتطويره.

ودونَ التبصُّر أيضاً بأنَّ القوة البشرية العددية ما عادت تمتلك الرهبة في غياب التقنيات الحديثة. فالقوة العسكرية البرية مهما كانت مؤللة ومجهزة وتُحَرِّكها قطعات جرارة من الجند إذا لم تمتلك القوة الجوية الضاربة والمهيمنة فإنَّ كل هذهِ القطعات تقع في مصيدة وشراك الطرف الآخر، وإنَّ أساليب الحرب تطوَّرت فصارت تُدار عبرَ المحيطات والبحار وعبر الأقمار الإصطناعية؟؟

فهل يُعقل أن تذهب موارد الأمة إلى التسلح وتهمل كل مقومات نهوضها الأخرى فتتخلَّف فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعلمياً، ويُصبحَ البون شاسعاً ومخيفاً

بيننا وبينَ المجتمعات والأمم الأخرى.

ثمَّ يستخدم من يمتلك هذهِ الترسانات في قمعِ شعوبهم أو محاربةِ بعضهمُ البعض -سواء كانت بمكيدة خارجية تحرِّك خيوطها أيادي خبيثة من خارج الحدود أو بنزوة لحاكم يطمع في التسلُّط والهيمنة الإقليمية-وفي الحالات النادرة التي يتاح استخدام هذا السلاح ضدَّ من يفترض أنهم أعداء حقيقيون فإنَّ هذا السلاح إما يكون عاجزاً أمام تفوق العدو في نوع القوة والتكنولوجيا المضادة التي يمتلكها أو لا يكون وراء السلاح من يمتلك الإرادة والعزم والإيمان أو حتى الدافع لاستخدامه.

ولو نظرنا بتجرد إلى الأموال التي انفقت وتنفَق في هذا الإطار في كلِّ الدول الإسلامية لوجدنا أرقاماً مخيفة وبالمقابل لوتمعَّنا أينَ وكيف استخدمت هذهِ الأسلحة لوقفنا على المأساة الحقيقية التي تعيشها الأمة.

لابدَّ للمسلم أن يتبصَّر ويتيقَّن..

أنَّ أيَّة قوة إذا لم تكن نابعة من الإيمان المطلق بالله وبمنهجهِ تكون قوة غاشمة وظالمة -وبمستويات مختلفة- لأنها تنظر في مصالح من يمتلكها بالدرجة الأساس ولا يهم هذهِ القوة الطاغية أن تَسْحَق شعوباً ومجتمعات تحتَ ذرائعَ مختلفة ما دامت توفِّر لها الهيمنة.

وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة..!!

قوةُ الإيمان التي تعمر قلوبكم وتهديكم إلى طريقِ الرشاد.

قوةُ الإيمان التي تثبتكم على المنهج القرآني.

قوةُ الإيمان التي تُفشي بينكم الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر وتنظف مجتمعاتكم من الخور والضعف والتكالب على الدنيا وتزيل ركام الآفات الاجتماعية والتخلف الذي استوطنَ في وجدانكم أفراداً أو مجتمعات.

قوةُ الإيمان التي تؤسس لنهضة شاملة في كل الحلقات التي تخلُق هذهِ النهضة.

قوةُ الإيمان التي تزرعُ العزَّ في قلوبكم فلا تصاب بالوهنِ والضعف أمام

حاكم يتحكم في مصائركم ومستقبلكم، إيماناً يسودُ المجتمع فلا يفرز هكذا حكام أصلاً ويكونُ أمركم شورى بينكم فتختارونَ لمجالسكم التشريعية والتنفيذية من يعمل لأجلِ مجتمعاتكم وأوطانكم وبمحضِ إرادتكم ثمَّ تكونونَ أنتم الرقباء عليهم.

إيماناً راسخاً يُولِّد فيكم القدرة على التعبير والتوجيه والإصلاح فلا تفسحون المجال لأن ينهضَ من بينكم من يحمل فكراً متشدداً غيرَ منضبط فَيُكَفِّرَ الحكام والعلماء والمجتمعات ويخلق فتنة شعواء تعصفُ بكم وبمستقبلِ أطفالكم وأجيالكم باسمِ الإسلام.

قوةُ الإيمان التي تثبِّت أقدامكم في الأرض وتمد جذوركم إلى معين المنهج الرباني فتنهل منهُ السماحة والوسطية والفكر المنفتح فتنبت قاماتكم باسقة شامخة وتمتد أغصانكم وتينع عن ثمار تسرُّ الناظرين فيستظل بظلكمُ الآخرون وتنتشر ثمار فكركم ومنهجكم في الآفاق من جديد.

قوةُ الإيمان التي تمسحُ عن أبصاركم الغشاوة فترونَ الأمور على حقيقتها ولا تركضون وراءَ سرابٍ كاذِب أو عاطفةٍ تؤججُ فيكم روح العصبية القبلية أو الدينية أو المذهبية. وتميزون بينَ الغثّ والسمين وبينَ ما ينفعكم وما يضرّكم.

قوةُ الإيمان التي تطوِّرُ اقتصادكم وعلومكم وآدابكم وفنونكم.

قوةُ الإيمان التي تنوِّر أفكاركم فتدركونَ أنَّ الأمة لا تنهضُ من كبوتها بزرعِ الحقد والكراهية والبغضِ في نفوسِ أطفالكم وشبابكم حتى لا يَرَوا أبعدّ من ظلِّ قاماتهم التي تتقزَّم أصلاً بفعلِ الجهلِ والتطرُّف والتقوقع فيكون اصطيادهم سهلاً لكلِّ من يريد زرع الفتنة بينكم.

وتدركونَ أنَّ الأمة تستنهض بالمنهجية والعقلانية والشمولية والفكر السمح التي تستمد قوتها وأصالتها من المنهج الرباني والذي يعتمد في تطبيقهِ على رقي الإنسان وسموِّهِ الفكري والأخلاقي وليس على تهميشِ دورهِ وتحجيمهِ وتكبيلهِ فتُكبَت معتقداتهُ وأفكارهُ وتطلعاتهُ وتتعطَّل بالنتيجة طاقاتهُ وإبداعاتُهُ.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

قوةُ الإيمان التي تمنحكم التماسك والتعاضد والتآزر فيراكم العدو كالجسدِ الواحد القويِ السليم فلا يرى منفذاً فيكم لإدخالِ سمومهِ وأفكارهِ بينكم.

قوةُ الإيمان التي تُرجِعُ للمساجد دورها الحقيقي في الحفاظِ على قيمِ المجتمع وثوابتهِ وبثِّ روحِ الإخاء والتسامح بينَ أبناءهِ. وليسَ المساجد التي

يعتلي منابرها من الخطباء لإرشادِ الناس وتوعيتهم فيرى بعضهم أنَّ الأمر لا يخرج من إطار وظيفي ضيق يقرأونَ ما يُطلب منهم أو يقرأونَ في أوراقٍ صفراء قد تكون كتبت منذ عشراتِ السنين فيصعدونَ المنابر وينزلونَ منها دونَ أن يضيفوا بُعداً إيمانياً أو أخلاقياً لأحد ممن يستمعُ إلى خطبهم أو يُصلي خلفهم. وآخرونَ لا تسمعُ منهم إلا ما يؤججُ ويهيجُ العواطف وينسونَ أنَّ العاطفة لا تبني قيماً ولا تعمر نفوساً مريضةَ بالإيمان ولا تُقَوِّمُ سلوكاً معوجاً ومنحرفاً. وآخرونَ -وبسببِ فكرهم المنغلق وجهلهم بروحِ المنهج وأصالتهِ وسماحتهِ- لا يشيعونَ بينَ الناس إلا التشدّد والتزمت والتعصُّب.

والقلة التي تعي دورها في بعثِ القيم وإرشادِ الناس إلى الخير وتنهاهم عنِ المنكر وتثقف الناس بأمور دينهم وترشدهم إلى دورهم الإنساني الراقي في الحياة كما أراده اللهُ لهم، هؤلاء أمَّا يُغَيَّبون أو يمنعونَ من اعتلاءِ المنابر في الكثير من البلدان الاسلامية.

قوةُ الإيمان الواعية الراشدة التي تعي أنَّ القوة الاقتصادية هيَ التي تُهيمن وتسيطر ويُخشى منها، وهيَ التي تُحرِّك عَصبَ الحياة وهيَ التي بإمكانها أن تخلق إعلاماً متنوراً مقابلَ الإعلام المضلل وأن تمتلكَ علوماً راقيةً وتقنيات رائدة جبارة وتقضي على التخلفِ والجهل الذي تتصف بهِ معظم المجتمعات المسلمة.

قوةُ الإيمان التي تستولد القوة المادية المنضبطة التي لا تتعدّى على حرماتِ الله ولا تستكبر في الأرض أو تطغى، ولا تقهر الإنسان أو تظلمهُ أو تسحقَ إنسانيتهُ، ولا تستخدم هذهِ القوة العاقلة بالنتيجة في البطشِ واستعبادِ الناس ولا يأتي استخدامها إلا عندما يتعرض دينُ الله إلى محاولات الإقصاء ومسح الهوية المسلمة للمجتمع فتُستخدم القوة بقدرٍ معلوم لإبقاءِ كلمةِ الله هيَ العليا، وليسَ كما نرى حكاماً ينتهكونَ حرماتِ الله في أرضِ الإسلام ويستعبدونَ الناس ليلاً ونهاراً ثمَّ ينادونَ الناس إلى الجهاد في أرضٍ أخرى.

إذن تأسيس القوة المادية بمعزَل عنِ قوةِ الإيمان وثباتهِ ورسوخهِ ودونَ بعثِ القيم الفكرية والأخلاقية الراقية لمنهجِ الله لن تُرهِبَ عدواً ولن تفضي إلا إلى استنزافِ موارد الأمة وتعطيلِ فرص نهوضها الاقتصادي والاجتماعي والعلمي.

فهل نتداركُ أنفسنا ونلتفت إلى واقعِ مجتمعاتنا فنحاول إصلاحها بل نخطط لبناءِ المجتمع من جديد فالواقع أسوأ من أنْ يُصلح.

١٨ - وكذلك جَعَلنَاكُمْ أمَّةً وَسَطاً....

﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا... ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

المخاطِبُ هوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الذي خلقَ فسوَّى وقدّرَ فهدَى. والمُخاطَب هوَ الانسانُ في كلِّ عصرٍ وأوان. فربُّ العزةِ عندما أرادَ أنْ يتمَّ نعمتهُ على البشرية ارتضى لها الاسلامَ ديناً بعدَ أنْ اكملَ لها هذا الدين وانزلهُ في كتابٍ خالدٍ على خيرِ البشرِ مُحَمَّد (ﷺ) فكانَ الرسولُ الكريمُ خيرَ مُبَلِّغٍ وخيرَ مُعَلمٍ لدينِ الله من خلالِ سيرتهِ العطرة الشريفة.

واكتمالُ الدين هو أنْ يصلحَ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ولكلِّ ثقافة. وأن ينسجمَ مع فطرةِ الانسان ويحقق له رغباته المادية واحتياجاته الروحية في تناغمٍ وتناسق. ويجعلَ روحَ الانسان تسبَحُ في ملكوتِ السماوات تناجي خالقَها وتستشعرَ عظمتَه وقدرتَه فيحسَّ بعبوديتهِ المطلقة لله وحدهُ احساساً لا يُشعِره بالمهانةِ والنفور من هذه العبودية، فلا أحد يخرجُ عنها مهما طغى واستكبرَ والمَرَدُّ لا محال الى الله فإما نعيماً وملكاً لا يَبْلَى وإما سعيراً وناراً تلظى.

العبودية المطلقةُ للهِ في الصورةِ التي تمثلتْ في سيرةِ عبدِ الله ورسولِهِ مُحَمَّد (ﷺ)، في علاقته بربه وعبادته وطاعته وفي سلوكهِ وأخلاقهِ معَ أهلِ بيتهِ وصحابتهِ وفي تفاصيلِ حياته الشريفة كلها تجعلُ عبادة الله وتقوى الله هي المحور الأساس لحياة الفرد وحول هذا المحور ويصطبغُ بصبغته سلوكُ الانسانِ المسلم وعواطفه وعلاقاته.

وباختصار تكونُ عبادةُ الله مركز الثقل ومركز القوة في حياة المسلم، فلا أمان واطمئنان إلا مع العبودية المطلقة لله ونبذِ أيّة عبودية أخرى كالعبودية للمالِ والولدِ والشهوةِ والسلطةِ أو لأيِّ فكرٍ أو طاغوت. ومن يتخذ إلهاً ومعبوداً غيرَ الله ذلَّ واستكان.

لذلكَ فإنَّ الأمَّةَ التي تحملُ رسالةَ الاسلامِ وتعْتَنِق هذا الدين منهجاً للحياةِ يجعلها الله الأمَّة الوَسَط.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴿١٤٣﴾﴾ [البقـرة: ١٤٣].

والأمة لا تكونُ امةً وسطاً إلا عندما تختارُ منهجَ الله وتصطبغَ بصبغتهِ.

فهذا المنهج هوالذي يعطيها هذا التكريم وهذهِ الريادة ويجعَلها الأمة الوسَط التي تشهَدُ على الناسِ جَميعاً. وفي موازينها القسط يتمُّ تقييمُ الأفكارِ والقيمِ والمعتقداتِ والعقائدِ فيُعزَلُ الحقُّ منها عنِ الباطلِ والغث عن السمين.

وهذا المنهج هوالذي يجعلها الأمة الوسَط في التصورِ والاعتقادِ فلا إفراطَ ولا تَفريط. لا إفراطَ في التجَرُّدِ من كلِّ ما هو مادي والانعزالَ عن المجتمعِ والانقطاعَ للعبادةِ، ولا تفريطَ في الارتكاسِ المادي وجعل المادة هي الهدف ومن ثمَّ تبرير كلَّ الوسائلِ التي توصِلُ الى هذا الهدف بغضِّ النظرِ عن مشروعيتها وعدالتها أو اجحافها بحقوق الآخرين أو إلحاقِ الأذى بهم.

المنهجُ الذي ينبعُ منَ الفطرةِ التي توازنُ بينَ متطلَّباتِ الروحِ والجسدِ وينظرُ إلى الانسانِ كَكَيانٍ مزدوجٍ يجمعُ بينَ الروحِ والجسدِ ففي الوقتِ الذي يُلبِّي مطالبَ الروحِ لتسمُو وترتقي وتتهذب لا يَنسَى مطالبَ النفسِ وما بثَّ اللهُ فيها من غرائزٍ فيهذِب ويلجم هذهِ الغرائز ويؤطِّرها بإطارٍ عقلاني يحققُ للفردِ الاستقرارَ النفسي ضمنَ مجتمعٍ آمنٍ متماسكٍ ومترابط. والإفراطُ والغلوُ في إطلاقِ الرغباتِ المادية على حسابِ متطلباتِ الروح يؤدي بالنتيجةِ الى تكوُّن مجتمعَات جشِعَة متكالِبة تُسْتَبَاحُ فيها كُل القيم الأخلاقية النبيلة.

والمنهجُ الربانيُ هوَ الذي يجعلُ الأمّة ترتقي صعوداً في فِكرها وقيمِهَا وتصوراتِها وِفْقَ الضوابطِ التي وضعَهَا اللهُ في كتابهِ الفَصْل فتكون لِلأمَّة هويتُها المتفردة وشموخها وعزُّها ورُقِيـهُّا الحضاري في كلِّ ميادينِ الحياة. وهيَ اذْ تشقُّ لنفسِها طريقاً دائمَ الصعودِ، لا يُضيرُها أنْ تستفيدَ من تجاربِ ومناهجِ الأممَ الأخرى بعدَ أن تقوم بتمحيصِها وغربَلَتِها وِفْقَ المعاييرِ المنهجية وتزنُها في موازينها القسطِ فتأخذَ منها ما يتلائمُ مع الخط العام لمنهجها وهي تستشعرُ بذلك

(أنَّ الحكمةَ أوِ الحقيقةَ ضالةُ المؤمنِ أنَّى وجدَهَا أخذَهَا) وتتركَ ما دونَ ذلك من الغثاءِ الذي لا نفعَ فيه.

وهذا المنهجُ يجعلُ الأمّةَ تنظرُ في تنميةِ شخصيةِ الفردِ ومقوِّماتِ نهوضِهِ وتُطْلِقَ فيهِ منَ الدوافعِ والطاقاتِ والإبداعِ ومن النوازعِ والخصائصِ ما يحققُ شخصيتهُ وكيانهُ المستقلِ مِن ناحية والمندمجِ في الكُلِّ والمجتمع من ناحيةٍ ثانية فيكوِّنُ الفردُ في حركتهِ ونموِّهِ قوةً ودافعاً لحركةِ المجتمعِ والأمَّة مثل ما يكونُ المجتمعُ سنداً وكافلاً للفردِ ينظمُ واجباته ويضمنُ حقوقه.

والأمّة الوسَط هيَ التي ترتقي في قبُولها واحترامِها للرأي الآخر، وتوصل منهجَها ورسالتَها للآخرين بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة. وتعطي قيمةً كبيرةً وبُعْدَاً أخلاقياً لأرواحِ الناسِ وأموالِهم ومعتقداتِهم فلا تقبلُ التجاوزَ عليها تحتَ أيَةِ مسمياتٍ كانت.

انها ترتقي بالإنسانِ كياناً مستقلاً ووجوداً زاخراً بالعطاءِ وفكراً خلاقاً نافعاً.

والأمّة الوسَط هيَ الأمّة التي لا يُضِيرُهَا الخواءُ الفكريُ والأخلاقيُ للمجتمعاتِ مِنْ حولِها أو جشَعِها وتسلُّطِها وطغيانِها أو فسادِ حُكّامِها هي. أن تبقى متمسكةً بالثوابتِ الايمانيةِ والأخلاقيةِ في منهَجِهَا ولا يُفْقِدُهَا تعاملها مع هذا الطغيان وهذا الفساد أو درأ خطرهِ عنها صوابَها، أو فنَّ التعاملِ الراقي والمهذب معَ كلِّ حالةٍ من تلكَ الحالات.

أينَ نحنُ الآنَ من الأمَّةِ الوَسَطِ هذه؟؟

لقدْ تخلَّتِ الأمَّةُ عن منهجِ اللهِ فلَمْ تَعُدِ الأمَّة الوَسَط.

وتخَبَطتْ في بحثها عنِ المنهجِ البديلِ بينَ المناهجِ الوضعيةِ المختلفةِ فلَم تهتدِ الى ما ينفَعها. تخلَّتْ عن أصَالتِها وقيمِهَا ولمْ تتمكنْ من اقتباسِ منهجٍ واضحٍ بديل، حتى أصبحت أمَّةً فوضويةً بلا منهجٍ تسيرُ عليه.

الأمَمُ من حولها قطَعَت وتقطَعُ أشواطاً بعيدةً في مضمَارِ التقدُّم العلمي والمعرفي وهي ترتَكِس إلى الوراءِ لتزدادَ تخلُّفاً وضياعاً.

الأممُ من حولِها تحترمُ إنسانَها وتؤَمِّنُ لهُ وسائلَ العيشِ الكريمِ والحياةِ المريحة، وهيَ تضْطَهِدُ إنسانَها وتتعامَلُ معَهُ كأنَّهُ هوَ العدو.

الأمَمَ من حولِها توصَّلت إلى صيغ حكم أكثرَ تحقيقاً لرغبَةِ شعوبِها، وحكامُهَا متسلِّطونَ غارقونَ في الفسادِ، مَنْ جلَسَ منهُم على كرسيِّ الحكمِ لا يقومُ عنهُ إلا إلى قبرهِ أو يزيحُهُ مُناوئٌ بالقوةِ فلا يكتفي بسلبهِ كرسيَّ الحكمِ بل يسلِبَهُ روحهُ أيضاً.

الأمَمُ الأخرَى تـُنتِـجُ وتبدِع، وهيَ تستخدمُ وتأكلُ ما ينتجُهُ الآخرون.

بعبارةٍ مختصرة، كبتِ الأمّةُ الوَسَط في أو حالِ ابتعَادِها عنِ المنهجِ الربّاني،فلم تفقِد وَسَطيَّتِها فقط بلْ فَقَدَت مواصفاتِها كأمّة تجتمعُ على أمرٍ سواء. تشرذَمَت إلى دويلاتٍ ضعيفةٍ وتشرذمَت إلى تياراتٍ فكريةٍ يناهِضُ ويناقِضُ بعضُها بعضاً في المجتمع الواحد.

تشرذَمَ علماؤُها ومفكّروها بينَ أقصى اليسارِ بقبولِ ما يعرضُ أو يفرضُ عليها الآخرونَ من أفكارٍ وقيم وتصوُّراتٍ وسياساتٍ ومناهجَ دونَ تعديلٍ أو تزويقٍ حتَّى. وبينَ أقصى اليمينِ المتشددِ الذي يُكَفِّرُ كلَّ المجتمعاتِ والتياراتِ الأخرى ويدعُو إلى نبذِها ومحاربتِها، فتصبحَ هيَ المنبوذةُ في أوطانِها وفي كلِّ المجتمعاتِ الأخرى، وبفعلِ تشدُّدِها ومنهجيتها القاتمة أصبحَ المغرضونَ وأعداءُ الاسلام يدعونَ إلى محاربةِ المنهجِ الرَّباني الإسلامي باعتبارِ أنَّ التيارَ المتشدد هوَ افرازٌ طبيعيٌ لمنهجِ الإسلامِ بلْ هوَ الوجهُ الحقيقيُ لهذا المنهجِ وإنّما يريدُ الوسطيونَ والمعتدلونَ من مفكري الأمّة أن يزوِّقوا هذا الوجهَ حتى يتمَ تسويقهُ وتكونَ لهُ الغلبةُ فيظهَرُ عندها الوجه الحقيقي المتشدد !!

فهلْ هذِهِ (خيرَ أمّةٍ أخرِجَتْ للنّاسِ) ؟؟

منْ أينَ البداية ؟؟

وأيّـةُ وَسَطيَّةٍ نسوقُهَا للعالمِ كَي تَـقـتَدِي بنَا الأممُ والشعوبُ وتحتَرِمَ وجودَنا كأمّة؟؟

من خلالِ خواءٍ فكري ومنهجي سلبي ؟؟

أو مِن خلالِ ثقافةِ العنفِ التي تجعَلُ الإنسانَ أيَّ انسانٍ يمقُتُ هذهِ الثقافة التي تجردُ الإنسانَ من آدمِيَّته وتحوِّله وحشاً كاسِراً لا يفرِّقُ بينَ المحتلِّ الذي يقودُ دبابة وبينَ الشرطي الذي يحرِسُ شارعاً أو حيّاً سكنياً أو مصرفاً، أو بينَ

الطفلِ يحمِلُ كتبهُ في طريقهِ إلى مدرستِهِ!!! أو بينَ أناسٍ أبرياءَ في بلادٍ بعيدةٍ لا يحمِلونَ وزرَ سياساتِ حُكامِهِم !!.

كلا . . . . .

هذا الطريقُ لا يؤدي إلا إلى مزيدٍ مِنَ التخلُّفِ والتخبُّط. ويزيدُ من تمزيقِ جسدِ الأمَّة ويُعَمِّقُ جِرَاحَهَا ويُؤَخِّرُ نهضتَها لأداءِ رسالَتِها مِن جديد.

الطريقُ يبدأ مِن داخلِ النفس.

يبدأ من الإنسان الفرد يقوِّمُ نفسَهُ ويعيدُ ترتيبَ أولوياتهِ حسَبَ مقتضياتِ الشرعِ والمنهجِ الرَّباني، عقيدةً وسلوكاً وتعامُلاً مَعَ الحياة.

يبدأ مِنَ الأسرَة تبنَى على أسُسِ العقيدةِ الصحيحة وتُرَبَّى على التآلُفِ والتآزرِ وَحُبِّ الخيرِ وعلى الأمرِ بالمعروفِ والنهي عَن المنكر.

يبدأ مِنَ المجتمَع يتشكلُ كمؤسَسَاتٍ تتبنَّى مِنَ السياساتِ والرُؤَى والخُطَطِ ما يجعَلها تستفيدُ منْ طاقاتِ الأفرادِ بشكلٍ خلاق، وتنظمَ شؤونَ البَلدِ وترتقي به صُعوداً نحوَ ذُرَى التقدُّمِ والشموخِ والهويةِ المتفردة المتميزة.

يبدأ من علماءِ الأمَّةِ ومفكِّريها ودُعَاتِها ينهضونَ بدورِهم التوجيهي وبأعباءِ الإرشادِ والتقويمِ والتهذيبِ بعيداً عنِ العوَاطِفِ وَالضغطِ السياسيِ مِن هُنا وهُنَاك.

حينئذٍ.

وحينئذٍ فَقَط. تنهضُ الأمَّة من كبوتها، بلْ تولَدُ مِنْ جديدٍ أمَّةً وَسَطاً كَما أرادَ اللهُ لهَا أنْ تكون.

١٩ - وقفةٌ عندَ أذكار الصباح والمساء

استوقفني هذا الورد من أذكارِ الصباح والمساء:

((اللهمَ إني أشهِدُك وأشهدُ حملةَ عرشِكَ وملائكتكَ وجميع خلقِكَ بأنَّك أنتَ الله لا إله إلا أنتَ وحدَكَ لا شريكَ لك وأنَّ مُحمَّداً عبدُكَ ورسولك)).

تخيَّل معي أنَّكَ تنطلقُ كلَّ صباحٍ ومساء في الفضاء لتُشعِلَ قنديلاً في الأفق يشعُّ نورهُ ويصبحُ ككوكبٍ دريٍ مضيء، وتسألُ ملائكة الرحمن: ما هذا الذي ظهرَ في الأفقِ يا ربنا؟؟؟

فيأتي الردُّ من ربِّ العزة: إنه عبدي فلان بن فلان، يشهِدُني ويشهدِكم ويشهِدُ جميعَ خلقي بأنِّي أنا الله لا إلهَ غيري وأنَّ مُحمَّداً عبدي ورسولي. أفتشهدونَ لهُ بذلكَ يومَ القيامة؟

فيأتي الرد من الملائكة: نعم نشهدُ يا ربَّ العالمين.

وتخيل أنَّ القنديل الذي أضأتهُ في الأفق تراهُ كلُّ مخلوقاتِ الله وتشهدُ لكَ يوم القيامة.

كل المخلوقات !!!

رمالُ الشواطئ، حباتُ المطر، قطراتُ الماءِ في البحار، أوراقُ الشجر، صخورُ الجبال، الطيورُ والحيوانات، كلّ الكواكب والنجوم والأجرام في الكونِ السحيق... كلها تشهدُ لكَ بأنَّكَ استشهدتَهم ساعة كذا يوم كذا سنة كذا على قولِك "أنَّهُ لا إلهَ إلا الله مُحمَّد رسول الله". وأنك قلتها عن ايمان كامل ويقين راسخ.

وتخيَّل أنَّ كل هذه الشهادات تضافُ إلى ميزان حسناتك يومَ القيامة.

وبتكرار هذا الورد كلَّ صباحٍ ومساء تتكررُ شهادةُ الله سبحانه وتعالى وشهادةُ حملةِ عرشهِ وملائكته وجميع خلقهِ لك، فأيُّ تكريمٍ هذا أن يشهدَ اللهُ

لكَ يومَ القيامة.

سبحانَكَ يا ربُّ ما أعظمَك من خالقٍ وما أكرمَك منَ كريم !!

عندما نقفُ أمامَ هذا التصوّر يمكننا أن نستوعبَ جزءاً بسيطاً من كرمِ الله سبحانه وتعالى، ويتجلى لنا معنى الكرم في أعظمِ وأبهى صوره. كلماتٌ معدودات تخرجُ من لسانِ "الله" هوَ الذي خلقه و"الله" هوَ الذي أنطقهُ، تمنحُ قائلها كلَّ هذا الفيض الزاخر المبارك من الثواب إنَّهُ كرمٌ إلهي لا حدودَ ولا وصفَ له.

نقرأ أحاديث شريفة وردَت عن رسولِ الله (ﷺ) بفضلِ هذا الذكر أو ذاك:

يخرجُ من النارمن قالَ لا إلهَ إلا الله وفي قلبهِ وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قالَ لا إلهَ إلا الله وفي قلبهِ وزن بُرَّة من خير ويخرج من النار من قالَ لا إلهَ إلا الله وفي قلبهِ وزن ذرة من خير، رواه البخاري.

(من قالَ كذا وكذا غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبهِ)... الخ من فضلِ الأذكارِ الواردة عن الحبيبِ المصطفى والصحيحة سندها وإخراجها.

ولأننا لا نلِمُّ بحقيقةِ كرمِ الله علينا ولا ندرِكُ كنهه فإنَّ الكثيرين منا يقفونَ عندَ هذهِ المعاني مشدوهين، أبهذهِ البساطة ؟؟ أيمكنُ ذلك؟؟ وننسَى أنَّه عندَ النظر في صفةٍ من صفاتِ الحق سبحانه وتعالى تتعطلُ كل مقاييسنا البشرية وتعملُ مقاييس وموازين أخرى لا يعرف طبيعتها وسرها إلا خالقُ الأسرار الكونية.

ولكن إذا أمعنا النظر في الأذكار بالشكل الذي جرى بيانهُ بقلوبٍ تعي عظمةَ الخالق وكرمَهُ يمكننا فهم الأحاديث الواردة عن الحبيب المصطفى في فضلِ ودوام ذكرِ الله.

وأنتَ يا حبيبَ الله يا من أرسَلكَ الله رحمةً للعالمين.

كانَ من الممكن أن تكتفي عندَ تبليغ الرسالة السماوية.

ولكن رحمتَكَ بأمتكَ جعلتكَ تبني لها منهجاً قويماً لكلِّ نواحي الحياة، منهجاً وسطاً، منهجاً يمس كل مفردات حياتنا العقائدية الإيمانية والدنيوية العملية. وها أنتَ يا حبيبي يا رسول الله تختارُ لنا الكلمات التي نناجي بها ربَّ

العباد، فتختارُ منها ما يقربنا من الله وما يجعلنا أهلاً لعظيمِ كرمِهِ وواسع مغفرتِه إن شاء الله.

لقد أوصيتنا بدوام ذكرِ الله صباحَ مساء بنفسِ الكلمات التي كنتَ تناجي بها ربَّكَ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار. وقدِ استوعبنا هنا في هذهِ الوقفة السريعة معَها عظمة الخالق وكرمَهُ واستوعبنا كذلك دلائل رحمتك بأمتك. اللهم صلي وسلم على حبيبنا وسيدنا مُحمَّد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلم.

وقلِ اعْمَلوا فسيَرَى اللهُ عمَلكُم ورَسوله وَالمؤمنون

طوبى لمن كانَ القرآنُ العظيم ربيعَ قلبهِ فيقطف من وردهِ وريحانهِ وأزاهيرهِ ويمتِّع ناظريه بجمالهِ وينتشي بعبقه وأريجه.

وطوبى لمن كانَ القرآنُ العظيم نورَ صدرهِ فيمتلئ بحبِ الله ورسوله وحب ذكره وطاعته وحسنِ عبادته وحب الخيرِ للناسِ أجمعين.

وطوبى لمن كانَ القرآنُ العظيمُ جلاءَ همهِ وغمهِ وحزنه فلا يشغله أمرٌ من أمور الدنيا عن ذكرِ الله ولا يجزع لموتِ حبيبٍ ولا يفقدُ رشدهُ لذهابِ مال.

طوبى لمن كانَ القرآنُ العظيم دستورَ حياته فينظم علاقتهُ بربهِ وأهلهِ وبالناسِ أجمعين بمقتضى مبادئه.

وطوبى لمن يقرأ القرآن بقصد التدبر والتفكر والتعلم.

منهجُ الله قائمٌ على العلمِ والعمل

المتبصِّر بآياتِ القرآنِ الكريم يرى أنَّ كلمتي العلم والعمل من بين أكثر الكلمات التي تكررت في القرآن الكريم.

فقد وردَ لفظُ العلم في موضع ولفظُ العمل في موضع وهذا يدل على أنَّ المنهج الرباني المنبثق من بين ثنايا هذا الكتاب المقدس قائم على العلم والعمل ويحرض عليهما كسلوكٍ أصيل مرجوٍّ لكلِّ من يؤمن بهذا المنهج ويدعو إليه.

والقرآن الكريم آياتهُ محكمات ولكلِّ كلمةٍ موضعها وتفسيرها ومدلولاتها وحاشا لكتابِ الله أن يحوي بينَ دفتيهِ كلماتٍ متكرراتٍ متشابهات بشكلٍ عبثي كما يحلو لبعض أنصاف المتعلمين أو المتخرصين أو المستشرقين أن يروِّجوا لذلك.

وما دامَ الله قد أفردَ لكلمتي العلم والعمل ولمدلولاتهما في سياق الآيات

التي وردت فيها كل هذا الوزن والاعتبار فإنهُ يريد لمن يؤمن بمنهجهِ القويم ويسلك صراطهُ المستقيم أن يكون العلم سبيله في معرفة خالقهِ فالمؤمن الذي يؤمن بالله على بصيرة خيرٌ من مؤمن جاهل لا يجدُ لذةً في عبادتهِ وطاعته.

وكذلكَ يريدُ الله سبحانهُ وتعالى للعبد أن يكونَ العلم رائدهُ في استنباط الأفكار والحقائق والنظريات للتعامل معَ محيطه الذي يعيش فيه وسواءً كانَ العلم الذي يطرق بابهُ علماً شرعياً يهدف إلى معرفة أصول التشريع من العبادات والمعاملات أو علماً تطبيقياً يهدف إلى تحسين وتطوير حياة الإنسان وتقديم الخدمات لهُ وجلب الرفاهية إليه. وكلٌ حسب مقدرتهِ وما تتوفر لديه من أدوات وسبل وفرص لمسكِ ناصيةِ العلم والإبحار فيه ولا يكلِّفُ الله نفساً بعدَ ذلكَ إلا وسعها.

ومثلما يحضُّ اللهُ على اكتسابِ العلم والعمل بهِ ودعمهِ ونشرهِ ويخاطب في ذلك كل الناس دونَ أن ينتقي منهم طبقةً أو فئةً دونَ أخرى ويجعل من ذلك مسؤولية الفرد تجاه نفسهِ ومسؤولية رب العائلة والمجتمع والدولة على حدٍ سواء كلٌ من موقعهِ وبقدر حجم مسؤوليته، فالكلُّ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته.

فإنهُ سبحانهُ وتعالى يحض على العمل الصالح النافع أيضاً والإسلام هوَ دينُ الحياة، والحياةُ لا تُصنع بالتقاعس والخمول والانقطاع إلى العبادة في زوايا المساجد أو المغارات.

والمؤمنُ العاملُ المنتج خيرٌ من المؤمن العابد غير المنتج والمؤمنُ القوي خيرٌ من المؤمنِ الضعيف. والقوة لا تأتي إلا من خلال العلم والعمل.

والانقطاع إلى العبادة كلياً وترك العمل كلياً لا تحقق إرادة الله في خلق الإنسان وهيَ عبادته عزَّ وجل والاستخلاف في الأرض بقصدِ الإعمار والبناء.

وتتجلى عظمة الإسلام في بيانِ فضلِ العمل من حديثِ الرسول الأكرم (ﷺ): (إن قامت الساعة وبيدِ أحدكم فسيلة فإنِ استطاعَ أن لا يقومَ حتى يغرسها فليفعل) ،رواه أحمد.

فإذا كانَ الرسول (ﷺ) يوصي صاحب الفسيلة في لحظاتِ الهولِ والشدَّة والخوف من قيام الساعة بأن يغرس الفسيلة التي في يدهِ إن وجدَ فسحةً من وقتٍ

قبلَ فناء الدنيا فكيفَ تكون وصيته لأمته في أيام محنتها واحتياجها للعمل الجاد والمثمر بعدَ تخلفها عنِ الركب وبعدَ أن سبقتها الأمم الأخرى في هذا المضمار، وهيَ بالرغمِ من تباطؤ خطواتها وتعثُّرها لا تشعر بالحرج والمهانة من هذا الوضع ولا تشعر أنَّها في الحقيقة تخالف أمرَ الله ورسوله بقبولها أن تكونَ أمَّةً ضعيفة مغلوبة على أمرها وأمة عاجزة غير منتجة.

العمل الصالح مقرون بالإيمان أبداً

الإيمانُ الصادق هوَ حُزمةُ نورٍ رباني تنبعُ من قلبك وتخترق الحجب وتنفذ في أقطار السماوات العلى لتتصلَ بنورِ الله وعرشهِ سبحانهُ وتعالى.

ولكي تبقى هذهِ الحزمة دائمة الإتّـقاد لا يخبو أوارها وشديدةُ الضياء لا يخفتُ نورها وماضية النفوذ في السماوات فإنَّ المرجل الذي تتولد فيه حزمةُ النورِ هذه يجب أن يكونَ في عملٍ دؤوبٍ متواصل آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار وأن يكونَ الوقود الذي يحرك المرجلَ هوَ محبة الله ورسوله والعمل بمقتضى كتابه وسنة نبيه والإكثار من الطاعة والعبادات والعمل الصالح.

وأي تلكؤ أو تهاون في توفير الوقود الذي يُشغِّل مرجلَ قلبك فإنَّ ذلكَ يعني أنَّ حزمة النور لن تخرج من قلبك وينقطع اتصالك الوجداني بربك وخالقك فيقسو قلبك وتشقى نفسك وتجدكَ وقدِ ابتعدتَ شيئاً فشيئاً عن منهجِ الله وسلكتَ طريقاً معوجاً بدل صراطِ الله المستقيم.

وتخيَّل أنَّ حزمة النور التي تنطلق من قلبك يتم تجميع نورها لك في ملكوت السماوات حتى إذا كانَ يوم موتك بعثَ اللهُ قبساً من هذا النور فيُنوِّرُ بهِ قبرك، وإذا كانَ يوم الحشر بثهُ الله حواليك فتكون من الذينَ يسعى نورهم بينَ أيديهم.

وتخيَّل إذا كانَ مرجل قلبكَ معطلاً صدئاً لا يشتغل ولايبعث نوراً البتة، أو إذا اشتغلَ كانَ اشتغالهُ بطيئاً متقطعاً لا ينبعث منه إلا بينَ الحينِ والآخر نوراً خافتاً خجولاً وإن استطاعت حزمةٌ منه النفوذ في السماء ارتدت لأنَّ فيها من الشوائب ما لا يقبلها الله أن تُخزَنَ في ملكوته، وعند مماتك يكون قبرك مظلماً موحشاً ويومَ البعث تتخبطُ في ظلماتكَ فلا تملكُ نوراً مخزوناً حتى يبثهُ اللهُ حواليك.

إذن أساسُ صلتك بربك هوَ الإيمانُ الصادق الكامل وبدونه لن يكونَ لكَ نورٌ صاعدٌ في السماء ولن يكونَ لكَ عملٌ متقبَّل.

وهناكَ مرادفٌ ومكمِّل للإيمان وهيَ النية الخالصة لوجه الله تعالى فيكون لكَ نورٌ منبعث من قلبك وعملٌ صالحٌ مُتقبَّلٌ إذا اقترنَ الإيمانُ الكامل بالنية الخالصة الصادقة النقية وبدونهما ليسَ لكَ شيء.

ومن يقرأ كتابَ الله يكادُ لا يجد ذكرَ العمل الصالح إلا مقترناً بالإيمان في ربطٍ متينٍ ووثيق ويريدُ اللهُ بذلك أن يرشدنا سبحانهُ وتعالى أنَّ أساس ومقياس كل عمل صالح هوَ الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٩].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥].

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم: ٤٥].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢].

واللهُ سبحانهُ وتعالى وهوَ الذي جعلَ أساسَ خلقنا أن نعبده وأعطانا كل الوسائل التي توصلنا إلى الإيمان بهِ أولاً ولعبادتهِ حقَّ العبادة ثانية من تسخير الكون لنا وإعطائنا نعمة العقل والتدبر وبعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب السماوية حتى كانت البعثة الخاتمة والكتاب المنهج (القرآن الكريم).

فلا تكون للإنسان بعدَ ذلك من حُجة على الله سبحانه وتعالى.

أفليسَ العدل كلُّ العدل إذن أن يكون أساس الحساب يوم القيامة هوَ الإيمان الكامل والنية الصادقة والعمل الصالح المنبثق عنهما، وأن لا يقبل الله

أي عمل غير مرتكز على هذين الركنين الأساسيين.

وحاشا لله أن يكون في حاجةٍ إلى إيماننا وعبادتنا إنما هيَ الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان فاليوم يُحاسب بمقتضى هذهِ الأمانة التي قبلَ حملها، وإنَّما هيَ أعمالنا نوفَّها يوم القيامة.

حديث قدسي: ... ياعبادي لوأنَّ أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلكَ في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما نقصَ ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لوأنَّ أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا على صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخلَ البحر، يا عبادي إنما هيَ أعمالكم أحصيها لكم ثمَّ أو فيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿...وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣_ ١٠٥].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

وبمقتضى عدل الله وكرمهُ وسخاءهُ على عباده المؤمنين أن جعلَ كل سعيهم

وكل عملهم أعمالاً صالحة سواءً ما كانت منها في العبادات أو كانت في المعاملات ما دامت تنبعُ عن إيمانٍ ويقينٍ راسخٍ بالله ونيةٍ صادقة لوجههِ تعالى.

فكل عمل تريدُ بهِ وجه الله تراهُ في ميزانِ حسناتك يومَ القيامة حتى ما كانَ منهُ سعياً لرزقكَ أو ضرباً في الأرض وراءَ تجارتك أو عطفكَ على أهلك وأولادك وإنفاقكَ عليهم أو احترامكَ لجارك أو مالاً تتصدَّقُ بهِ على يتيمٍ أو مسكين أو قريب.

أمَّا إذا كانت صلةُ العبدِ مقطوعة بربهِ والشك بوجوده مزروعاً في قلبه أو تَقديسُ أحدٍ من خلقهِ والتضرُّع والتوسل إليه في جلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرَّةٍ من دونِ الله تعالى هوَ أساسُ اعتقاده فإنَّ الله لا ينظرُ إلى أي عمل يقومُ بهِ بعدَ ذلك حتى إذا كانَت فيه منفعة عامة لأنَّ عملهُ هذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل وراءهُ رغبة في كسبٍ مادي أو شهرة علمية أو ارتقاء منزلة عالية دنيوية، ويعطيهِ اللهُ مرادهُ في الدنيا ولكن لا يكونُ لهُ حظٌ في الآخرة.

وكثيراً ما نجد بعضَ السفهاء يقولون وهم يشيرونَ إلى رجلٍ بسيطٍ رث الثياب قد أنهكهُ التعب من العمل المضني طوالَ يومهِ وهوَ يُغذِّي الخُطى إلى المسجد: أهذا يدخل الجنة أم يدخلها مخترع الكهرباء هذا الذي أفادَ الإنسانية كلها في مشارقِ الأرضِ ومغاربها.

ونقولُ لهؤلاء السفهاء: لو أنَّ مخترع الكهرباء - أو صاحب أي اختراع يفيد البشرية - مؤمناً إيماناً كاملاً كما يرتضيه الله ويريدهُ لعباده وكانَ صادقَ النية بعملهِ فإنهُ يكسب ثواباً من كل ومضة نور في مصباح وكل دوران لمحرك يعمل بالكهرباء ويجلبُ نفعاً لأحد من خلقِ الله.

وتخيَّل نفسك تنظر من قمرٍ اصطناعي إلى الأرض من خلال منظار مكبر جداً فكم عدد المصابيح التي تراها تُضاء على وجه الأرض خلالَ الليلِ والنهار وكم محركاً يتحرك فيدوِّر المصانع لتنتج ملايين الأطنان من الغذاء والدواء والملبس فإنَّ الله يكتب بها جميعاً ثواباً لمن أوجدَ هذا الاختراع إلى يومِ القيامة لو صحَّ إيمان المخترع بالله وصدقت نيتهُ لهُ سبحانهُ وتعالى.

هذا هوَ السخاء والكرم الربَّاني الذي لا يمكن للعقل البشري أن يدركَهُ

ويتصوَّر عظمته.

ومقابل ماذا؟؟

الإيمان بالله وإخلاص النية لوجههِ تعالى.

فمَن يرفض فيض الكرم هذا مقابل كسب مادي أو وجاهة دنيوية لا يكون إلا كافراً أو جاحداً قد عُمِيَت بصيرته.

ولكن ماذا يفعل بالجنة من لا يؤمن بها أصلاً ولسان حالهُ يقول إن هيَ إلا حياتنا الدنيا نموتُ فيها ونحيا ولا يؤمنُ بخالقِ الكون ولا يؤمنُ بالبعثِ ولا بيومِ الحساب.

ولا أريدُ هنا أن يُفهم من كلامي أنَّني أكفِّر مخترع الكهرباء أو أدخلهُ النار فلا يملك أي مخلوق أن يفعل ذلك لأنَّ ذلك يدخل في علمِ الله ومشيئته وليسَ لأحدٍ أن يتجرَّأ فيصدر الأحكام نيابةً عنِ الله سبحانهُ وتعالَى في تصرّفهِ بملكهِ وخلقه.

ولكننا نقيسُ الأمور كما نفهمها من كتابِ الله وسنة نبيهِ (ﷺ)، واللهُ يفعلُ بعبادهِ ما يشاء وهوَ أرحمُ الراحمين.

ونقول للسفهاءِ أيضاً وماذا يدريكم لعلَّ في قلبِ هذا الرجل البسيط الذي تسخرونَ منهُ، إيماناً صادقاً ويقيناً راسخاً لو بُثَّ في الآفاقِ أمامكم لأضاءها كلها نوراً وبهاءاً.

نعم خيرُ الناس من نفعَ الناس، ولكن الأصل في السعي إلى جلب منفعة للناس هوَ طلب رضوان الله تعالى ولا يطلب ذلك إلا من يؤمن بالله القدير ويؤمن بيومِ الحساب وما عدا ذلك لا يكونُ إلا مطلباً دنيوياً ملتصقاً بالأرض مدفوناً معَ صاحبهِ فيه عندَ موته.

٢١ - ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ الله...

تباً لمن يسرق أحلام الصغار

اجتمعت العائلة الصغيرة حولَ مائدةِ الطعام عشاء يتسامرون، تحفّهم الألفة والمحبة وتجمعهم أحلام مشروعة بسيطة في رسمِ مستقبلٍ مشرق ومزدهر للعائلة.

الأم التي شارَفَت على الستينِ من عمرها وابنها في العقدِ الرابع وزوجتهُ الشابة وابنتهما ذاتِ الأعوام السبع وطفلٌ قد أكملَ السنتين قبلَ أشهر عدة.

الطفلة كانت في أوجِ نشاطها وسعادتها فقد كانت مع والديها في جولةِ تسوق عصر اليوم فرجَعَت بحقيبةٍ مدرسية جديدة وبعض المستلزمات المدرسية التي عبثت بها الحقيبة، وكانت لا تنفكُّ تتحدث عن زميلاتها في المدرسة وكيف تضع الحقيبة الجديدة على ظهرها صباحَ الغد فيتحلّق حولها زميلاتها ويسألنها عن ثمنها ومن أينَ اشترتها وعن محتوياتها وكانت أمها تنصَحُها بينَ الحينِ والآخر أنْ تُكمِلَ طعامها وأن تؤجِّلَ حديثها لما بعدَ العشاء ولكن الطفلة وقد تحقّقَ حلمها الصغير كانت تحلِّق بخيالاتها في دنيا من النشوة البريئة الساذجة.

بعدَ العشاء أبكرَت الطفلة في النوم على غيرِ عادتها وكأنها تريدُ أن تستعجِلَ قدومَ الصباح لتعيشَ أولَ أيامها معَ الحقيبة الجديدة، كانَ الابنُ قد قبضَ راتبهُ ذلكَ اليوم فجَلَسَ بجوارِ أمّه وقبّلَ يديها ثمَّ وضَعَ مبلغاً من المال في يديها مانعتِ أمه في أخذِ المبلغ وقالت يا بنيَّ ليسَ لي حاجةٌ بالمال فأنا أعيشُ معكم وإذا ما احتجتُ إلى شيء خاص سأطلبه أعطِ المالَ لزوجتكَ فهيَ أحوجُ مني إليه، قالَ لها أمَّاه لن أنسَ زوجتي سأعطيها مبلغاً من المال تستعينُ بهِ في قضاءِ حاجاتها الخاصة، قالتِ الأم بنيَّ خذِ المبلغ عندك وأنتَ تعلمُ أنَّ لي رغبةً وحيدة أتوقُ إلى تحقيقها وهيَ أن أحجَّ إلى بيتِ الله وأزور قبرَ النبي عليهِ الصلاةُ والسلام فاوعدني أن تأخذني إلى الحج إذا فتحَ الله عليك وتيسَّرَت أمورك قال لها أعدك يا أمَّاه بذلك ولكن دعي هذا المبلغ معكِ فَقبَّلت جبينهُ وأخذتِ المبلغ منه.

في غرفةِ النوم جلسَ إلى زوجتهِ وأخذا يتحدثان في احتياجاتِ البيت وترتيبها حسب الأولويات واتفقا أن يستخرجا مبلغاً مقطوعاً كل شهر لشراءِ بيتٍ صغير أو شقة مناسبة ولو بعدَ حين وحمدا الله على ما هم فيهِ من نعم ودعيا الله أن يوفقهما لتربيةِ طفليهما على ما يرضي الله.

عندَ صلاةِ الفجر عندما استيقظَ الابن وجَدَ والدتهُ قد سبقته ووجدها تسجد لله، توضَّأ وقامَ إلى صلاتهِ وأنهى أذكارَ الصباح، كانتِ الأم لا تزالُ على سجادتها فوضَعَ رأسهُ في حجرها وقالَ لها يا أماه هل أنتِ راضيةٌ عني، فمسحت على جبينه وقالت أي بني وهل لي في هذه الدنيا غيرك وغيرَ أولادك لأفديهم بعمري، رضيَ عنكَ الله ورسولهُ كما رضيتُ عنك.

بعدَ أن قامَ من غفوتهِ بعد صلاةِ الفجر وأنهى استعداداتهِ الصباحية دعتهُ زوجتهُ إلى تناول الإفطار وكانت ابنتهُ قد سبقتهُ وبَدَت نشيطة تقفزُ من الفرح وقد شدَّت حقيبتها إلى ظهرها واستعجلتهُ في إتمام الفطور وسبقتهُ إلى الباب وهوَ لا يزال على مائدة الإفطار ضحكَ من تصرفها واستعجالها فَلَم يشأ أن يبطئَ عليها فرحتها ودَّعَ أمهُ وزوجته وسألهم عن حاجات البيت لهذا اليوم.

فَتحَ باب العربة الخلفي لابنتهِ فأبَت إلا أن تجلس في المقعدِ الأمامي إلى جوارهِ طلبَ منها وضعَ حقيبتها في المقعدِ الخلفي ولكنها أبَت فنزعتها من ظهرها ووضعتها في حضنها.

بعدّ أن تحرَّكت العربة قليلا وقبلَ أن تصلَ إلى تقاطعِ الشارعِ القريب من دارهِ اعترضتهم عربة أخرى مسرعة ووقفت أمامَ عربتهِ وخرَجَ منها شخصانِ ملثمان أحدهما اقتربَ منه كأنما يريدُ أن يطلبَ منهُ شيئاً ولمَّا فتحَ زجاجَ العربة وجدهُ يشهر سلاحاً في وجههِ ولم يعرف لذلكَ سبباً ولكنهُ تيقَّنَ أنهم يريدون بهِ شراً فمالَ على ابنتهِ يحيطها بذراعيه وكانَ الآخر قد أفرَغ ست رصاصات في ظهرهِ ورقبتهِ.

كانت الطفلة مصدومة قد أفزعها الحادث وكانت قد تكوَّرت تحت ذراعي أبيها كَقطة خائفة لا تعي ما الذي حدث وقد أغمضت عينيها، حتى أحسَّت بشيءٍ ساخن ينزل على رقبتها ولمَّا تحسسته بصعوبة وجدت يدها ملطخة بالدم فسحبت نفسها مذعورة فَسقطَ رأسُ أبيها في حجرها مضرجاً بالدم نادَت عليهِ بخوف فلم

تسمع إلا شهقات خفيفة وحشرجة وتدفُّق الدم الحار من جرحٍ في رقبة أبيها لِيغرقَ وجهها وصدرها بالدم فانتفضت ترتعشُ من الخوف وتصرخ مناديةً على أعزِّ الناسِ لديها ولكنهُ كانَ يعالجُ سكراتِ الموت في تلكَ اللحظات أو يكونُ أنهاها وفارقت روحه إلى بارئها.

وكانَ المجرمون قد اختفوا في لحظات فالأمر لم يستغرق برمتهِ إلا لحظات وحدث أمام أعينِ عشراتِ الناس الذينَ لم يحركوا ساكناً.

كانت الزوجة سمعت صوت إطلاق الرصاص فقالت كرد فعل عفوي (يا ساتر) مرَّت لحظات سكون بعدَ إطلاق النار ثمَّ سمعت لغطاً وتراكضاً أمامَ الدار وجاءَ من يدقُّ الباب بعنف هرولت نحوَ الباب وهيَ تشعر أنَّ قلبها صارَ ثقيلاً في صدرها وبدأ يتهاوى في داخلها حتى إذا فتحت الباب كانَ صبياً يلهث فأخبرها أنَّ زوجها قد قُتل. في لحظاتٍ خاطفة تذكرتهُ عندما كانَ يمسكُ بيدها في الغرفة ليلة أمس تذكَّرت ابتسامتهُ الجميلة وهوَ يذكرها بأنهُ يهيئ لها مفاجأة في الشهر القادم ولم يفلح رجائها في حينهِ أن تثنيهُ عن عدم إخبارها وكانَ يضحك ثمَّ تذكَّرت وجههُ وهوَ يمسكُ بيد ابنتها قبلَ لحظات ونزلت غشاوة على عينيها فسقطت مغشية عليها.

لا تدري كم مضى عليها الوقت وهيَ في الغيبوبة ولكنها عندما فتَحت عينيها أحسَّت أنها في كابوسٍ مزعجٍ لا تسمع شيئاً وجدت منزلهم مكتظاً بالجيران ورأت نعشاً في وسطِ الغرفة تحلَّقَ حولهُ بعضُ النسوة لم تسمع بكائهن كانت ترى حركات فقط وصارت تلتفت يمنةً ويسرة ما هذا الحلم وأينَ هيَ. شعرت كأنها تطيرُ في الغرفة رأت حماتها عندَ رأسِ النعش تمعَّنت فرأت زوجها الحبيب مسجياً في النعش وحماتها تمسح بغطاء رأسها الأبيض الدمَ من وجههِ وشفتيه وتقبِّلُ يدهُ البيضاء التي خرجت من النعش.

رأت رجالاً كثراً واقفين في صمتٍ ووجوم، رأت ملابسَ ابنتها ملطخة بالدماء على أريكة مجاورة وإلى جوارها حقيبتها الجديدة وقد اختفت الصور الملونة المرسومة عليها وراءَ لونِ الدمِ الأحمر القاني ثمَّ رأت ابنتها في حضنِ امرأةٍ من جيرانها وهيَ تضمُّها بقوة لِتَذهبَ عنها بعضَ الخوف الذي ما زالت ترتعش منه، رأت كل النسوة تحدقنَ بها وإحداهنَّ تسندها بصدرها ونزلت غشاوة

على عينيها وسقطت في حضنِ جارتها.

ألا تباً لمن يسرقُ أحلامَ الأطفال .. تباً لمن يمشي على أرضِ أحلامهم الوردية بأقدامهِ القذرة فيلوثها دماً وألماً وفراقاً ويتماً.

ألا تباً لمن يشعل النار في قلبِ أمٍ ثكلى فترى ولدها الوحيد في أحضانها مضرجاً بالدماء قد فارقَ الحياة.

تباً لمن أوقفَ مسيرةَ الحياة لزوجة شابة مفجوعة بزوجها.

ضغطة زناد من اصبعٍ قذر لرجلٍ أجوف الرأس فقدَ بصيرتهُ تورث كل هذا الألم والحزن.

ضغطة زناد من رجلٍ يوهَب دريهمات معدودات على فعلتهِ وجرمه.

ضغطة زناد يتوارى من بعدها الفاعل بينَ الناس ويترك وراءه قيحاً وعذاباً لا ينتهي.

ألا تباً لمن يدفع لهذا الآثم هذهِ الدريهمات.

وتباً لمن يهيئ فكرهُ ويعبئ دماغهُ النتنة ويسهل عليهِ هذا الفعل فيقدم على هذا العمل الآثم بقلبٍ قُدَّ من صَخر.

ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ الله...

ونحنُ نستشعر مأساة العائلة الصغيرة التي نامت مطمئنة راضية وسعيدة بحياتها شاكرة لأنعمِ الله عليها ففاجأتها يدُ الغدر صباحاً تسلبَ منهم أعز إنسان عليهم (الابن والزوجِ والأب)، ندرك عظمةَ العدل الإلهي الذي حرَّمَ القتل وجعلهُ من الكبائر التي توردُ صاحبها الى نارِ جهنم.

اللهُ سبحانهُ وتعالى هوَ الذي خلقَ النفسَ البشرية وبثَّ فيها من روحهِ وجعلَ لكلِّ نفسٍ أجل وكتاب ولم يجعل لأحد سلطاناً على أحد فيقتلهُ إذا شاء ومتى شاء وكيفَ شاء، فقبضُ النفس من أمرِ الله وحدهُ وكأنما القتل غدراً أو فساداً في الأرض كمن يتعدّى على أمرِ الله.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢].

سبحانكَ اللهم ما أكرمَك وأعدَلك، ها أنتَ تنزل غضبك ولعنتكَ لمن يقتل مؤمناً متعمداً وتعد له العذاب العظيم.

الإنسان وهو هذا المخلوق الذي خلقته كما خلقتَ الكونَ كله، الكونَ الشاسع المترامي الأطراف الذي لا ندرك كنههُ واتساعه والأرضَ كلها منه كقطرةِ ماء في محيط. هذا الكون يكون بينَ أصبعيكَ يا رحمن تفعلُ به ما تشاء.

ثمَّ تغضبُ لقتلِ مؤمن وتلعنُ من قتلهُ وتعدُّ لهُ عذاب جهنم جزاءاً وفاقاً.

ما أعدلك يا ربُّ وأنتَ تنظرُ بعينِ العدل والرحمة إلى عبادك، فيكون قتلَ نفس واحدة بظلمٍ أو فساد في الأرض كقتلِ الناس جميعاً ويكون إحياءها كإحياء الناس جميعاً.

عجباً لمن يؤمنُ بالله ورسوله ويقرأ قرآنه ثمَّ يستسهل القتل أو يحرض عليه.

عجباً لمن يدعي الإسلام ثمَّ يزهق أرواحاً مسلمة بريئة تحتَ ذرائع ما أنزلَ الله بها من سلطان، أو لقاء دريهمات معدودات.

روحكَ التي بينَ جنبيكَ يؤثمكَ الله لو فرَّطت فيها بنفسكَ ومحضَ إرادتك فكيفَ بأرواح الناس.

من قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناس جميعاً...

ماذا يقولُ لله يومَ القيامة هذا الذي يحرضُ شاباً متهوراً ناقص العقل والدين فيزين لهُ قتل الناس ويوهمهُ بأنَّ لهُ الجنة لو فعل، فيفجِّر هذا البائس نفسهُ في طابورٍ من الناس أو في سوقٍ مزدحمة فيقتل العشرات والمئات في طرفةِ عين ولكلٍّ واحدٍ منهم حياة وأسرة وأم وزوجة وأطفال فيفكك بفعلتهِ هذا النسيج المترابط ويورثهم بؤساً وشقاءاً وحرماناً ويتماً.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٣٣].

يأمرنا الحق سبحانهُ وتعالى أن نكظم غيظنا في قمةِ الألم الذي يصيبنا والكرب الذي يلمُّ بنا عندما يُقتل لنا عزيز أو قريب فلا يسرف في القتل ولا ينتقم من أهلِ القاتل أو أخوتهِ أو ذوي قرباه فتكونُ الفوضى ويكون الانتقامُ المضاد.

لم يجعل لولي القتيل أو المغدور بهِ إلا سلطاناً على القاتل فحسب فإذا قالَ القضاء العدل كلمتهُ فيه فلا إسرافَ ولا اعتداءَ بعدَ ذلك.

ها هوَ الرسول (ﷺ) يبين لنا -والرسولُ لا ينطقُ إلا بالحق- : (قتل المؤمن أعظم عندَ الله من زوال الدنيا) رواه النسائي، ويقولُ أيضا:(لوأنَّ أهلَ السماء وأهلَ الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبَّهم الله في النار) رواه الترمذي.

فهل بعدَ ذلك من حجةٍ يحتجُّ بها أحد على قتلِ الناس على شبهة باهتة ليسَ لها من الحق شيء.

نستشعر عظمَ الذنب لمن يقتل مسلماً من حديثِ رسولِ الله (ﷺ) :

(لوأنَّ أهلَ السماء وأهلَ الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبَّهم الله في النار) رواه الترمذي.

أهلَ السماوات والأرض في كفة والمسلم الفرد في كفة هذا هو ميزان العدل الإلهي الذي لا يقبل الظلم والعدوان، حتى إذا كانَ أهل السماوات والأرض في كفة وانسان مظلوم في الكفَّة الثانية.

ألا بئسَ ما يفعلون.

(إنَّ الفتنة نائمة لعنَ الله من أيقظها).

والموقظ للفتنة هو المروج لها والمحرض عليها تحتَ أي ستار أو ذريعة كانت وهوَ المسهل الذي يبسط يدهُ ومالهُ من أجلها وهوَ الجاهل الذي يشعل فتيلها.

ألا بئسَ ما يفعلون.



دراسة مختصرة
في تعدد الزوجات

تأليف

زهير آميدي



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من يبحث عن رأي فقهي مجرد في موضوع تعدد الزوجات لا يجد مبتغاه في هذه الدراسة المختصرة فللافتاء والفقه رجالاته وعلماؤه ومناهجه ومدارسه.

وما أمتلك من علم لا يؤهلني أن أحوم حول حمى الافتاء حتى. ولكني أردت أن أتطرق للموضوع من منظور أخلاقي اجتماعي اسلامي والخوض في تداعياته على فئات المجتمع المسلم رجالا ونساء وحسب طبيعة تفكيرهم وقربهم وبعدهم عن منهج الله.

وحاولت أن أغور في أعماق نفس الأطراف التي قدر الله لها أن تمتحن في دينها وأخلاقها وسلوكها فشملها التعدد . . أقصد الزوج والزوجة الأولى والزوجة الثانية.

كيف يفكر كل طرف ؟؟

كيف ينظر الى الموضوع رفضا أو قبولا مطلقا . . أو قبولا على مضض . . أو قبولا مشروطا؟؟

وحاولت على قدر ما امتلك من معلومات وافكار أن ابحث بعض الحالات السلبية المقترنة بالتعدد في بعض مجتمعاتنا الاسلامية ثم استخلص بعض الرؤى والأفكار في النهاية.

وأرجوأن اكون وفقت في اضافة فهم بسيط جديد حول الموضوع والقصد والمبتغى انشاء الله هو الوصول الى مجتمع نظيف عفيف محصن بالخلق الحسن والتعامل الراقي بيننا كافراد وفي بيوتنا وداخل أسرنا وفي مجتمعاتنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه وسلم

زهير آميدي

آذار - ٢٠٠٥



رأي المجتمع في التعدد

نصف المجتمع تقريباً لا يقر التعدد.

كل النساء - وهنَّ نصف المجتمع- ينفرنَ من هذا الموضوع بشكلٍ أو بآخر.

فالمرأة المطبوعة طباعها والمبهورة بأخلاقيات وسلوك المجتمع الغربي لا تقرُّ ذلك اطلاقا وتعتبره انتقاصاً في حق المرأة وتجاوزا على شخصيتها المعنوية والاعتبارية.

والمرأة المتأرجحة الايمان صعوداً وهبوطاً والسطحية التفكير في معتقداتها وفي كل أمور الحياة لا تقره أيضاً وهي ترضى لزوجها الوقوع في المعصية ولكن لا ترضى له الزواج بامرأة أخرى وإن رضيت رضيت مكرهة ومرغمة ويكون سلوكها ورد فعلها سلبياً في الغالب.

وحتى المرأة التي تتظاهر بالقبول الكلي وتسعى هي لاختيار الزوجة الثانية لزوجها فهي في باطنها تعيش صراعا عنيفا تحاول كبته وتدثيره بشتى الوسائل، وقد ينفجر في أي حين قبل أو بعد الزواج.

أما المرأة العارفة لربها وتخشى الله في دينها فإنها في موقفٍ صعب.

فهي بفطرتها كأنثى تنفر منه ولا تريده لنفسها أو أقرب المقربين إليها ولكنها وبحكم إيمانها لا تستطيع أن تنكره وتجرده من فسحة المشروعية التي أقرها الله في كتابه وسنة الرسول (ﷺ) في سنته الشريفة. ولكنها في نفس الوقت تضعُ من القيود والشروط ما يجعل من تطبيقه أمراً صعبَ المنال.

وفي الحقيقة أن المشكلة عند عموم النساء ليس العدل، حتى إذا كان مطلقاً وحتى إذا كان الرجل تقياً وورعاً، فإن إفرازات الحالات السلبية الكثيرة للتعدد والضغط الاجتماعي الذي ينكر في أغلبيته هذا الأمر هو الذي يشكل الهاجس الأكبر عند المرأة إلى جوار غيرة الأنثى التي فطرت عليها.

وردَّة الفعل عند المرأة يتعاظم ويتناقص فيكون مدمراً في بعض الأحيان ورضاً وقبولاً بالأمر الواقع - مع الإبقاء على رفضه واستهجانه داخلياً - حيناً آخر ويتأثر أيضاً حسب وضع المرأة الاجتماعي ومستواها الثقافي وبين مجتمع المدينة والريف.

ولكن، حتى المرأة التي ترضى أن تكون الزوجة الثانية لا يمكنها أن تتخلص من غيرتها كأنثى وتتمنى أن تجد نفسها يوما السيدة الوحيدة التي تمتلك قلب زوجها.

أما النصف الآخر من المجتمع وهم الرجال فهم منقسمون في رأيهم أيضا بشأن التعدد.

فاللادينيون والمبهورون بثقافة الغرب لا يقرون هذا المبدأ ويرون في هذا التشريع اجحافاً بحق المرأة التي يجب أن تتساوى مع الرجل في كل شيء.

تماماً كما يطعنون في موضوع الميراث وشهادة المرأة ومن دون ان يتعمقوا في موضوع حقوق المرأة في الاسلام في إطاره العام الشامل.

وهم ينسون أو يتناسون أن التشريع كل شامل ولا يمكن توجيه النقد والطعن في جزئية واحدة خارج الإطار العام لأن ذلك يفقده مصداقية النقد ويدخله في إطار الطعن لمجرد الطعن، وأيضا من دون التمييز بين التشريع والتطبيق.

هذه الفئة ترضى أن تكون المرأة سلعة رخيصة على قارعة الطرق وعلى صفحات المجلات اوإعلانات التلفاز بل تكاد تتفق مع الكثيرين ممن ينادون بزواج المثليين باعتبار أن الموضوع يدخل ضمن إطار الحرية الشخصية.

وهذه الفئة مبهورة بالتقدم العلمي والتقني في الغرب واحترام الحقوق المدنية فيها وأنظمة حكمها التي تحارب التسلط المطلق وتحارب الفساد الإداري في ظاهره المعلن على الأقل.

وترى نقيض ذلك في المجتمعات الاسلامية من تخلف علمي وتقني وعدم وجود آلية وبرامج لتطويرها. وترى حكاماً فاسدين متسلطين ومجتمعات مقهورة مغلوبة على أمرها وأنظمة حكم شمولية قمعية لا وجود لحقوق المجتمع المدني في قواميسها ودساتيرها وفساداً ادارياً بغيضاً وضياعاً لثروات الشعوب في جيوب

الحكام والمنتفعين.

ولأن هذه المجتمعات هي مجتمعات إسلامية بالمعنى المجرد للكلمة وبما ان تلك الفئة ترى أن سبب تقدم المجتمعات الغربية هي في ابتعادها عن الدين وتركه في زوايا الكنائس ودور العبادة لمن شاء أن يتعبد. وبالنتيجة ترى أن سبب تخلف مجتمعاتنا هو الدين أيضاً فلا بد من انتهاج المنهج الذي سار عليه الغرب مع الدين وإلا فلن تقوم لمجتمعاتنا قائمة وهي بذلك لا تفرق بين المنهج الرباني الشامل في الرسالة الخاتمة وبين الأديان الأخرى التي وصل التحريف والتشويه الى أصل العقيدة فيها.

ترى هذه الفئة أيضا أن تتبع خطوات تلك المجتمعات في مراحل تطورها وفي كل ميادين الحياة حتى التي يتعلق منها بالقضايا الاجتماعية خطوة بخطوة - حتى إذا كانوا دخلوا جحر ضب دخلناه مثلهم - هوالطريق الأقرب للوصول إلى مجتمع متحضر يمتلك ناصية التقدم العلمي والفكري والسياسي.

هذه الفئة على حق في كثير مما ذهبت إليه في وجوب تغيير جذري في حياة مجتمعاتنا وإلا فإننا سنبقى في عتمة التخلف وفي نفق لا نهاية له.

ولكن خطأ هذه الفئة هو أنها تُحمِّل المنهج الإسلامي وزر الحكام ووزر الفوضى الفكرية والعقائدية والاجتماعية التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية.

وهي تتنكر للنظام الاجتماعي والأخلاقي للإسلام في صورته النقية التي رسمها القرآن الكريم وأوجدها النبي (ﷺ) تطبيقاً وواقعاً في حياته وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده وهي صورة لايمكن الوصول إليها بأي منهج وضعي بديل.

وثمة حقيقة تغيب عن فكر هذه الفئة وهي أن امتلاكنا لناصية العلم والتقدم التقني في أرقى وأبهى صورها لا يتعارض ولا يتقاطع البتة مع النظام الاجتماعي الإسلامي المتين والمتماسك.

فهو في الوقت الذي يلبي احتياجات الفرد واستقلاليته في ماله ونفسه وفكره فانه يؤسس لجملة من العلاقات والسلوكيات بين أفراد الأسرة الواحدة وبين الأقارب والجيران والمجتمع ككل وبين الغني والفقير والحاكم والمحكوم وبين

الإنسان وأخيه الإنسان بل حتى بين الإنسان والحيوان.

وهو يحرض في الوقت نفسه الأفراد والمجتمع على حد سواء على التعلم والتدبر وصولاً إلى الاستفادة من كل ما بثه الله في هذا الكون وتسخيره من أجل رقي الإنسان وتطوره.

الفئة الغالبة -من حيث الكثرة - في مجتمعاتنا هي التي تسير بلا منهج واضح في الحياة.

تجمع بين التوق إلى حياة الغرب في نظم حياتها وفي مناهجها حتى الفاسد منها أحياناً، وبين التشبث الأحمق ببقايا من التقاليد الجاهلية والقبلية البعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي الصحيح وبين عقائد إسلامية في صورة باهتة تحتاج إلى الكثير من الصقل لتعود إلى رونقها وأصالتها.

وعناصر من هذه الفئة يسهل اصطيادها من قبل أوكار التطرف الفكري الغارقة في الضلالة والظلامة أو من أقصى اليسار الملحد الذي ينكر وجود خالق للكون أصلاً، أو تتيه بين عقائد وسلوكيات المنهجين الأخرقين صعوداً ونزولاً في سلم ودرجات من التحلل من القيم الاجتماعية أو التشبث بها وفي النفاق السياسي والاجتماعي حسب مصالحها وهواها. وفي تقربها من الله وعباداتها حسب المواسم أو الظرف الذي تمر به.

ما يهمنا من أمر هذه الفئة هنا هو رأيها في موضوع التعدد فقط. والذي نراه أيضاً لا يستند إلى رأي شرعي محدد أو حالة اجتماعية بعينها إنما يتذبذب بين قبوله كما هودون الغوص في تفاصيله أو الظلم الذي قد ينجم عنه في الكثير من الحالات. أو رفضه لسبب موقف اجتماعي أو شخصي ودون الخوض في الموجب الشرعي اوالاجتماعي أو الشخصي للحالة المبحوثة عنها.

ومن يلجأ منهم الى التعدد فانما يفعل بدافع الغريزة السمجة ليس الا ولا يجعل من العدل معياره أو ميزانه مطلقا لأنه قد لا يكون عادلا أصلا مع زوجته الأولى وأولاده أو مع أبويه واخوته.

وحتى لا نرسم صورة قاتمة عن هذه الفئة الغالبة في مجتمعاتنا لا بد من التنويه أنه بين هذا المد والجزر الكثير من الصور المشرقة التي تتلمس خطاها

نحومنهج الله، تتعثر أحيانا نعم، تتوقف أحيانا أخرى نعم، ولكن لا تزال في قلوبهم رواسب ايمانية يمكن البناء عليها.

وعلى مفكري الأمة ودعاتها أن يأخذوا بيد هؤلاء لأنهم سيشكلون النواة الصالحة لمجتمع متراص متماسك البنيان تسوده القيم والأخلاق النبيلة التي أقرها الله لعباده في كل رسائله السماوية.

ويكون بمقدور المجتمع حينئذٍ التأسيس لنهضة فكرية وعلمية شاملة تنفض بها الأمة عن جسدها الغبار المتراكم عليها منذ عقود طويلة وتحتل مكانها الصحيح بين الأمم في البدء ولتأخذ الريادة بعد ذلك بمنهجها الفكري القويم الذي يحقق للانسان ما ارتضاه الله بأن كرمه وجعله سيد هذا الكون ليعيش حراً في نفسه وماله ومعتقده في الإطار الذي لا تنتقص هذه الحرية الشخصية من حريات الآخرين أو تضرُّ بمصالحهم أو مصالح المجتمع.

الفئة الثالثة هي التي تعرف شرع الله ومنهجه في الأمور كلها ولكن في تطبيقاتها العملية قد لا تسير على خطى السلف الصالح وبنفس المنهجية التي يكون الهدف فيها هورضوان الله، والوسيلة والآلية هي كل الأدوات الشرعية المتاحة التي تأخذ من مخافة الله مقياساً للتحرك وتتجنب الإضرار بأي فرد وتنأى عن التأثير السلبي في المجتمع نفسه، ودون أن تكون هذه الآلية معوقة للعزيمة والطموح المشروع.

وفيما يخص موضوع التعدد فإنها تعرف حدود الله والضوابط الشرعية المرتبطة بهذه القضية ولكن في التعامل المباشر سواءاً كانت هي المعنية بالأمر أو استفتيت واستشيرت في مسألة تخص التعدد فانها في الكثير من الأحيان تبقى أسيرة لموروثاتها الشخصية أو تتأثر بالأثر السلبي أو الإيجابي لنظرة المجتمع من حوله، أو تعطي رأياً فقهياً مجرداً ومعزولاً عن حيثيات الواقعة ودون نصح وإرشاد حتى.

وموضوع التعدد لا يمكن النظر فيه أو الحكم عليه في إطاره الشرعي المجرد وبمعزل عن التطبيق العملي ومحيطه الاجتماعي لكي يتم التعامل بشكل إنساني مع كل حالة.

وإما أكون غير مطلع على الأدبيات والكتب الحديثة التي تبحث هذه القضية وإلا فإنني أجد إهمالاً من قبل باحثينا ومفكرينا وعلمائنا في هذا الموضوع. فلم أجد دراسة معمقة تأخذ الجانب الشرعي من الموضوع وتربطه بالجانب الاجتماعي ليس من باب وضع قوالب جاهزة للتطبيق لأن ذلك غير ممكن من الناحية العملية.

فما دام الكلام عن الزواج وسواء كان الأول أو الثاني فان المعيار الأخلاقي الفردي والسلوك الشخصي يكون له الدور الأكبر.

إلا أن إبراز الجانب الانساني الراقي للتعامل في هذه القضية في الحالات الفردية والهدف من اللجوء إلى التعدد وكيفية التعامل عند التطبيق وموقف الشرع والمجتمع مع حالات مختلفة هوأمر مطلوب وملح.

وإلا فإنّ الموضوع يتم تناوله بشكل فردي مزاجي ويقع الحيف في معظم الحالات على الزوجة الأولى أو الثانية أو عليهما معاً مع أولادهما وأي تأثير سلبي محبط يقع على مجموعة من الأفراد فإنّ تأثيره يرتد سلباً في محيط أولئكَ الأفراد وفي مجتمعهم في النهاية.

رصد لحالات سلبية في بعض المجتمعات الاسلامية

المثال الأول

في بعض البلدان الإسلامية يلجأ الرجال إلى التعدد للهروب من التزامات شرعية تخص الزوجة والأولاد فحين يجد الرجل منهم نفسه غير قادر على الإيفاء بالتزاماته المالية من توفير المأوى والطعام والملبس لأهله ويسد عنهم تكاليف المعيشة الأخرى في أدنى صورها فإنه يهجر اسرته وتصبح زوجته معلقة غير مطلقة.

وهذا مخالف لنص وجوهر حكم قرآني مبين بهذا الصدد:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحقيقة إنه يلجأ إلى التعدد ليتحاشى الطلاق وما ينجم عنه من حقوق والتزامات شرعية أي أنه يتحدى حكم الله في تحد واضح وتصميم مبيت في كلا المسالتين. الاضرار بالزوجة بالهجر وعدم التطليق وعدم العدل عند التعدد.

ويحرص أن يتزوج بامرأة أخرى تكون في وضع مادي مريح، ولا تجد الزوجة الأولى من تلجأ اليه فالمجتمع مجتمع ذكوري يقر للرجل ما لا يقرهُ للمرأة وليس بمقدور هذه المسكينة أن تلجأ إلى المحاكم حتى تطالب بحقوقها وحقوق أولادها من النفقة لأنها غير مطلقة أساساً حتى تنظر المحاكم في موضوعها.

تجد هذه المرأة نفسها مع أولادها على قارعة الطريق لا تملك من حطام الدنيا شيئاً وتكون هي وأولادها هدفاً سهلاً لعصابات التسول أو البغاء أو

الجريمة والمخدرات.

وبينما يكون الزوج الأحمق في كنف زوجة أخرى تكون زوجته الأولى وأولاده منها - المكلف شرعاً وقانوناً وعرفاً بكفالتهم - واقعون أما في ضنك العيش أو في أحضان التسول والرذيلة.

كل هذا والمجتمع ينظر إلى هذه المعاناة كشيطانٍ أخرس.

بل إنّ المجتمع يصبُّ جام غضبه ويحاسب هذه المرأة المسكينة ويحاسب أولادها إذا ما زلت بهم قدم. ويترك من أجرم بحقهم أصلاً بتركهِ ذرية ضعافاً لا يزال يكسوهم الزغب في وجه رياحٍ عاصفة وأمواجٍ عاتية.

أليس الحقُ كلَّ الحق أن يرجم هذا الرجل أو ينفى في الأرض أو تقطع أيديه وأرجله من خلاف لسوء فعلته وعظم جرمه؟؟

(وهذا تعبير مجازي لقبح جرمه وليس حدا شرعيا لفعلته).

إنّ هذا الرجل يمتطي مطية التعدد للعبور إلى فعله الآسن وجرمه القبيح وما يفعله ليس من الدين والشرع في شيء، والمجتمع الذي يسكت عن هكذا أفعال لا بد أن يكون آيلا للسقوط سرعان ما يتهاوى ويتشرذم وتعصف به رياح الجهل والتخلف والاستبداد.

وإذا ما التقطت منظمة لحقوق الإنسان من داخل هذا البلد أو من خارجه هذه الحالات الإنسانية الحالكة في السواد فتحاول الدفاع عن حقوق هذه الفئات المسحوقة - لهدف نبيل أو غرض سياسي خبيث - أو عندما تحاول السلطات التشريعية إصدار تشريعات ترفع هذا الحيف عن المرأة.

ترتفع عندها أصوات الرجال يستصرخون علماء الأمة وضميرها في تخوم المشرق والمغرب للتصدي لهذه التشريعات المناهضة لمنهج الإسلام وكأن الأوضاع السائدة والممارسات الموغلة في الظلم والاستبداد التي كانت تعصف بالمرأة وبالأسر كانت من صميم المنهج الرباني.

المنهج الرباني عندما ترك فسحة المشروعية للتعدد كان الهدف منه تقوية المجتمع وليس انحلاله وتقويم الأخلاق والسلوك وليس انفلاتهما. وتوفير الفرصة لتكوين أسرة لكل امرأة مات عنها أو طلقها زوجها أو ممن ينتظرن

فرصتهن في الزواج ولمن تريد ذلك اختياراً وبعد أن يوفر الرجل كل المقومات الأساسية للمحافظة على أسرته الأولى والتصدي لمتطلبات الأسرة الجديدة وبإقامة العدل المطلق في صورته المادية ومراعاة الجانب الحسي حتى يصل إلى درجات عليا من الرقي الإنساني والأخلاقي في التعامل.

المثال الثاني

في مجتمع إسلامي آخر لا يعتبر الزنا جريمة يعاقب عليها القانون بينما يعتبر التعدد جريمة تستوجب العقاب ويكون عقد الزواج الثاني وكل ما ينجم عنه باطلاً بموجب ذلك.

ويتم إبرام عقود الزواج في أقسام البلديات لكل مدينة أو حي ولا يسمح باجراء أي عقد خارج سلطة البلدية.

والرجل الذي يريد التعدد يلجأ إلى إجراء العقد خارج هذه السلطة ويكون عقداً غير رسمي ولا يؤخذ به في تثبيت حقوق الزوجة الثانية. وإذا ولد لها ولد يقوم الأب بتسجيله باسم الزوجة الأولى بأنها الأم الحقيقية له، أي أن الزوجة الثانية ليست موجودة في السجلات الرسمية الأسرية للرجل.

وفي حالة الطلاق أو موت الرجل فان الزوجة الثانية لن تكون لها أية حقوق قانونية في تركة الرجل، ويترك أمر حصولها على حقوقها الشرعية لضمير الرجل في حالة الطلاق ولضمير زوجته الأولى وأولادها في حالة الوفاة - إذا لم يترك الرجل وصية قانونية خاصة يعطيها بعض الحقوق خارج اطار الزوجية قبل الوفاة - وفي معظم الحالات يقع الحيف والظلم على المرأة بسبب قانون وضعي لم يراعي خصوصية التشريع الإسلامي في هكذا حالات.

وحتى إذا كانت الزوجة الأولى عقيمة أو بها مرض عضال يمنعها من القيام بمتطلبات الزوجية فإنّ هذا القانون يسمح له بالطلاق وما في ذلك من اجحاف بحق المرأة في كلا الحالتين لأنها قد لا ترغب في الطلاق وتفضل أن يتزوج عليها زوجها بدل أن تجد نفسها بدون زوج وأسرة أو معيل.

ويسمح له بالعلاقات الزوجية كيفما يشاء خارج إطار الزوجية بينما لا يسمح له بالتعدد حتى في حالة العدل المطلق على وجه الافتراض.

فأي منهج يصون أخلاقيات المجتمع وكرامة المرأة وحقوقها؟؟

المنهج الرباني الذي فيه فسحة من مشروعية التعدد أو المنهج الوضعي الذي يمنع التعدد ويترك الباب مفتوحاً للعلاقات الجنسية خارج مخدع الزوجية لكلا الطرفين أو يستسهل الطلاق وما ينجم عنه من تفريط بمشاعر المرأة ومشاعر الأولاد ومن تأثير سلبي على تنشأتهم خارج حضن الأسرة الأصلية.

في المثال الأول استغلال سيىء للتعدد تضيع بمقتضاه حقوق الزوجة الأولى وحقوق أولادها وفي المثال الثاني تشريع مقيد للتعدد تسبب في ضياع حقوق الزوجة الثانية أو يتسبب في طلاق الأولى.

أي أن المرأة في كلا الحالتين هي المظلومة.

المثال الثالث

نظرة معظم المجتمعات الإسلامية للتعدد في الكثير من البلدان نظرة سلبية.

فهي تستهجن التعدد وتوصف الزوجة الثانية بأقسى الصفات فتوصف بسارقة الرجال أحياناً، وبالمرأة الشهوانية التي لم تقدر أن تلجم عقال شهوتها أحياناً أخرى، وينظر إليها في الكثير من الأحيان نظرة دونية.

بينما الزوجة الأولى إما تكون مصدرا للإشفاق من محبيها أو للشماتة والتشفي من مبغضيها ويتم تأليب الأولى على الثانية وتحريض الثانية على الأولى حتى تصبح حياة الاثنتين جحيماً.

وهنا أيضاً يقع الضرر الأكبر على الزوجة (الأولى والثانية) أولاً ومن خلالهما على الزوج وبسبب الزوجين معاً على الأولاد.

والكثير من هذه المجتمعات تستسهل وجود علاقات للرجل خارج إطار الزوجية في الوقت الذي تحرمها على المرأة ومن تضبط منهن بأن لها علاقة مشبوهة وسواء كانت متزوجة أولا فان الزوج أو عائلة المرأة تقوم بقتلها فيما تسمى بعمليات غسل العار بينما يكون الرجل طليقاً لا تطاله الأيدي في الغالب، مع العلم أن الكثير من هذه الجرائم تحدث لمجرد شبهة أو علاقة بسيطة لا تستوجب إقامة الحد الشرعي حتى.

المثال الرابع

غالبية التطبيقات الموجودة في مجتمعاتنا هي تطبيقات عرجاء أي يقع فيها الظلم والحيف على أحد الأطراف أما الزوجة الأولى أو الثانية أو الزوج، وأي حيف يقع على هذه الأطراف الثلاثة يكون الحيف والظلم واقعاً بالنتيجة على الأولاد.

وقلما توجد أمثلة يمكن الاقتداء بها، والكثير من التجارب التي قد تبدوا في ظاهرها نماذج مثالية فإنك لواستدرجت أحد الأطراف فيها فان الكثير من التشويه سيصيب الصورة المثالية الظاهرية.

سجالات لنماذج مفترضة

وفيما يلي سجالات لحالات مفترضة كنماذج واقعية في مجتمعاتنا وقد توجد حالات أخرى غير مذكورة هنا إلا أن الغاية هي معرفة كيف يفكر كل طرف في الحالات المبحوثة لأنها قد تفيد من يريد خوض هذه التجربة من الرجال للاستدلال على ما يؤول إليه حاله بعدها ويتأنى إذا وجد أنه لا قِبَل له بها والأسلم له أن لا يخوض غمارها.

وكذلك للمرأة التي تكون الزوجة الأولى أو الثانية أو التالية لتعرف كيف يفكر الطرف الآخر الذي سيكون شريكا لها في قلب الرجل الذي ارتضته زوجا لها، فتتأنى قبل أن تتخذ قرارا قد لا يكون صائبا وحكيما أو تاخذ حكما قد لا يكون عادلا ومنصفا.

النموذج الأول: زوجان سعيدان متحابان مضى على زواجهما سنوات لم يولد لهما ولد لأن المرأة عاقر. يريد زوجها أن يتزوج عليها.

رسالة من الزوجة الى زوجها:

كنت وستكون الحبيب الأوحد في حياتي، وكنتُ الزهرة التي لم يشمها ويستنشق عبيرها غيرك، ويوم عرف قلبي الخفقان لم يخفق إلا لك أنت، فكنت الزوج والحبيب.

ومضت الأيام والشهور الأولى من زواجنا كحلم جميل ما أردت أن أصحو منه أبداً وكنت أشكر الله في كل صلاة أن حباني بزوجٍ مثلك كريم الخلق محب وعطوف.

ولما مضت سنوات على زواجنا وأعيتنا الحيل في الحصول على طفل يغدق على حياتنا مزيداً من البهجة والسرور، عندها بدأت رحلتي مع الخوف وشعرت بهم ثقيل يزحف على قلبي فأنا امرأة والمرأة لا يكتمل فرحها ولا تشعر بأنوثتها إلا عندما تجد جنيناً يتحرك في أحشائها حتى إذا سمعت صرخته الأولى عند الولادة تحس كأنها سيدة هذا الكون كله.

وكنت تعوضني عن هذا النقص - الذي ارتضاه الله لي - بحبك وحنانك وكنت أجد عندك ملاذاً ألجأ إليه كلما ضاق صدري وعصفت بنفسي رياح الحزن والألم.

واليوم تأتيني لتخبرني أنك تنوي الزواج من امرأة أخرى!!!!

لقد أحدثت زلزالاً رهيباً في كل كياني. زلزالاً في كلّ خليةٍ من خلايا جسدي من قمة الرأس إلى أخمص القدم، أشعر في كلّ خليةٍ ببركانٍ ثائر يريد أن ينفجر، أشعر بالدنيا تدور من حولي وتمرُّ المشاهد والصور أمامي باهتةً دون أن أدرك لونها أو ماهيتها.

لقد أوصلتني بطلبك هذا إلى حافةِ هاويةٍ سحيقة وبدايةِ كابوسٍ لا يمكن أن أستفيق منه.

لقد سدت سبل الفرح دوني مذ سمعت قولك واهتز اعتزازي بجمالي وشبابي وأنوثتي لأنني أدرك أن الآتي لا يكون إلا بؤساً وشقاءاً وعلقماً.

واذ أستقرىء القادم من الأيام لا أجد فيها بصيصَ نور أو بارقة أمل.

إذن ستشاركني فيك امرأة أخرى.

وإذن ستمر الدقائق والساعات والأيام بطيئة قاتلة إلى أن يتحقق ذلك. وسيكون يوم فرحك يوم حزنٍ وكمدٍ عندي، سيكون ألمي ألماً مزدوجاً ألمَ امرأة مجروحة في كبريائها بأن تزوّج عليها زوجها وألم الحرمان من الولد لأنني امرأةٌ عاقر.

لوكان لي طفل كنت ألجأ إليه في ساعات اشتداد المحنة وأغدق عليه كل طاقات الحب والحنان التي أو دعها الله في قلب الأم،

أما وأن أحتضن الفراغ عندما تترك غرفتي أو داري وتذهب إليها فكيف أواسي نفسي المكسورة وقلبي الجريح وكيف أعبر أمواج القلق وعواصف الحزن التي ستكون طويلة لا تنتهي.

سيكون علي أن أستمع إلى الآف التعليقات الساخرة بحقك وبحقي:

أليست له ذرة وفاء فيتقبل ما أراده الله له؟؟

هل بيدك شيء لم تفعليه ؟؟

ترى كيف كان وضعه لوكان هو العقيم؟؟

ماذا يفعل الرجل مع امرأة عاقر؟؟

جميل منه أنه لم يطلقها!!!

وغير ذلك مما يدل على التشفي أو التحريض الممزوج بالشفقة والعطف.

ستحتفل مع الأخرى بيوم زفافك كل عام كما كنت تفعل معي في حين أكون قابعة في زاوية من زوايا غرفتي أجترع الألم وأتوسد الحزن الذي ينبع من أعماقي فاحس به يملأ صدري ويملأ الغرفة بل يملأ الكون الفسيح كله من حولي.

وفي حين تترقب بشغف نبأ حملها الأول لا أكتمك سراً أنني في أعماق قلبي كنت أتمنى أن تكون عقيمة مثلي حتى لا ينهار بنياني كله ويبقى لي بصيصٌ من أمل أنك ستكون لي أكثر مما تكون لها.

ويوم يزف اليك خبرك السعيد أكون دفنت حية في غرفتي الكئيبة.

ستمر الأيام بطيئة علي وعليك!

فأنا يؤرقني حصولك على شيء لم يكن بمقدوري أن أهبك إيّاه.

وأنت تترقب يوم تتلقف بين يديك طفلك الأول.

ستحوم الأخرى حولك... ستأخذك إلى صفها وجوارها.

أليست أم ولدك الأول وربما أولادك الكثر؟؟؟

ستدخل عليها دوماً بفرحٍ غامر لأنك عندها ستضم طفلك أو أطفالك إلى صدرك وستسعد بهم يحومون ويلعبون من حولك.

ولكن عندما تأتيني لن تجد إلا الكآبة والحزن ومهما تظاهرت أمامك بالسعادة فلن أقدر على إخفاء جبل الهم الذي يرزح تحته قلبي.

سأصبح امرأة متوترة عصبية المزاج شئت أم أبيت.

ستملّ مني يوماً بعد يوم وقد أصبحُ كابوساً ثقيلاً على قلبك بعد أن كنتُ حلم حياتك.

لقد خلقني الله هكذا عقيمة.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

إنه قدر الله أن أكون عقيمة.

فهل تريدني كما خلقني الله وترضى بقسمتك ونصيبك؟؟

أم تريد أن تكون لك زوجة أخرى؟؟ فتعطيني شهادة الألم والحزن - الذي سيقتلني ببطء - في اللحظة التي تستلم فيها شهادة زواجك من الأخرى..

رسالة من الزوج الى زوجته:

أنت ستبقين كما أنت الآن تلك الزهرة اليانعة التي خفق لها قلبي واخترتها من بين جموع الفتيات اللائي كنت أعرفهن أو تم ترشيحهن لي من قبل العائلة وشكرت الله يومها وأشكره في كل حين بأن جعل امرأة في مثل تقواك وجمالك وأخلاقك وصفاتك زوجة لي وأعاهد الله ثم أعاهدك أن أبقى كما أنا الآن الزوج المحب العطوف.

ولكن!!

وكما أن الله قد بث في أعماقك غريزة الأمومة ثم حرمت منها فإن في أعماقي أيضاً غريزة الأبوة وبإمكاني التمتع بها.

كنت أتمنى أن تكونين أنت من يمنحني هذا الوسام وأن يكون لي طفل منك أنت.

وتعلمين كم أعيتنا السبل.. لم نترك طبيباً مختصاً لم نطرق بابه.. لم نبخل بأي جهد أو مال وأخذنا بالأسباب كلها وكنا ندعو ويدعو معنا كل محبينا أن يرزقنا الله بطفل نزين به حياتنا.

ولكنها مشيئة الله. لن يكون لي طفل منك.

الأولاد كما تعلمين هم من أركان اكتمال بناء الأسرة.. وأنا وأنت أعمدة هذه الأسرة فلماذا لا ينضم إلينا من يكون سبباً في اكتمال بناء أسرتنا ونجد أطفالاً صغاراً يلعبون ويمرحون من حولنا نغدق عليهم حبنا وعطفنا ونشملهم برعايتنا وتربيتنا ونراهم يكبرون أمام أعيننا، يحتلون مراكزهم في الحياة ويكونون مصدر فخرٍ بأخلاقهم وهممهم العالية وعلمهم وتقواهم إن شاء الله.

أترين لوخيرتك أن نتبنى طفلاً غريباً هل كنت ترفضين؟؟؟

إن أطفالي سيكونون بمثابة أطفالك أنت أيضاً وأنا أعرف قلبكِ كم هو كبيرٌ وحنون ويمكن أن يسعهم وتكونين لهم الأم المثالية إلى جوار أمهم.

أليس من الغرابة أن ألجأ إلى التبني وأن أترك فسحة المشروعية التي وفرها الله لي؟؟؟

أنا أقدر هواجسك.

ولكن مع رجل يخشى الله أولاً ويحبكِ كل هذا الحب حري بك أن لا تخافي ولا تجزعي.

أريدك أن تكوني لي - كما أنت الآن - السند القوي والصدر الحنون والبيت الدافئ الذي ألجأ إليه كلما داهمتني كروب الدهر ومصاعب الحياة.

اطردي من رأسك الجميل كل تلك الهواجس وضعي ثقتك بالله وتمسكي بحبله المتين وسترينني إلى جوارك دائماً زوجاً محباً عطوفاً وعادلاً بحولِ الله وقوته.

النموذج الثاني: زوجان متحابان لا تشوب حياتهما شائبة سعيدان مع

أطفالهما . . يأتي الزوج بعد رحلة عمر طويلة فيخبر زوجته أنه قد تزوج عليها.

رسالة من الزوجة الى زوجها:

كنت أحس أن القمر لا يبزغ إلا من جبينك وأن الشمس لا تشرق إلا من مبسمك.

كنت سيد أحلامي وحبيب عمري كله.

سخرت حياتي كلها لك أنت وكنت أعيش في ظلك.

كنت رهن اشارتك وطوع بنانك في الأمور كلها.

لم أستعمل قط يوما أسلحة النساء ومكرهن معك.

كنت نقية كما الثلج في سلوكي وصادقة في كل قول أو فعل معك.

كنت سيد قلبي وبيتي.

كانت أوامرك مطاعة وطلباتك مستجابة.

عشت معك أيام عمري بحلوها ومرها، ولا أنكر أن جلّها كانت حلوة وسعيدة.

لم أشغل كاهلك يوما بطلبات كبيرة أو صغيرة وكنت راضية بما تجود به يداك وكنت كريماً معي.

تركتك على سجيتك. . تخرج أينما تشاء وحينما تشاء ولم تسمع مني يوماً كلمة جارحة أو نابية بسبب خروجك غير المعلن أو تأخرك غير المبرر وكما تفعل كل النساء مع أزواجهن. . كلما كنت تجده مني هي اللهفة على رؤيتك والقلق عند تأخرك.

كافحت معك في بناء أسرتنا الصغيرة لبنة لبنة.

لم أشكو يوماً ولو للحظة عن عدم قدرتي لتلبية احتياجاتك واحتياجات البيت والأولاد.

حفظت مالك وعرضك في غيابك.

والآن تأتيني في غفلة من الزمن لتنبأني عن زواجك بأخرى.

كيف بحق السماء؟؟؟

هل من المعقول أنك قد فعلت؟؟

ألم تكن لك يقظة من الضمير تؤنبك.

هل تجازيني بهذا بعد كل ما فعلته لأجلك.؟؟

بعد أن أفنيت شبابي معك وفي خدمتك.

ولماذا ؟؟

هل وجدت أي قصورٍ في؟؟

ألم أكن لك الزوجة والصديقة؟؟

أين حبك واخلاصك؟؟

آلاف الأسئلة يضجّ بها رأسي ولا أجد لأحدها جواباً شافياً أو مقنعاً.

كيف تجرأت على ذلك بالله عليك؟؟

أحس بأن انفجاراً هائلاً حصل في رأسي وتناثرت أجزاؤه إلى ملايين الذرات ولا أقدر على لملمتها من جديد.

ألم يكن لك لسان تنطق به؟؟

ألم يكن بمقدورك أن تلمح لي أو تسأل عن رأيي؟؟

لا.. لا.. لست من يفعل هذا!!

أن قلبك لن يطاوعك.. قل لي بربك أنك تمزح.

لوكنت أطلقت علي النار.. لوكنت نسفتني بأطنان من الديناميت، أما أن تستغل سماحتي وسذاجتي وتستغفلني ثم تأتيني لتنبأني بهذا النبأ العظيم فهذا ظلم ما بعده ظلم، ظلم لا يقبله المنطق وتعزف عن إتيانه النفس البشرية ولا يرضى به الله.

هل يقبل الله الظلم لعباده؟؟؟

حاشا لله أن يفعل.

ولكنكم معشر الرجال قلوبكم قد قدت من صخر. . وأنتم أنانيون وليست لكم تضحية النساء.

ماذا يريد الرجل منكم حتى يكون وفياً مخلصاً ومكتفياً؟؟

أتريدون امرأة متسلطة متحكمة تعدّ عليكم أنفاسكم وتكونون لها التابع الذي ينفذ أوامرها وهو صاغر؟؟

أم تريدون المرأة التي تثقل كاهلكم بمشاكلها ومشاكل الأولاد وترمي بكل الثقل عليكم وتتفرغ هي لاستقبال الأهل والصديقات؟؟ أو تكون خارج الدار جلّ وقتها عينها وعقلها وارتباطها بخارجِ الدار أكثر من داخله؟؟

لا أحد يفهمكم معشر الرجال، حتى أنتم لا تفهمون أنفسكم!!

هل هذه هي مكافأتي ؟؟

لقد انطفأت الشموع التي كنت أوقدتها في مواسم وأيام فرحي شمعة شمعة.

وبهتت الذكريات المخزونة في ذاكرتي والتي كانت روافد من نور تمد نهر حياتي بالبهجة والسرور.

بفعلتك هذه تكون كأنك صلبتني على أبواب المدينة يمر علي القادم والمغادر فلا أجد إلا نظرة شماتة أو لفتة إشفاق.

ماذا ستجني من زواجك هذا؟؟

هل تريد أن تثبت رجولتك وأن يقال فعلها والله فلان؟؟

أم تريد أن تفتح على نفسك أبواب الطوفان؟؟

سيلومك الناس وينفرط عقد محبيك من حولك.

ستجد نفسك منبوذاً في مجتمعٍ لا يرحم.

وفي الوقت الذي يرتفع شأني بين الناس، سيصغر حجمك ويقل شأنك.

أنت الذي كان ينظر إليك كعملاقٍ مهيب ترنو إليه الجباه وجبهتك تلامس السحب في السماء.

سيراك الناس قد تقزمت حتى أصبحت جبهتك بمستوى جباههم أو أدنى.

ترى هل فكرت في كل ذلك؟؟

وهل يستحق الأمر كل هذه التضحيات؟؟

لا أظن ذلك البتة.

رسالة من الزوج الى زوجته:

ما هكذا تقاس الأمور يا أمة الله.. ولا بهذا المنظار الذي لا يرى منه إلا السواد ينظر إلى الأشياء.

كل ما ذكرته في حق نفسك هو عين الحقيقة وكبد الصواب.

بل هوأقل مما أنت عليه.

فأنت مثال للزوجة التقية النقية المحبة لزوجها وأطفالها وبيتها والمضحية دوماً من أجلهم.

لا أحد بمقدوره أن ينكر عليك ذلك.. ومن يفعل يكون مجحفاً وظالماً.

وإذا كان من أحد يقدر خصالك الحميدة وشمائلك الحسنة فهو أنا، ولست بالرجل الذي ينكر عليك ذلك لكي أبرر الفعل الذي أقدمت عليه.

فأنت صاحبة الفضل والإحسان دوماً يشهد لك القاصي والداني، فكيف لا أفعل أنا وقد أفضى بعضنا إلى بعض وخبر خفايا ولطائف ومكنونات نفس الطرف الاخر وأخذ منه ميثاقاً غليظاً.

وما حصل لا يقلل من منزلتك في نفسي بل يعظم شأنها ويعلو بها في نظري، في صورة أكثر تجلياً وأبهى رونقاً وإشراقاً.

والأمر لا يتعلق بنقيصة أو مثلمة في ظاهرك أو جوهرك دعتني إلى البحث عن إكمالها عند غيرك.

لم يكن الأمر هكذا أبداً.

ولكنها النفس البشرية خلقها الله محبة للنعم والاستزادة منها. والزوجة

الصالحة نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى.

ونفس الرجل تهفو إلى التعدد دوماً وقد أعطاه الله فسحة من المشروعية لتحقيق ذلك.

وقلب الرجل ليس كقلب المرأة، فالمرأة في الغالب الأعم تمنح قلبها وعاطفتها ووجدانها إلى رجل واحد.

وقد يفعل الرجل ذلك أيضاً ويمسك على زوجة واحدة.

ومنهم من يريد المزيد فيمشي إلى المعصية ويبحث عنها وليس في الحرام متعة دائمة البتة ليس فيه إلا شقاء ومرض وانتقاص للشخصية في الدنيا وعذاب وسعير في الآخرة.

ومنهم من يسلك طريق التعدد - ولكن ليس من أجل إطفاء شهوة عابرة أو مشياً وراء نزوة متقدة سرعان ما يخبو إوارها - فإذا عدد كان عادلًا يخاف الله ويخشى أن ياتي يوم القيامة وشقه أعوج فبامكانه أن يعطي حبه وعواطفه إلى أكثر من واحدة بالقدر الذي لا يخرج عن إطار العدل الذي أراده الله كاملاً في حدوده المادية ومنصفاً في حدوده العاطفية والحسية.

لقد جبلتني لردح من الزمن فما أنا بطارد الذين حوتهمْ خيمتي من خاصتي وأهل بيتي.

وما أنا بجاحد أو ناكر جميل والحمد والشكر والثناء لله على ذلك.

فهوني عليك الأمر ولا تجزعي كل هذا الجزع.

والرجل منا تأريخ ومواقف فمن أكرمه الله فكان على خلق طيبة وخصال حسنة وله مواقف ومشاهد حميدة، لا يمكن أن تمحو الأيام وبسرعة البرق تلك المواقف والخصال لتصبح كهشيم المحتضر، ويغدو هو بين ليلة وضحاها رجلاً أجرد من الأخلاق والخصال التي تربى عليها وعرف بها بين أهله وأقرانه، فيكون ظالماً بعد أن كان السماح شيمته ويصبح جاحداً وناكراً للجميل بعد أن كان الحلم والإناة سجيته.

لا يمكن أن تمتد يد الهدم والتخريب إلى البنيان الذي بنيناه معاً طوال سني

عمرنا. سيبقى بناءاً شامخاً مهيباً دافئاً بساكنيه.. فبناءنا لم يكن قبة من زجاج تتهشم ويتناثر حطامها عند قذفها بأول حجر.

إنه بناء صلد متين أوتاده الحب الكبير الذي ضمنا معاً، وجدرانه المودة والرحمة التي جعلها الله بيننا، ونوافذه التي تدخل الضياء إلى أرجاءه هي ذكرياتنا وقواسم فرحنا، ونوره وقناديله هم أطفالنا، وسقفه موصول إلى السماء ذكراً ودعاءاً من الله أن يحفظ هذا البنيان ويديم على أركانه وساكنيه نعمة الايمان وحب الله ورسوله.

والبنيان الجديد لا يمكن أن يشوه البنيان الأساس. سيكون بناءاً ملحقاً بالبناء الأول موصولاً به بالمحبة والتعاطف لا بالحقد والتباغض.

ستقولين أنه كلام ساذج ليس له في الواقع من نصيب.

نعم سيكون ساذجاً اذا قبلنا أن يرمي كل غادٍ ورائح حجارة علينا وإذا كانت آذاننا تصغي لكل واردة وشاردة تأتينا من أناس لا يرحمون ولا يريدون لخلق الله أن يعيشوا في أمان.

من يتضرر أساساً لو انفرطت حجارة بيتنا ؟؟

ستسقط أول ما تسقط على رؤوسنا أنا وأنت والأولاد.

ستقولين أنتَ تسببت في الهدم.. أنتَ هدمت دارك بيديك فأكرر القول لك إنه ليس بهدم إنه بناء جديد يلحق بالبناء الأول الأساس.

وما ترينه هدماً إن هو إلا إسقاطات المجتمع وغيرة الأنثى على موضوع التعدد ليس إلا.

هوني عليك الأمر بربك.. وأمسكي عليك زوجك وأولادك وتمسكي ببيتك وحياتك واحتسبي أجرك عند الله واصبري على ما أصاب غرورك الأنثوي من ثلمات وستجدينني إلى جوارك دوماً زوجاً محباً وأباً رحيماً وعطوفاً إن شاء الله.

النموذج الثالث: زوجان ليست بينهما قواسم مشتركة ولا يربطهما بالبيت وبالأولاد رابط قوي. قرر الزوج أخيراً أن يتزوج على زوجته وبدون علمها.

رسالة من الزوجة الى زوجها:

فعلتها إذاً أيها الصعلوك!!

تجرأت وتزوجت علي بدون علمي!!

أمعي تفعل هذا؟؟

أنت لا تعرف أية صخرة تنطح أيها المسكين البائس.

سأعلنها عليك حرباً شعواء.

سيأتيك طوفان غضبي حيثما كنت.

لن أبقى معك تحت سقف واحد ولو لليلة أخرى.

سأجبرك على الطلاق وسأترك لك أولادك فلا أريد أن يذكرني شيء بعفونتك.

كنت أغض الطرف عن مجونك وأقول فترة طيش ويمل، يعود إلي بعدها نادماً وصاغراً.

كنت أعرف حركاتك وسكناتك وكل علاقاتك المشبوهة وكنت أقول لن يتجرأ على الاقتران بغيري وكيف يفعل وأنا الذي صنعته.

ألا تعرف أنك لاشيء ولا قيمة لك البتة؟؟

ألا تعرف صغر حجمك وهوانك على الناس؟؟

كان علي أن ألجمك في اليوم الأول فمثلك لم يخلق إلا أن يعيش ذليلاً وتابعاً.

لقد اقترفت إثماً بحق نفسي يوم قبلت بصعلوك مثلك أن يكون زوجي وسيد بيتي. فهذا ما جنته يداي بعدما تنازلت عن الكثير من أجلك.

من أنت ومن أنا؟؟ ألم تفكر كم أحرقت من المسافات حتى أصل إلى مستواك ثم انتشلتك من بيئتك وعفونتك وأسكنتك في الأعالي حيث كنت ترنو فحسب ولم تكن تحلم حتى بالوصول إلى ما أوصلتك إليه أنا.

سأحاربك بكل الأسلحة المتاحة لي وهي أسلحة مدمرة لن تقوى على الوقوف بوجهها وستندم كثيراً وكثيراً ولكن لن ينفعك ندمك ولن يشفع لك استذلالك وخضوعك فقد سقطت وتمرغت في الأوحال وسأبقيك حيث أنت.

سأجعلك تختبر انتقام اللبوة الجريحة أيها الثعلب الأجرب المخادع.

وسأجعلك مثالاً سيئاً لكل أفاقٍ لئيم من الرجال يفكر أن يحذو حذوك.

رسالة من الزوج الى زوجته:

ها أنت تثبتين مجدداً كم أنت امرأة حمقاء وخرقاء وسليطة اللسان.

كنت أقول في نفسي لن أهدر كرامتها ولن ألجا إلى الطلاق فأتركها في ذهولها بين صدمتين.. صدمة زواجي عليها وصدمة الطلاق.

كنت أحاول أن أكون وفياً لبعض جوانب العشرة بيننا وكنت أريدك إلى جوار أولادك فلم أشأ أن أحرمك منهم.

ولكنك أبيت إلا أن تكوني كما أنت دوماً.. امرأة حمقاء متعجرفة مملة وسيئة المعشر.

أنت امرأة لا تعرفين من أمور الزواج إلا فراش الزوجية وحتى في ذلك أنت مقرفة.

الزوجة الصالحة سكن ومودة ورحمة وأنت عذاب ونقمة.

الزوجة الصالحة أم رؤوف عطوف، وأنت حرام أن تسمين بهذا الإسم المبارك وها أنت تتخلين عن أولادك بملء رغبتك ودون أن تهتز لك شعرة أو يخفق لك وجدان.

كنت أهرب من البيت.. من عجرفتك وسطوتك وسوء خلقك علّني أحظى بفسحة من الراحة خارجه.

أنت من دفعتني إلى مواطن السوء بعد أن سدت دوني كل منافذ الهدوء والسكينة إلى جوارك.

حتى شعرت أنني بدأت أغرق ولا بد من لملمة نفسي قبل أن أغوص في

أعماق الرذيلة فأخسر نفسي وأولادي.

لم أشعر يوماً أن لي بيتاً دافئاً أعود إليه وزوجة صالحة تستقبلني بالحنان على عتبته.

حتى أطفالي لم أتمكن أن أمنحهم عاطفة الأبوة الحقة بسبب ضجيجك المستمر الذي يصم الآذان.

ها أنت جنيت على نفسك.

عودي من حيث أتيت. إلى بيت أبيك.. فلن تجدي هناك السكينة الأولى يوم كنت طفلتهم المدللة.

لن تجدي الراحة عند صديقاتك اللائي فضلتهن على زوجك وأولادك.

ستعيشين على هامش الحياة وليس في داخلها.. وتكونين ظلاً ثقيلا على كل الناس من حولك.

ستكون كل أيامك كئيبة رتيبة بدون زوج يحنوعليك أو أولاد يحومون من حولك ويشعرونك بدفئ الأمومة وقداستها التي ما أكرمتها أو أعطيتها حقها يوماً في حياتك.

لن تجدي ترحيبا بك في أي مكان تقصدينه وسيشار إليك:

هذه هي المرأة التي تركت زوجها وتنكرت لأطفالها!! أية امرأة هذه أليس بين جنبيها قلب ينبض أو في رأسها عقل يفكر؟؟

مَن مِنَ الرجال بعدها يرضاك زوجة له؟؟؟

المثال الرابع: زوجة سعيدة في حياتها لا ينقصها شيء وباغتها زوجها بالزواج عليها.. والزوجة الثانية كانت تعلم أن الرجل الذي تقدم لها له زوجة وأطفال.

رسالة من الزوجة الأولى الى الزوجة الثانية:

أية ريح سوداء قذفتك في طريقي؟؟

ألم تجدي في كل رجال الأرض من تحومين حوله وترمين عليه بشباكك

وتميلين قلبه بسحرك ومكرك غير زوجي؟؟

ألم تجدي في كل نساء الدنيا هدفاً تحطمينه بخيلك وجندك إلا حياتي؟؟

كيف تقبلين أن تمتد يدك الغادرة إلى بيتي لتعيثي فيه فساداً ودماراً؟؟

هل بإمكانك أن تبني سعادتك على أنقاض سعادتي؟؟

كم من القلوب تدمرين وتشقين لتكسبي نصف زوج؟؟

أما كان الأجدر بك أن تصبري على ما أنت فيه إلى أن يقيض الله لك أمراً فتجدين إلى جوارك زوجاً كاملاً لا تشاركك فيه أخرى؟؟

أو ترضين بنصيبك من الدنيا وتحتسبين أجرك عند الله كما تفعل آلاف بل ملايين النساء ممن لم يحظين بالزواج أو فقدن أزواجهن لسبب أو لآخر؟؟

كيف تدخلين وسط دائرة في كل محيطها سهام موجهة إلى صدرك؟؟

كيف تدخلين إلى محيط ليس بمحيطك وبيئة ستلفظك ولا تريدك ومجتمع لن يرحمك؟؟

كيف تواجهين كل ذلك؟؟

أنت تسرقين مني أغلى ما أملك.

لا تسرقين زوجي فحسب بل تسرقين حياتي كلها.. تسرقين سعادتي وأحلامي وذكرياتي وتتركينني إنسانة محطمة مجردة من كل شيء.

فهل هذا يشبع غرورك؟؟

لا تظني أنك ستمنحين زوجي السعادة التي لم يجدها عندي أو الراحة التي افتقدها في بيتي.

حتى هذه اللحظة لا أصدق كيف فعل ذلك لا بد أنه مكرك وكيدك الذي أوقعه في حبائلك ففعل ما فعل.

ألا تخشين أن يَملَّك بعد حين؟؟ ويتركك صريعة هواجسك وأحلامك التي لم تكتمل؟؟

ألا تخشين أن يكون ضغط المجتمع من حوله عظيماً قوياً فيجد نفسه بين

أمرين أحلاهما مر؟؟. أما أن يتركك فيقع تحت لوم ضميره أو يحتفظ بك فيفقد أعز من حوله.

هل ما زالت في أعماقك بقية من ضمير فتنسحبي من حياتي بهدوء كما دخلته خلسة؟؟

أم أنك قررت أن تحطمي حياتي وحياتك فأعيش أنا خارج أسوار الحياة وتعيشين أنت بين ألم الضمير واحتقار الناس لك وضغط المجتمع عليك.

رسالة من الزوجة الثانية الى الزوجة الأولى:

يا أخيتاه..

الرب الذي خلقك وبث فيك حب الرجل وعاطفة الأمومة هو نفس الرب الذي بث مثلها في أعماقي.

فربنا واحد وخلقنا على نفس الفطرة.

وإذا كان الله قد أكرمك فأعطاك زوجاً يحنُّ عليك ووهبك أولاداً يحومون حولك وأسرة دافئة محبة فذاك من عطاء ونعم الله على عباده تستوجب الشكر والحمد وأظنك تفعلين ذلك.

وأنا لا أسرق زوجك وأحطم حياتك وان فعلت أكون ظالمة وجاحدة.

إن الواحدة منا لا تجد نفسها ولا تكتمل سعادتها إلا في كنف زوج صالح يمنحها الحنان والشعور بالاطمئنان واطفال لها تضمهم إلى صدرها وعندها فقط تشعر أنها اكتملت كأنثى.

هذه سنة الله في الأرض.

فالرغبة في الزوج هي رغبة فطرية لا تلوم المرأة عليها ولكن إشباع هذه الرغبة في غير ما أقره الله - وهو الزواج - لا يصح لنا نحن المسلمات.. بل لا تصح لأية امرأة، وما نراه اليوم في الغرب من أن معظم حالات العلاقة بين الرجل والمراة تتم خارج إطار الزوجية هو ضد الناموس الذي أراده الله للبشر وهو هدم للأسرة وللمجتمع والقيم الأخلاقية وانهيار للأمم ولو بعد حين.

لماذا ينقض علينا المجتمع فاغراً فاه يريد أن يبتلعنا؟؟

لماذا ينظر إلينا كسقطِ المتاع؟؟ وليس كنساء أردنَ تعففاً فقبلنَ أن تكن زوجات بنصف زوج أو ثلثه أو ربعه؟؟

والواحدة منا تريد كما تريد كل النساء المسلمات أن تعف نفسها وتعاشر زوجاً في الحلال المطلق على أمل أن تكون لها أسرة صغيرة وأطفال يحنون عليها في القادم من الأيام عندما يغادرها الأبوان ويتنكر لها أو يعزب عنها الأخوان.

إن من تكون هذه غايتها ومبتغاها فهي ليست بلصّة فمن تتقي الله وتخشاه في عفتها تخافه في سلوكها العام أيضاً.

ليس من المنطق أن أطلب من الرجل الذي منحني هذه الفرصة لتكون لي أسرة صغيرة كنت أتوق اليها أن يتركك أنت وأولادك. والرجل الذي يرضخ لهكذا مطلب فإنه رجل تنقصه المروءة والرجولة ولديه خلل في إيمانه وبالتالي لا يصلح أن يكون زوجا لك أولي أو لأية امرأة أخرى.

هوني عليك يا أخيتاه.

مهما بدى الأمر صعباً وقاسياً في البداية سيهون الله عليك.

وما دام الله قد جمع بيننا في زوج واحد فالأولى أن ندع أنانية الاستفراد بالتملك جانباً فنحن نتشارك في كائن بشري وليس في سلعة.

ولهذا الكائن علي وعليك حقوق فلندع الضغينة القاتلة جانباً فنحن أخوات في دين الله ولنحاول أن نلجم غيرة الانثى في بواطننا إلى الحد الذي لا يهدم أحداً منا أو يهدم الرجل الذي نحبه.

النموذج الخامس: رجل متسلط تزوج على زوجته الأولى والزوجة الثانية تحرضه عليها.

رسالة من الزوجة الأولى الى الزوجة الثانية:

ها أنتِ اقتحمت علي حياتي شئت أم ابيت.

بعد رحلة عمر قاسية في كنف زوج أناني متسلط كنت أتطلع إلى حياة هادئة بعد أن كبر أولادي وصاروا يملأون علي حياتي.

منيت نفسي بالهدوء والسكينة وراحة البال ولكن زوجي أبى إلا أن يكافأني بالزواج علي.

تقبلت الأمر على مضض ورضيت بما قسمه لي ربي فلم أقم الدنيا وأقعدها.. وماذا عساي أن أفعل؟؟

هل أحرض أولاده عليه فأتسبب في قطيعة رحم بينهم وبين أبيهم وأكون عوناً في عقوقهم لوالدهم؟؟

هل أحرض أهلي وأهله والمقربون إلينا عليه فتكون جفوة وجفاء وبرود بيني وبينه بغض النظر عن القرار الذي سيتخذه.

كنتِ تعلمين أن له بيتاً وزوجة وأولاداً وقبلت به هكذا فلا تحرضيه علي وعلى أولادي.

اتقي الله فينا يا أمة الله ولا تزيدي من وجعي وألمي.

واعلمي أنك تكسبين إثماً في حق نفسك ويكسب هو إثماً أكبر لو فرط في حقوقنا.

إن كنت تحبينه كما تدّعين فالحب لا يأتي من خلال كراهية الآخرين. الحب لا ينمو إلا في بيئة صحية.

واعلمي إن كان اختارك لجمالك وشبابك فالجمال والشباب لا يدومان لأحد ولن يبقى لك رصيد عنده وعند الناس إلا حسن المعاشرة وكريم الخصال وجميل المواقف ويكون لك بعدها مرضاة الله إن شاء الله.

لقد رأيت كيف كان موقفي وموقف أولادي موقفاً مسالماً. لم نمنعه من الزواج بك لم نحرض عليه أو عليك أحداً من خلق الله.

أنت التي اقتحمت علينا هدوء حياتنا وعرضتنا لعاصفة هوجاء من الهواجس والأفكار وإلى اللاذع والشامت من كلام الناس.

وطمعاً في مرضاة الله وخوفاً من تجريح زوجي وخدش كبرياءه كنا ندعوا الله أن يمنحنا الصبر والثبات عليه حتى نجتاز هذا الامتحان العسير.

والحمد لله على نعمته فقد أكرمنا بالصبر واستقرار النفس وهدوء البال.

فالأولى بك أن تقابلي الإحسان بالإحسان وليس بالجحود والإنكار.

لقد قبلت أن تكوني الزوجة الثانية وهذا يؤكد حقيقة أن هناك زوجة أولى وهناك أولاد لهم حقوق في هذا الرجل قبلك وحقوقهم عليه أقرها شرع الله وليس منةً منه ومن يعطل شرع الله أو يساهم في تعطيله يكسب إثماً مبيناً.

واعلمي أن الرجل إذا تنكر لزوجته وللعشرة التي بينهما وضحى بأولاده من أجل امرأة أخرى فإنما يكون في سلوكه خلل جلل يحتاج إلى التقويم وتأكدي أنك ستكونين الضحية التالية له.

فاتقي الله في نفسك ولا توردبها موارد الهلاك والضياع بهذا الفعل الآثم بتحريضه أن يتركني وأن يهمل أولاده ويتركهم على قارعة الطريق.

واتقي الله فينا من ظلم الرجل الذي أحببناه ومن ظلم الأيام إذا فقدناه.

واتقي الله فيه هومن أن يقطع رحمه ويظلم أقرب الناس إليه فيحل عليه سخط الله.

تعالي نهدأ من روع هذا الرجل ونسكن نفسه الثائرة المتمردة بالمعاملة الطيبة والنصح الرشيد ليصلح أن يكون لنا زوجاً ولأولادنا أباً رحيماً.

أليس هذا عين الصواب يا أخيتاه؟؟؟

النموذج السادس: رجل متزوج أقنع امرأة أخرى بالزواج بعد أن وعدها وعوداً كثيرة ثم تخلى عنها تحت ضغط الزوجة الأولى وضغط المجتمع.

رسالة من الزوجة الثانية الى زوجها:

كنت راضية بما قسمه الله لي إذ مات عني زوجي.. فقد ترك لي ذكريات بالغة في الروعة بالرغم من قصر فترة زواجنا التي لم تدم إلا سنتين وبضعة أشهر.. كان إنساناً رائعاً دمث الخلق كريم الصفات وكان معطاءاً ومحباً للخير.

ولكن الله اختاره إلى جواره ولا راد لقضاء الله فينا وفي كل مخلوقاته، وعلينا التسليم والقبول والصبر على المصيبة.

مضت الأيام والشهور الأولى صعبة وقاسية ولكن الله أكرمني بأن قذف في

قلبي من الطمأنينة والسكينة والصبر ما أعانني على تحمّل ألم الفراق.

وكان لا بد أن أتكيف مع وضعي الجديد وأبقى في طاعة الله وأحتسب أجري عنده سبحانه وتعالى.

لم أكن أفكر في الزواج ثانية رغم إلحاح أهلي وكل من حولي بأنني لا زلت صغيرة وليس لدي أطفال أتفرغ لهم وأن المستقبل ما زال أمامي.

كنت أخشى من خوض تجربة ثانية.. وفي الحقيقة كنت أخشى أن لا أجد الشخص الذي يملأ قلبي أو أدخل في مقارنة بين الرجلين فلا أجد في الثاني ما فقدته بموت الأول.

حتى برزت أنت في حياتي.

ورغم امتناعي في البداية إلا أنه بين إصرارك المستميت وبين ضغط الأهل وافقت على الاقتران بك.

كنت تؤكد لي أنني سأكون حبك الأول والأخير وأن زواجك الأول كان خطأً قاتلاً ارتكبته في حياتك وأنه بالرغم من وجود أطفال بينك وبين زوجتك فإنكما الآن شبه منفصلان وأنكما متفقان على هذا الوضع.

وأذكر أنني أوضحت لك وقتها بأن حياتك السابقة هي ملكك أنت ولا أريد أن أجردك من زوجتك وأولادك حتى ان فعلت ذلك لأجلي لأنني انظر إلى تلك الفعلة كأمر شنيع أمقته ولا أقره.. وقلت لك حينها أمسك عليك زوجتك وأولادك ولا أريد منك إلا ما ارتضاه الشرع الرباني لي من حقوق.

وأذكر ايضاً أنك ادعيت وقتها بأن زوجتك غير معنية بأمر زواجك مني بحكم الوضع الذي أنتما فيه وأن أولادك راضون وليس بينهم من معترض.

أين أنت من تلك الأقوال والوعود الآن؟؟

فما أن مضت الأيام الأولى من زواجنا وأنا ما زلت في نشوة العرس وأحاول أن أتعود عليك وأتلمس خطاي لمستقبل آمن معك وأحلم بالطفل الأول ينمو في أحشائي وتتلقفه يداي عند الولادة لكي أضمه إلى صدري.

حتى شعرت أن أبواب الجحيم قد انفتحت علي.

جاءني أولادك في داري ليسمعوني ألذع الكلام وأقبح الشتائم ويكسروا ما تصل إليه أيديهم من حاجيات البيت قبل أن يتركوني في ذهولٍ مطبق. وعندما أخبرتك بهذه الفعلة الشنيعة التي جرت لي من أولادك. أصبحت تهون علي الأمر وتعدني بأن لا يتكرر ذلك وأنك ستعالج الموقف بحزم.

ولكن مرت الأيام وهذا الهجوم مستمر بل يشتد ويأخذ ابعاداً جديدة أما عبر الهاتف من زوجتك التي تتفنن في كلمات السوء التي تنعتني بها، أو من ممارسات أولادك على عتبة داري بعد أن أغلق الباب دونهم. حتى صرت أتردد في الرد على الهاتف ويجفل قلبي عند كل رنة لجرس الباب. .كل هذا وأنت توعدني بأنك ستضع حداً لهذه التصرفات الماجنة.

ولكن رجلك بدأت تخف عن البيت.

وانقلب مزاجك من رجل هادئ وقور كما عهدتك إلى شخص متوتر سيئ المزاج والتصرفات.

أسألك ما الذي يجري لنا ونحن لم نزل في بداية المشوار؟؟ هلا ذكرت لي بربك ما الذي يحدث من حولي أو يحاك ضدي؟؟ لم أكن اسمع منك إلا همهمة وكلمات مبعثرة لا روح فيها ولا معنى.

حتى عندما استعنت بأهلي لمعرفة ما يحدث اخبرتهم أنت أن الموضوع تحت السيطرة وأن الأولاد سيتعودون على الأمر وأنك لن تخذلني.

وها أنك اليوم تأتي لتخبرني أن المشكلة بدأت تاخذ أبعاداً خطيرة وإنك لم تكن تتوقع هذا الموقف المتشدد من أولادك وزوجتك وأنك بدأت تخسرهم وأنك ستضحي من أجلهم بحبك لي.

كنت في بيتك وبين أولادك وستبقى كذلك فأين هي التضحية؟؟

بلى أن التضحية لا تتم إلا بقربان. . والقربان الذي ستذبحه هو أنا. . أليس كذلك؟؟

إنك جعلتني أنا ضحية لنزواتك وسوء تقديرك.

إنك وقرناءك من الرجال لا تنظرون إلى المرأة نظرة إنسانية خالصة ككيان

بشري ذو أحاسيس وعواطف يجب أن تراعى.

ما المرأة عندكم إلا كمتاع ينتفع به متى وكيف ما أردتم ويترك متى شئتم. دون أن يرف لكم جفن أو يتحرك عندكم ضمير.

تتقدمون بكل ضراوة وقوة وتحطمون كل الحواجز التي تقف دون وصولكم إلى مبتغاكم من امرأة ما.. تفرشون لها الرمل ورداً ورياحين.. توهمونها بحبكم الكبير وأنها غدت سيدة قلبكم وبدونها لا يمكن لحياتكم أن تستقيم أو يكون لها طعم. حتى إذا صدقت المسكينة وانخدعت بكلامكم المعسول ودانت لكم تطمع أن يكون لها زوج وأولاد وأسرة مستقرة كما لمعظم الزوجات. تركتموها في ذهولها واندهاشها وهي ترى الأسد الهصور والفارس الجسور الذي افتتنت به صار ثعلباً ماكراً وانساناً قميئاً عند أول منعطف أو عند أول معترك حقيقي لاختبار صدق نواياكم وإخلاصكم وتمسككم بها كزوجة إلى جواركم.

وإذا لامكم لائم عن سوء فعلتكم أو قبح مسلككم وجرمكم قلتم لم نفعل ما يستوجب غضب الرب.. أليس الطلاق شرعة شرعها الله لعباده؟؟

كيف يكون لك ولأمثالك أن تفهموا معنى الحياة؟؟ فأنانيتكم الغارقة في العتمة قد أغرقتكم من قمة رؤوسكم الى أخمص أقدامكم.

الاستمتاع بمباهج الحياة والاستمتاع بالنساء يسد دونكم كل سبل الحكمة والرشاد. وفي هكذا لحظات لا تفكرون أن لكم زوجات وأولاد ومسؤوليات حتى اذا أغريتم امرأة مسكينة مكسورة الجناح بالمعسول من الكلام أن تقبل أن تكون الزوجة الثانية ومتى ما أطفأتم جذوة شهوتكم عدتم إلى رشدكم وكأن الزواج لعبة تلعبونها وقتما تشاؤون وتنهونها متى ما وجدتم أن هذه اللعبة لم تعد تستهويكم أو حصلت في لعبتكم هذه بعض التداخلات من الجمهور القريب منكم.

ألِهكذا رغبات ترك الحق سبحانه وتعالى فسحة مشروعية التعدد؟؟

لإطفاء شهوة وقتية مجردة بمعزل عن الحكمة والمسؤولية والقرار الرشيد!!

أم لهدف آخر؟؟

لكي تساهم هذه الفسحة من المشروعية في تثبيت القيم الأخلاقية والسلوكية

للمجتمع ولكي يكون هذا الزواج كأي زواج شرعي صحيح حضنا وسكنا وعونا للنساء ممن لم يلحقن بقطار الزواج في محطاته الأولى أو لمن مات عنها زوجها أو للمرأة التي كانت في كنف زوج وساءت بينهما العشرة حتى وصلت لطريق مسدود فتطلقت. . . ولليتامى من الأولاد.

أنتم تسيؤون الى أنفسكم وتسيؤون إلى كل الرجال. والشرع من أفعالكم براء.

لماذا كان المجتمع
الاسلامي الأول يقبل التعدد

ألم تكن المرأة في المجتمع الاسلامي الأول - ككيان أنثوي - هي نفس المرأة في يومنا هذا؟؟

ألم تكن الغيرة تعصف بقلوبهن أيضاً؟؟

ألم تكن في بيت النبوة وبين بعض أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن نماذج لغيرة الأنثى؟

ومع ذلك كان التعدد قائماً والعدل حتى خارج بيت النبوة في بيوت الصحابة والتابعين هوالمبتغى.

بلا . .

ولكن المنهج الإسلامي يؤسس لكل المجتمع وليس لكل فرد بحد ذاته.

وبناء المجتمع على أسس أخلاقية سليمة ليكون ارتكازاً لنهضة الأمة جمعاء هو أهم وأخطر من الوقوف عند غيرة المرأة المعطلة لهذا الهدف السامي.

هذا في الوقت الذي لا يقبل هذا المنهج بأي ضرر قد يقع بسبب التطبيق غير المنضبط لفعل من الأفعال الثابت مشروعيتها على فرد من أفراد المجتمع.

لذلك كان تركيز الحق سبحانه وتعالى في كتابه المبين على موضوع الطلاق والتعدد أكثر منه على الزواج العادي لأن كلا الفعلين إذا استخدما بعيداً عن الميزان الإلهي فوقوع الضرر والأذى وارد لا محال.

وأيضاً كان المجتمع حينذاك في إطاره العام وفي كل حيثياته وتطبيقاته وفي سلوك أفراده مجتمعاً نظيفاً قائماً بالقسطِ في كل أمور الحياة.

وإذا تركنا التطورات السياسية التي عصفت بالأمة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم جانباً فإن المجتمع حافظ على بنيانه وترابطه وتراحمه وتآزره وحبه

للخير والدعوة إليه ونبذ المنكر والنهي عنه والسعي الى تغييره قولاً وعملاً.

العدل الاجتماعي في الإسلام قائم على المساواة الكاملة المطلقة بين أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات وما هبت رياح التغيير السلبي على المجتمع المسلم إلا حين تكونت طبقات في المجتمع حسب غناها وفقرها أو قربها وبعدها عن السلطان وحاشيته.

والمجتمع المسلم مجتمع عفة وليس مجتمع تحلّل، لذلك فإنّ عقوبة الزنا تعتبر عقوبة قاسية بل بالغة في القسوة إذا نظرنا إليها بمعزل عن الحاجة إلى مجتمع نظيف عفيف والحؤول دون تفشي الفساد أو مسبباته حتى.

لأن الفساد الأخلاقي الاجتماعي هي بداية انحدار المجتمع بأكمله نحو هاوية الرذيلة والابتذال ومن ثم تساقط بنيانه حجراً بعد حجر حتى ينهدم البنيان بأكمله، لذلك كان العقاب الفردي صارماً لمن يرتكب عملاً يقود أو يساهم في انهيار المجتمع بأكمله.

ويجب أن لا نغفل هنا عن الإشارة إلى أن إقامة حد الزنا بموجب الشرع الإسلامي يستوجب أقصى درجات التحقق والحيطة والحذر حتى لا يستسهل الناس إطلاق التهم جزافاً فتكون العقوبة عندها عقوبة مفرغة من معانيها ومدلولاتها.

والإسلام ينظر نظرة موضوعية إلى حاجات وغرائز الفرد، والرجل والمرأة في هذه النظرة سواء. ومن هذه الحاجات أو السنن الالهية هي علاقة الجذب بين الرجل والمرأة والسر في هذا الانجذاب الغريزي هو لديمومة النسل وخلافة الأرض.

ولكن الإسلام لا يترك هذا الانجذاب يأخذ مداه الحر والمطلق حسب هوى الأفراد - كما هو قائم في المجتمعات الغربية - بل ينظم ذلك بالزواج على أسس تكفل تحقق تلك الحاجات الحسية وتكفل في الوقت نفسه حقوق الرجل والمرأة وحقوق ما يلحق بهما من ذرية..

وتكفل بالنتيجة صيانة المجتمع وكرامة الإنسان فيه.

والنظام الاجتماعي في الإسلام يحث على الزواج ويدعو إلى تسهيله

والترغيب فيه وإبراز عظم الثواب لمن ساهم وعاون على تحقيقه حتى من الآباء.

وهذا النظام يتطلع إلى تحقيق الفرصة لكل رجل وامرأة بالغين لدخول حصن الزواج بحيث لا يبقى خارجه إلا من لم يبلغ الحلم بعد أو طاعن في السن لا يرجو نكاحاً.

وفي عين الوقت ينظر إلى الطلاق كأبغض الحلال وآخر حل يلجأ إليه الزوجان بعد أن يستنفذان هما وأهلوهما كل سبل النصح والإرشاد والتوجيه وبعد أن يستنفذ القضاء الإسلامي دوره في محاولة التقريب وعدم التفريق.

فكل زواج ناجح هو إضافة للبنة جديدة إلى بنيان المجتمع وكل طلاق هوهدم وتشويه لهذا البناء لا يحبذ اللجوء إليه إلا إذا كانت اللبنة هذه غير موضوعة أساساً في مكانها الصحيح.

من أجل هذا كانت المرأة التي يموت عنها زوجها يسعى لتزويجها ولي أمرها أو يسعى للزواج بها ساع للزواج راغباً بذلك تحقيق العفة لنفسه ولها ولكفالة الأيتام إن كان لها ولد.

لذلك قلما كان يوجد في المجتمع رجل أعزب أو امرأة عزباء. وكان معظم الأولاد يربون تحت المظلة الأسرية وما توفره من حضن دافئ لتنشئة الجيل الجديد على ما يرتضيه الله من الحلال وما ينهى عنه من منكر وحرام من القيم والسلوك والصفات.

وليس معنى ذلك أن المجتمع كان مثالياً نقياً وطاهراً لا توجد فيه نماذج سيئة أو لا يصدر عن بعض أفراده سلوك مخالف للشرع، ولكن القياس يكون بالشامل الأعم وليس بالشواذ أو الحالات الفردية.

والمجتمع المسلم يراعي في تشريعه وتقييمه مجمل البناء الاجتماعي وليس تأثر فرد أو مجموعة افراد تأثراً حسياً وعاطفياً.

النظام الإسلامي يلبي طموحات الفرد ويحقق رغباته في ظل طموحات المجتمع ولا يقبل بتذويب مصلحة المجتمع أو التفريط بها مقابل المصلحة الفردية.

فالنفس البشرية لها نوازع ورغبات قد لا تلتقي بل تتقاطع مع مصالح

المجتمع في العديد من الحالات وليس من المنطق أن يرضخ المجتمع لسلوك خاطئ يفر بجمهوره من أجل تحقيق رغبة فردية.

وهكذا فان التعدد في الجتمع الإسلامي الأول كان أحد مقومات تحصين المجتمع إلى جانب كل التشريعات والممارسات التي تلتقي عند هذا الهدف وبغض النظر إن كان في هذا التشريع أو الممارسات ضرر جزئي لفئة من النساء أو ضد فطرتهن كما يرين معظم النساء.

ويجب الانتباه الى نقطة في غاية الأهمية وهو أن الله سبحانه وتعالى عادل في حكمه وليس من المنطق ان يقر الله تشريعا ربانيا يكون ضد الفطرة الانسانية ومخالفا لنواميسها. الا انها النفس الانسانية التي تريد أن تفسر الأمر على أن التعدد هوضد الفطرة التي فطرن عليها النساء وهذا مخالف لمنطق العدل الذي أقره الله للناس سبحانه وتعالى.

وفي الحقيقة ان التعدد وهولا يلبي رغبة امرأة في الاستحواذ بالزوج لوحدها يلبي طموح امرأة اخرى أن يكون لها زوج وأن تكون لها أسرة.

ولأن كل تعدد ينتج عنه مبدأ الشراكة كان ضابط العدل المطلق في حالته المادية والحالة المثالية القصوى في العدل الحسي معيار ضروري لكل حالة تعدد وبعكس ذلك يقع ظلم وجور ولا تتحقق الغاية التي أرادها الله من ترك هذه الفسحة من المشروعية.

الخلاصة

يخطئ من يظن أن التعدد لوحده يقود إلى تحصين المجتمع في الوقت الحاضر.

نعم إنه يساهم في ذلك إذا كانت كل السلوكيات الأخرى والممارسات على كل الأصعدة تأخذ في اعتبارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل ضمن الضوابط والتشريعات الإسلامية.

أما أن يكون المجتمع مجتمعاً تائهاً وقد فقد أصالته الإسلامية وابتعدَ عن المنهج الرباني فراسخ كثيرة، عقيدةً وفكراً وسلوكاً وأصبح كالجرم التائه في كون مضطرب ينجذب إلى هذا الفكر أو ذاك ويسلك هذه الطريق أو تلك فان التعدد لا يكون في الحقيقة إلا رغبة فردية لا ترتبط بمنهج المجتمع وضوابطه لأن المجتمع غير منضبط وليس له منهج أصلاً.

وكيف يقود التعدد إلى التعفف والتحصين ونحن نرى عزوفاً كبيراً من الشباب عن الزواج ونرى أن حالات الطلاق في بعض مجتمعاتنا تكاد تكون أكثر من حالات الزواج ويكون سبب الطلاق في معظم الحالات واهياً ضعيفاً تغلب عليه المادة والمزاج القاصر والقرار الأخرق غير المنضبط.

قد يكون التعدد هنا تحصيناً للرجل نفسه أو المرأة التي يتزوجها ولكن في غياب الضوابط الاخلاقية الإسلامية لعموم المجتمع فإن التعدد يكون عبئاً ثقيلاً على الرجل قبل أن يكون عبئاً على المرأة.

ففي ظلّ التجاذبات التي ستتعرض لها الزوجة الأولى أو الثانية من محيطهما وأكثرها في الواقع تجاذبات وضغوطات سلبية تحريضية لاتخاذ مواقف متشددة. كأن تحرض الزوجة الأولى على التهديد بطلب الطلاق ما لم يطلق الثانية أو تحريض الثانية على الشيء نفسه ويبقى الرجل متأرجحاً بين موقفين متضادين لا يريدهما كلاهما.

وقد ينجح أو يفشل في التوفيق بين الطرفين وفي حال نجاحه يكون نجاحاً هشاً ظرفياً سرعان ما يتجدد الخلاف ويتفاقم من جديد عند أول منعطف وأقل إثارة. وإذا فشل تكون حياته جحيماً وبؤساً وشقاء.

وقليلة جداً هي الحالات الساكنة والراكدة التي يسودها التعقل ويغلب عليها الوئام والألفة.

هذه الأفكار المتواضعة أضعها بين يدي الباحثين والعلماء والفقهاء وكل رجل يريد أن يلجأ إلى التعدد وكل امرأة تجد نفسها قد وقعت في التجربة مرغمة أو طواعية بأن تكون الأولى أو الثانية.

وأملي أن يكون المعيار الأخلاقي الإسلامي الراقي هوالحكم والفيصل في التعامل لكي لا يجد الرجل نفسه ظالماً وهويريد التحصن أو يبتغي الولد. ولكي لا تتسبب المرأة سواءاً كانت الزوجة الأولى أو الثانية في تدمير نفسها أو زوجها وبيتها.

أريدهم جميعاً أن يتعمقوا فيما أجريناه افتراضاً من سجالات بين الرجل والمرأة أو المرأة والمرأة في الأمثلة التي سبقت.

وأن يتريث كل رجل يطرق هذا الباب بتهور وتتأنى كل امرأة - قبولا أو رفضا - قبل اتخاذ موقف لا يمكن تصحيحه بعد وقوعه أو يكون في الموقف نفسه جور وظلم.

وأحث الباحثين والعلماء والفقهاء من التعمق في هذا الموضوع بحثاً ودراسةً ورأياً سديداً بشكلٍ أكثرَ تفصيلاً ونضجاً ومقاربة للواقع.

والله من وراءِ القصد.

تمت

فهرس المحتويات

ومضات ايمانيـة

دراسة مختصرة في تعدد الزوجات

WAMAḌĀT ĪMĀNIYAH

(Sparkles of Faith)

Followed by

Dirāsah muḫtaṣarah fī taᶜaddud al-zawjāt

(A brief study about polygamy)

by

Zuhayr Āmīdi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon